

قواعد قرآنية

هـ. قَاعِدَةٌ قُرْآنِيَّةٌ فِي النَّفْسِ وَالْحَيَاةِ

أَعَدَهَا

د. عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُقْبِلِ

الأستاذ المشارك في طَيِّبَةِ سُورِيَّةِ وَاللِّسَانِ الْإِسْلَامِيَّةِ
جَامِعَةِ لُقَيْمِ



قواعد قرآنية

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

المملكة العربية السعودية

الرياض - الدائري الشرقي - مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ - فاكس ٢٥٤٩٩٩٦

ص.ب ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الإلكتروني: tadabbor@gmail.com

ح) عمر بن عبد الله بن محمد المقبل، ١٤٣١ هـ.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المقبل، عمر عبد الله محمد

قواعد قرآنية . / عمر عبد الله محمد المقبل . - الرياض، ١٤٣٢ هـ

... ص: ١٧ × ٢٢ سم

ردمك: ج. - ٧٤٤٦ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان

ديوي ٢٢٥ . ٤٥٩٠ / ١٤٣٢

دار الحضارة للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: ١٤٣٢ / ٤٥٩٠

ردمك: ج. - ٧٤٤٦ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

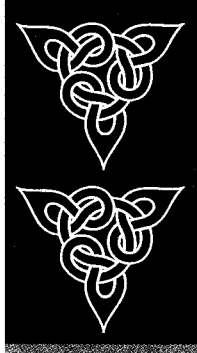


قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مَقَلَمَةٌ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، قبيًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، ما رحم عباده بمثل إنزال القرآن، الذي جعله هدىً وموعظةً وذكرى، وجعل لتاليه والعاملين به من لدنه خيرًا وأجرًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، كانت حياته وأخلاقه للقرآن تفسيرًا وشرحًا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديهم، واستن بسنتهم إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فإن وجوه الإعجاز في كتاب الله لا تنتهي، ولا غرو! فهو كلام الله ﷻ! ولقد تفنن علماء هذه الأمة في إبراز ما استطاعوا من تلك الأوجه -التشريعية، والبيانية، والبلاغية- التي تزيد المؤمن يقينًا أن هذا القرآن كلام الله تعالى، وتجعله يتلذذ بتلاوته، وتنتفتح له آفاق رحبة عند تدبره.

وإن من أوجه الإعجاز الذي تضمنه كتاب الله جل وعلا: ما حواه من جُمَلٍ قليلة المباني، عظيمة المعاني، يقرأ فيها المسلم الجملة المكونة من كلمتين أو ثلاث كلمات

أو أربع، فإذا به يجد تحتها كنوزًا من الهدايات العلمية، والإيمانية، والتربوية، والتي جاءت على صورة: (قواعد قرآنية).

ولئن كان نبينا محمد ﷺ قد أخذ بناصية البيان، وأوتي جوامع الكلم، فما الظن بكلام واهب تلك المواهب لعبده وخليله؟!

إن من أعظم مزايا هذه القواعد: شمولها، وسعة معانيها، فليست هي خاصة بموضوع محدد كالتوحيد، أو العبادات مثلاً، بل هي شاملة لهذا ولغيره من الأحوال التي يتقلب فيها العباد، فثمة قواعدٌ تعالج علاقة العبد بربه تعالى، وقواعدٌ تصحح مقام العبودية، وسير المؤمن إلى الله والدار الآخرة، وقواعدٌ لترشيد السلوك بين الناس، وأخرى لتقويم وتصحيح ما يقع من أخطاء في العلاقة الزوجية، إلى غير ذلك من المجالات، بل لا أبالغ إذا قلتُ -وقد تتبعْتُ أكثر من مائة قاعدة في كتاب الله-: إن القواعد القرآنية لم تدع مجالاً إلا طرقته.

إنه ليروق للكثيرين استعمال واستخدام ما يعرف بالتوقيعات، وتكون هذه التوقيعات بيتاً من الشعر حيناً، وتكون حيناً آخر كلمة لأحد الحكماء، وفي أحيان أخرى: قطعةٌ من حديث شريف، وهذا كله لا إشكال فيه، لكن لبيتنا نفعٌ معاني القرآن من خلال تكرار القواعد القرآنية التي حفل بها كتابُ الله تعالى؛ فإن ذلك له فوائد كثيرة، منها:

- ١- ربط الناس بكتاب ربهم تعالى في جميع شؤونهم وأحوالهم.
- ٢- ليرسخ في قلوب الناس أن القرآن فيه علاج لجميع مشاكلهم مهما تنوعت، تارةً بالتنصيص عليها، وتارةً بالإشارة إليها من خلال هذه القواعد.
- ٣- أن تفعيل هذه القواعد القرآنية، وكثرة تردادها على الألسنة؛ يجعل منها بديلاً عن كثير من الغث الذي ملئت بها توقيعات بعض الناس سواء في كلماتهم، أو

مقالاتهم، أو معرفاتهم على الشبكة العالمية.

وأصل هذه الأوراق حلقات ألقيتها في إذاعة القرآن الكريم السعودية (عام: ١٤٣٠هـ)، فوِّقت -بحمد الله- من بعض الفضلاء وقعها الحسن -من داخل المملكة وخارجها- وكان الاقتراح أن تنشر؛ لعل الله ينفع بها، فأعدت النظر فيها، وأعدت صياغتها بما يتناسب والنشر الورقي.

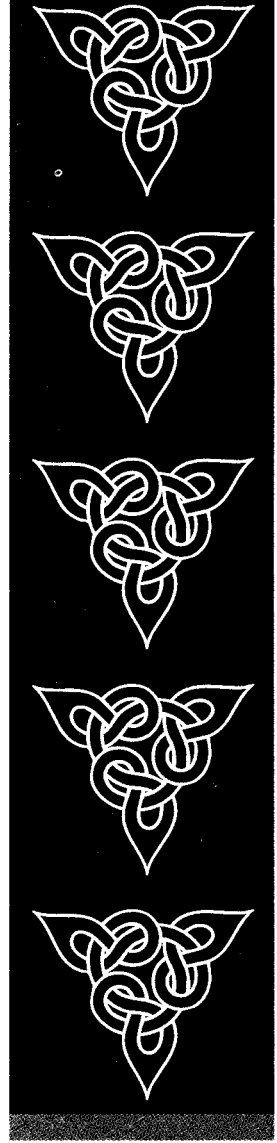
سائلًا الله تعالى أن يجعلها ذخراً عنده، مقربةً لديه، والحمد لله رب العالمين.

د. عمر بن عبد الله المقبل

١ / ٥ / ١٤٣٢ هـ

omar@tadabbor.com





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



تمهيد

يحسن قبل الدخول إلى ما تيسر إعداده من قواعد، أن أبين حدّ هذه القواعد، ومرادي بها؛ فأقول: تضمن العنوان كلمتين: قواعد، وقرآنية:

فأما «القواعد»: فهي جمع قاعدة، وأصلها اللغوي يعود إلى مادة (قعد)، وهي - كما يقول ابن فارس -: «أَصْلُ مُطَرِّدٍ مُنْقَاسٌ لَا يُخْلَفُ، وَهُوَ يُضَاهِي الْجُلُوسَ وَإِنْ كَانَ يُتَكَلَّمُ فِي مَوَاضِعَ لَا يُتَكَلَّمُ فِيهَا بِالْجُلُوسِ، ... وَقَوَاعِدُ الْبَيْتِ: أَسَاسُهُ»^(١) فكان قواعد البيت في سفوها تخالف عوالية، ولهذا يقال: «والقاعِدُ وَالْقَاعِدَةُ: أصل الأَسِّ.

وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، وَفِيهِ: ﴿فَأَنبَأَ اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: الْقَوَاعِدُ: أَسَاطِينُ الْبِنَاءِ الَّتِي تَعْمِدُهُ»^(٢).
وعلى هذا فقاعدة الباب: الأصل الذي تنبني عليه مسائله، وفروعه.

أما تعريف القاعدة اصطلاحًا: فهو: «قَضِيَّةٌ كَلِمِيَّةٌ مَنْطِقِيَّةٌ عَلَى جُزْئِيَّاتِهَا»^(٣).

(١) مقاييس اللغة: (١٠٨/٥).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده: (١٧٢/١).

(٣) تيسير التحرير (١ / ١٤)، وينظر: التعريفات (١٧١)، إجابة السائل شرح بغية الأمل، ص:

(٢٥)، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، ص: (٣١/١).

- فقولهم: «قضية كلية» أي يدخل تحتها جميع أجزائها، لا يشذ من ذلك شيء. وهذا الوصف دقيق، ومطرد في حق القواعد القرآنية التي تعتمد الآية الكريمة، أو جزءاً منها في إثباتها؛ لأنها تعتمد على النص القرآني، فهو كلام الله تعالى الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

أما بالنسبة للقواعد التي يصوغها علماء الأصول، أو علماء التفسير، فهذه الكلية قد تنتقض في بعض صورها، فهي -إذن- نسبية، وليست مطردة.

ولا يلزم -في هذه القواعد- من ذلك تعديل الصياغة ليقال بأن القواعد «حكم أغلبي»؛ لوجود استثناءات في بعض القواعد، كلا؛ لأن هذه الاستثناءات لا تخرق القاعدة؛ فالعبرة بالأغلب، كما يقول الكفوي: «وتخلف الأصل في موضع أو موضعين لا يُنافي أصالته»^(١).

- وقولهم: «منطبقة على جزئياتها»؛ لأن هذه هي حقيقة القاعدة، فهي الأساس والأصل لما فوقها، وهي تجمع فروعاً من أبواب شتى^(٢).

- وأما «القرآنية»: فنسبة إلى القرآن، وهو لغة: مأخوذ من قرأ، وأصلها من قرى كما يقول ابن فارس -الذي: «يَدُلُّ عَلَى جَمْعٍ وَاجْتِمَاعٍ..، وَمِنْهُ: الْقُرْآنُ، كَأَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِجَمْعِهِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْقِصَصِ وَغَيْرِ ذَلِكَ»^(٣).

وأقرب ما قيل في تعريفه اصطلاحاً: «كلام الله تعالى حقيقة، المنزل على محمد ﷺ،

(١) الكليات: (١٢٢)، وللشاطبي رَحِمَهُ اللهُ كَلامَ نَفِيسٍ فِي تَقْرِيرِ صِحَّةِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى الْقَوَاعِدِ وَإِنْ وَجَدَ لَهَا اسْتِثْنَاءَاتٍ، أَوْ تَخَلَّفَتْ بَعْضُ جُزْئِيَّاتِهَا، يَنْظُرُ: الْمَوَافَقَاتِ: (٨٣/٢)، قَوَاعِدِ التَّفْسِيرِ لِلْسَّبْتِ: (٢٣/١).

(٢) الكليات: (٧٢٨).

(٣) مقاييس اللغة: (٧٨/٥) بتصرف، وفي «الإتقان» للسيوطي: ٣٣٩/٢ (النوع السابع عشر) بسط وتوسع في اشتقاقه، ليس هذا موضع بسطه.

المتعبد بتلاوته»^(١).

وأما استعمال هذا اللفظ (قرآنية)؛ فإنني لم أقف على استعمال هذه النسبة (قرآنية) في كتب المتقدمين من أئمة اللغة، وإنما وجدت عند بعض المتأخرين، كما في تاج العروس للزبيدي (ت: ١٢٠٥)^(٢)، وفي «كليات» أبي البقاء الكفوي (ت: ١٠٩٤)^(٣).

وأما ورود هذه النسبة في كتب المفسرين من القرن السادس والسابع فكثير، ومن أقدم من وقفت على استعماله لها: الرازي (ت: ٦٠٦) في تفسيره «مفاتيح الغيب»^(٤)، وأبي حيان (ت: ٧٤٥) في «البحر المحيط»^(٥).

وأما وروده في كلام غير المفسرين من المتأخرين، فكثير جداً، وليس هذا مما يعيننا ههنا.

(١) ينظر: «الإتقان» للسيوطي: ٣٣٩ / ٢ (النوع السابع عشر)، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (١٧).

ومما يحسن ذكره ههنا، ما علقه الشيخ محمد بن عبدالله دراز رحمته الله حيث قال - بعد تحدث عن فضل القرآن على ما سبقه من الكتب السماوية -: «لما كان القرآن بهذا المعنى الأسمى جزئياً حقيقياً كان من المتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص،...، وأما ما ذكره العلماء من تعريفه بالأجناس والفصول - كما تعرف الحقائق الكلية - فإننا أرادوا به تقريب معناه، وتمييزه عن بعض ما عداه، مما قد يشاركه في الاسم ولو توهماً؛ ذلك أن سائر كتب الله تعالى، والأحاديث القدسية، وبعض الأحاديث النبوية، تشارك القرآن في كونها وحياً إلهياً، فربما ظن ظاناً أنها تشاركه في اسم القرآن أيضاً، فأرادوا بيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التي امتاز بها عن تلك الأنواع»^١. هـ. ينظر: «النبا العظيم» (٤٣).

(٢) ينظر - على سبيل المثال -: تاج العروس: (١١ / ١٦٣، ١٨ / ١٩٠).

(٣) الكليات: (١ / ٤٢١).

(٤) ينظر - على سبيل المثال -: (٧ / ١١٠، ١٠ / ١٦٢، ١٧ / ٢٦٩).

(٥) ينظر على سبيل المثال: البحر المحيط في التفسير: (٦ / ٧٤).

وبناءً على ما تقدم، فيمكن الخلوص إلى تعريف القواعد القرآنية^(١)، باعتباره لقبًا على ما اصطلح عليه حديثًا بهذه الجملة، فيقال في تعريفها، هي:
«أحكام كلية قطعية، مستخرجة من نصوص القرآن».
ولتوضيح هذا التعريف يقال:

- قولنا: «أحكام كلية» فقد سبق البحث فيها قريبًا.

- وقولنا: «قطعية» أي: أن حكمها مقطوع به، فلا يتطرق إليه الظن في أصل بنيتها؛ لأنها مأخوذة من كلام الله تعالى، فهو حق متيقن؛ وإنما يتطرق الظن فيما يُدْخَلُهُ المتأمل من أفراد تلك القاعدة.

كما أن للظن مجالًا فيما يتعلق بتصنيف القواعد إلى كبرى وصغرى.

- قولنا: «مستخرجة من نصوص القرآن» وفي هذا إشارة إلى مادة هذه القواعد، فهي مأخوذة من الآيات القرآنية، وليست كقواعد المفسرين أو الأصوليين التي يجتهد العلماء في صياغتها وتحرير ألفاظها.



(١) نظرًا لأن هذا الميدان بكر؛ فلم أقف على من عرّفها باعتبار مجموع هاتين الكلمتين؛ لأن هذا العنوان لا أعلمه طُرق من قبل، ولهذا، فيمكن اختيار تعريف لهذه الجملة.



القاعدة

الأولى

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

الإنسان مدني بطبعه كما يقال، وكثرة تعاملاته اليومية تحتم عليه الاحتكاك بطوائف من الناس، مختلفي الأفهام والأخلاق، يسمع الحسن وغيره، ويرى ما يستثيره؛ فتأتي هذه القاعدة لتضبط علاقته اللفظية.

إنها قاعدة تكرر ذكرها في القرآن في أكثر من موضع، إما صراحة أو ضمناً: فمن المواضع التي توافق هذا اللفظ تقريباً: قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقريب من ذلك: أمره سبحانه بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

أما التي توافقها من جهة المعنى فكثيرة كما سنشير إلى بعضها بعد قليل. إذن: تأمل في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ جاءت في سياق أمر بني إسرائيل بجملته من الأوامر، وهي في سورة مدنية - وهي سورة البقرة - وقال قبل ذلك في سورة مكية - وهي سورة الإسراء - أمراً عاماً: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ ﴿ إِذَا فَنَحْنُ أَمَامَ أَوْامِرٍ مُحْكَمَةٍ، وَلَا يَسْتَشْنِي مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا فِي حَالِ مَجَادَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا سَبَقَ.

ومن اللطائف مع هذه الآية ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾: أن هناك قراءة أخرى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا ﴾ بفتح الحاء والسين.

قال أهل العلم: «والقول الحسن يشمل: الحسن في هيئته، وفي معناه، ففي هيئته: أن يكون باللطف، واللين، وعدم الغلظة والشدّة، وفي معناه: بأن يكون خيرًا؛ لأن كل قولٍ حسنٍ فهو خير، وكل قولٍ خيرٍ فهو حسن»^(١).

إننا نحتاج إلى هذه القاعدة بكثرة، خاصةً وأنا في حياتنا نتعامل مع أصناف مختلفة من البشر، فيهم المسلم وفيهم الكافر، وفيهم الصالح والطالح، وفيهم الصغير والكبير، بل ونحتاجها للتعامل مع أخص الناس بنا: الوالدان، والزوج والزوجة والأولاد، بل ونحتاجها للتعامل بها مع من تحت أيدينا من الخدم ومن في حكمهم.

* من صور تطبيقات هذه القاعدة:

وأنت - أيها المؤمن - إذا قلبت القرآن؛ وجدت أحوالاً نص عليها القرآن كتطبيق عملي لهذه القاعدة، فمثلاً:

١- تأمل قول الله تعالى - عن الوالدين -: ﴿ وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ إنه أمرٌ بعدم النهر، وهو متضمن للأمر بضده: وهو الأمر بالقول الكريم، الذي لا تعنيف فيه.

٢- وكذلك أيضًا فيما يخص مخاطبة السائل المحتاج: ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا نَنْهَرْهُ ﴾ بل بعض العلماء يرى عمومها في كل سائل! سواء كان سائلاً للمال أو للعلم، قال بعض

(١) ينظر: تفسير العثيمين (٣/١٩٦).

العلماء: «أي: فلا تزجره ولكن تفضل عليه بشيء، وأورده بقول جميل»^(١).

٣- ومن التطبيقات العملية لهذه القاعدة القرآنية، ما أثنى الله به على عباد الرحمن، بقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ يقول ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ فِي بَيَانِ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ بِاللَّهِ بِمَا يَكْرَهُونَهُ مِنَ الْقَوْلِ، أَجَابُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ مِنَ الْقَوْلِ، وَالسَّدَادِ مِنَ الْخُطَابِ»^(٢).

وهم يقولون ذلك «لا عن ضعف ولكن عن ترفع، ولا عن عجز إنما عن استعلاء، وعن صيانة للوقت والجهد أن ينفقا فيما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهم وأكرم وأرفع»^(٣).

إن مما يؤسف عليه أن يرى الإنسان كثرة الخرق لهذه القاعدة في واقع أمة القرآن، وذلك في أحوال كثيرة منها:

١- أنك ترى من يبشرون بالنصرانية يحرصون على تطبيق هذه القاعدة؛ من أجل كسب الناس إلى دينهم المنسوخ بالإسلام، أفليس أهل الإسلام أحق بتطبيق هذه القاعدة، من أجل كسب الخلق إلى هذا الدين العظيم الذي ارتضاه الله لعباده؟!
٢- في التعامل مع الوالدين.

٣- في التعامل مع أحد طرفي الحياة الزوجية.

٤- مع الأولاد.

٥- مع العمالة والخدم.

وقد نبهت آية الإسراء إلى خطورة ترك تطبيق هذه القاعدة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ

(١) تفسير الألوسي: (١٥/٢٣).

(٢) تفسير الطبري: (٢٩٥/١٩).

(٣) ينظر: الظلال: (٥/٣٣٠).

الشَّيْطَانُ يَنْزَعُ بَيْنَهُمْ ﴿٥٩﴾، وعلى من ابتلي بسمع ما يكره أن يحاول أن يحتمل أذى من سمع منه، وأن يقول خيراً، وأن يقابل السفه بالحلم، والقول البذيء بالحسن، وإلا فإن السفه والرد بالقول الرديء يُحْسِنُه كل أحد.

أفتى الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ لبعض الشعراء بما لا يوافق، فقال: يا أبا عبد الله، أتظن الأمير لم يكن يعرف هذا القضاء الذي قضيته؟! قال: بلى.

قال: إنما أرسلنا إليك لتصلح بيننا فلم تفعل، بالله لأقطعن جلدك هجاءاً!
فقال له الإمام مالك:

إنها وصفتَ نفسك بالسفه والدناءة! وهما اللذان لا يعجز عنها أي أحد، فإن استطعتَ أن تأتي الذي تنقطع دونه الرقاب فافعل: الكرم والمروءة^(١)!



(١) انظر: ترتيب المدارك (١/٥٩).



القاعدة الثانية

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾

هذه قاعدة عظيمة لها أثر بالغ في حياة الذين وعوها، واهتدوا بهداها، قاعدة لها صلة بأحد أصول الإيمان العظيمة: ألا وهو (الإيمان بالقضاء والقدر)، وتلكم القاعدة هي قوله سبحانه وتعالى - في سورة البقرة في سياق الكلام على فرض الجهاد في سبيل الله تعالى -: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] ^(١).

وهذا الخير المُجْمَل، فسره قوله تعالى في سورة النساء - في سياق الحديث عن مفارقة النساء -: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

فقوله: ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ مفسر وموضح للخير الذي ذكر في آية البقرة، وهي الآية الأولى التي استفتحنا بها هذا الحديث.

(١) لابن القيم كلام نفيس في الفوائد يحسن الاستفادة منه (٢٤٦).

ومعنى القاعدة باختصار:

أن الإنسان قد يقع له شيء من الأقدار المؤلمة، التي تكرهها نفسه، فربما جزع، أو أصابه الحزن، وظن أن ذلك المقدور هو الضربة القاضية على آماله وحياته، فإذا بذلك المقدور يصبح خيراً على الإنسان من حيث لا يدري.

والعكس صحيح: كم من إنسان سعى في شيء ظاهره خيراً، واستمات في سبيل الحصول عليه، وبذل الغالي والنفيس من أجل الوصول إليه، فإذا بالأمر يأتي على عكس ما يريد.

إنك إذا تأملت الآيتين الكريمتين الأولى والثانية، وجدت أن الآية الأولى - التي تحدثت عن فرض الجهاد- تتحدث عن ألم بدني وجسمي قد يلحق المجاهدين في سبيل الله - كما هو الغالب-، وإذا تأملت الآية الثانية -وهي آية مفارقة النساء- وجدتها تتحدث عن ألم نفسي يلحق أحد الزوجين بسبب فراقه لزوجته!
وإذا تأملت في آية الجهاد؛ وجدتها تتحدث عن عبادة من العبادات، وإذا تأملت آية النساء؛ وجدتها تتحدث عن علاقات دنيوية.

إذاً: فنحن أمام قاعدة تناولت أحوالاً شتى: دينية ودنيوية، وبدنية ونفسية، وهي أحوال لا يكاد ينفك عنها أحد في هذه الحياة التي:

جبلت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقداء والأقذار

وقول الله أبلغ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

إذا تبين هذا فاعلم أن إعمال هذه القاعدة القرآنية في الحياة من أعظم ما يملأ القلب طمأنينة وراحة، ومن أهم أسباب دفع القلق الذي عصفت بحياة كثير من الناس؛ بسبب موقف من المواقف، أو بسبب قدر من الأقدار المؤلمة جرى عليه في يوم من الأيام!

ولو قلبنا قصص القرآن، وصفحات التاريخ، أو نظرنا في الواقع؛ لوجدنا من ذلك عبرًا وشواهد كثيرة، لعلنا نذكر ببعض منها، عسى أن يكون في ذلك سلوة لكل محزون، وعبرة لكل مهموم:

١- قصة إلقاء أم موسى لولدها في البحر!

فأنت إذا تأملت وجدت أنه لا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة، وآثاره الطيبة في مستقبل الأيام، وهذا ما تعبر عنه خاتمة هذه القاعدة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢- وتأمل في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام تجد أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على ما جرى له ولأبيه يعقوب عليهما الصلاة والسلام.

٣- وتأمل في قصة الغلام الذي قتله الخضر بأمر الله تعالى؛ فإنه علل قتله بقوله: ﴿وَأَمَّا الْعَلْمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠ - ٨١]، لنقف هنا قليلاً ونتساءل:

كم من إنسان لم يقدر الله تعالى أن يرزقه بالولد، فضاق لذلك صدره؟! - وهذا شيء طبيعي - لكن الذي لا ينبغي أن يستمر: هو الحزن الدائم، والشعور بالحرمان الذي يقضي على بقية مشاريعه في الحياة!

وليت من حُرِمَ نعمة الولد يتأمل هذه الآية، ليس ليذهب حزنه فقط، بل ليطمئن قلبه وينشرح صدره، وليته ينظر إلى هذا القدر بمنظار النعمة والرحمة، وأن الله تعالى قد يكون صرف هذه النعمة رحمةً به! وما يدرية؟ لعله إذا رُزق بولد أن يكون هذا الولد سببًا في شقاء والديه وتعاستهما، وتنغيص عيشهما! أو تشويه سمعتها.

٤- وفي مقدمات غزوة بدرٍ، يربي القرآن في أتباعه هذا المعنى، فيقول: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال: ٥ - ٦]، فكم كتب الله للمؤمنين من الخير والعزة والهيبة للمسلمين بعد هذه الغزوة، التي كره أصحاب النبي ﷺ فيها خيار القتال!

٥- وفي السنة النبوية أمثلة كثيرة، منها: لما مات زوج أم سلمة: أبو سلمة رضي الله عنه تقول أم سلمة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها».

قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ؟ ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ! (١)

فتأمل هذا الشعور الذي انتاب أم سلمة - وهو شعور يتتاب بعض النساء اللاتي يُبتلين بفقد أقوى من تربطهن به علاقة في هذه الحياة ولسان حالهن: ومن خير من أبي فلان؟! - فلما فعلت أم سلمة ما أمرها الشرع به من الصبر والاسترجاع وقول المأثور: أعقبها الله خيراً لم تكن تحلم به.

وهكذا المؤمنة يجب عليها أن لا تختصر سعادتها، أو تحصرها في باب واحد من أبواب الحياة، نعم: الحزن العارض هذا شيء لم يسلم منه ولا الأنبياء والمرسلون! إنما الذي لا ينبغي: هو اختصار الحياة أو السعادة في موقفٍ واحد، أو ربطها برجل أو امرأة، أو شيخ!

(١) مسلمح (٩١٨).

٦- وفي الواقع قصص كثيرة جداً، أذكر منها: أن رجلاً قدم إلى المطار، وكان مجهداً بعض الشيء، فأخذته نومةً ترتب عليها أن أقلعت الطائرة، وفيها ركاب كثيرون يزيدون على ثلاثمائة راكب، فلما أفاق، وإذا بالطائرة قد أقلعت قبل قليل، وفاتته الرحلة، فضاق صدره، وندم ندمًا شديدًا، ولم تمض دقائق على هذه الحال التي هو عليها حتى أعلن عن سقوط تلك الطائرة، واحتراق من فيها بالكامل!

والسؤال: ألم يكن فوات الرحلة خيرًا لهذا الرجل؟! ولكن أين المعتبرون والمتعظون؟ والخلاصة:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم المقاصد

وأن يتوكل على الله، ويبدل ما يستطيع من الأسباب المشروعة، فإذا وقع شيءٌ على خلاف ما يجب، فليتذكر هذه القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وليتذكر أن من لطف الله بعباده: «أنه يُقدِّر عليهم أنواع المصائب، وضروب المحن والابتلاء بالأمر والنهي الشاق رحمةً بهم ولطفًا، وسوقًا إلى كمالهم، وكمال نعيمهم»^(١).

ومن أُلطف الله العظيمة: أنه لم يجعل حياة الناس وسعادتهم مرتبطة ارتباطًا تامًا إلا به سبحانه وتعالى، وبقية الأشياء يمكن تعويضها، أو تعويض بعضها: من كل شيء إذا ضيعته عوضٌ وما من الله إن ضيعته عوضٌ



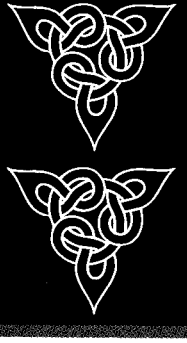
(١) تفسير أسماء الله الحسنى (٧٤) للسعدي.



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة

الثالثة

﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

تعتبر هذه الآية قاعدة من القواعد السلوكية التي تدل على عظمة هذا الدين وشموله وعظمة مبادئه، وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق آيات الطلاق في سورة البقرة، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

ومعنى القاعدة باختصار: أن الله تعالى يأمر من جمعهم علاقة من أقدس العلاقات الإنسانية - وهي علاقة الزواج - أن لا ينسوا - في غمرة التأثير بهذا الفراق والانفصال - ما بينهم من سابق العشرة، والمعاملة.

وهذه القاعدة جاءت بعد ذلك التوجيه بالعتفو: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ كل ذلك لزيادة الترغيب في العفو والتفضل الدنيوي.

ومع أن النسيان أمرٌ جبلي، ليس بوسع الإنسان دفعه؛ إلا أن الآية الكريمة جاءت بالتأكيد على عدم النسيان، والمراد به هنا: الإهمال وقلة الاعتناء.

وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تعليل للترغيب في عدم إهمال الفضل،

وتعريض بأن في العفو مرضاة الله تعالى، فهو يرى ذلك منا فيجازي عليه^(١).

إن العلاقة الزوجية - في الأعم الأغلب - لا تخلو من جوانب مشرقة، ومن وقفات وفاء من الزوجين لبعضهما، فإذا قُدِّرَ وآل هذا العقد إلى حل عقده بالطلاق؛ فإن هذا لا يعني نسيان ما كان بين الزوجين من مواقف الفضل والوفاء، ولئن تفرقت الأبدان، فإن الجانب الخلقى يبقى ولا يذهبه مثل هذه الأحوال العارضة.

وما أعظم أثر العفو! فإنه يقرب إليك البعيد، ويصير العدو صديقاً.

إذا تعارف الناس الفضل بينهم سهل على المذنب الاعتراف بالذنب، وسهل

على من له الحق أن يعفو، بخلاف ما إذا أصبحوا لا يتنازلون عن حقوق ذواتهم.

ولله ما أعظم هذه القاعدة لو تم تطبيقها بين الأزواج! وبين كل من تجمعنا بهم

رابطة أو علاقة من العلاقات!

لقد ضرب بعض الأزواج - من الجنسين - أروع الأمثلة في الوفاء، وحفظ

العشرة، سواء لمن حصل بينهم وبين أزواجهم فراق بالطلاق، أو بالوفاة.

أذكرُ نموذجاً وقفْتُ عليه، ربما يكون نادراً، وهو لرجل أعرفه شخصياً، طلق

زوجته - التي له منها أولاد - فما كان منه إلا أسكنها في الدور العلوي مع أولاده الذين

بقوا عندها، وسكن هو في الدور الأرضي، وصار هو الذي يسدد فواتير الاتصالات

والكهرباء ويقوم - تفضلاً - بالنفقة على مطلقته، حتى إن كثيراً ممن حوله من سكان

الحي لا يدرون أنه مطلق! وإني لأحسبه ممن بلغ الغاية في امتثال هذا التوجيه الرباني:

﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، نعم هذا مثال عزيز، لكني أذكره لأبين أن في الناس

خييراً.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٤٤٣/٢) بتصرف.

وهذا نموذج آخر، لكن يحكيه قاضي القضية: الشيخ علي الطنطاوي، يقول:
«قضية خلاف بين زوجين، طال أمده، واستفحل شره، وانتهى أمره إليّ، وعرض
كل منها دعواه على صاحبه؛ متهماً إياه بسوء العشرة، ومطالباً بحقوق عليه!
وألحت المرأة بطلب الطلاق، وبضم الأولاد إليها دون نفقة، وبعد دراسة دقيقة
للقضية؛ تبين لي أن لا سبيل للتوفيق بينهما على حالتها الراهنة؛ فقررت إجراء تجربة
الطلاق لمرة واحدة، وعرضتُ الفكرة عليهما؛ فلم يترددا في قبولها، وأوقع الزوج
الطليقة!

وهنا جعلتُ أذكرهما بحق المودة والرحمة والأولاد، وختمت بقوله تعالى: ﴿وَلَا
تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، وكان لكلامي أثره العاجل؛ فإذا الزوج يقول: إذا كان الأمر
للمودة والرحمة والأولاد؛ فإني متنازل عن كل حق لي عليها، ومستعد للإنفاق على
أبنائي ما داموا في كفالتها!

وأجابت المرأة على ذلك بأنها هي أيضاً متنازلة له عن مؤخر صداقها!
وكان من أسباب الخلاف بين هذين الزوجين: أن المرأة كلما استاءت من زوجها
حاولت الذهاب إلى بيت أهلها؛ فيمنعها أن تصحب متاعها سوى ما تلبسه!
ولكن ما إن صاروا إلى هذه النتيجة حتى تغير الحال، وقال الرجل لزوجته: هذا
مفتاح البيت؛ فخذني منه ما تحبين، ودعي ما تكرهين!

ولقد كان لهذا الموقف أثره البالغ في نفسي، وأكثر ما راعني منه: تلك الدموع
التي ذرفها كل منهما..^(١).

ولنقف قليلاً عند موقف عملي في سيرة من كان القرآن خُلِقَ ﷺ لنرى كيف

(١) ينظر: صناع التاريخ خلال ثلاثة قرون. للشيخ عبد العزيز العويد (ص ٩٠).

كان يترجم القرآن عملياً في حياته: وذلك أن أنه ﷺ لما رجع من الطائف، بعد أن بقي شهراً يدعو أهلها، ولم يجد منهم إلا الأذى، رجع إلى مكة، فدخل في جوار المطعم بن عدي، فأمر أولاده الأربعة فلبسوا السلاح، وقام كل واحد منهم عند الركن من الكعبة، فبلغ ذلك قريشاً فقالوا له: أنت الرجل الذي لا تُخفر ذمتك!

ومات المطعم بن عدي مشركاً، لكن النبي ﷺ لم ينس له ذلك الفضل، فأراد أن يُعبر عن امتنانه لقبول المطعم بن عدي أن يكون في جواره، في وقت كانت مكة كلها - إلا نفرًا يسيرًا - ضد النبي ﷺ، فلما انتهت غزوة بدر قال ﷺ: «لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء التتني لتركتهم له»^(١).

والمعنى: لو طلب مني تركهم وإطلاقهم من الأسر بغير فداء لفعلت؛ ذلك مكافأة له على فضله السابق في قبول الجوار، فصلوات الله وسلامه على معلم الناس الخير.

* من صور تطبيقات هذه القاعدة:

في حياتنا مجموعة من العلاقات -سوى علاقة الزواج-: إما علاقة قرابة، أو مصاهرة، أو علاقة عمل، فما أحرانا أن نطبق هذه القاعدة في حياتنا؛ ليبقى الود، ولتحفظ الحقوق، وتتصافى القلوب؛ وإلا فإن مجانية تطبيق هذه القاعدة الأخلاقية العظيمة، يعني مزيداً من التفكك، ووأداً لبعض الأخلاق الشريفة.

ومن العلاقات التي لا يكاد ينفك عنها أحدنا: علاقة العمل - سواء كان حكومياً أو خاصاً، أو تجارةً -، فقد تجمعنا بأحد من الناس علاقة عمل، وقد تقتضي الظروف أن يحصل الاستغناء عن أحد الموظفين، أو انتقال أحد الأطراف إلى مكان

(١) البخاري ح (٢٩٧٠).

عمل آخر برغبته واختياره، وهذا موضع من مواضع هذه القاعدة؛ فلا ينبغي أن يُنسى الفضل بين الطرفين، فكم هو جميل أن يبادر أحد الطرفين إلى إشعار الطرف الآخر: أنه وإن تفرقنا - بعد مدة من التعاون - فإن ظرف الانتقال لا يمكن أن ينسينا ما كان بيننا من وُدِّ واحترام، وتعاونٍ على مصالح مشتركة؛ ولذا فإنك تُكبر أولئك الأفراد، وتلك المؤسسات التي تُعبّر عن هذه القاعدة عملياً بحفل تكريمي أو توديعي لذلك الطرف؛ فإن هذا من الذكريات الجميلة التي لا ينساها المحتفَى به، وإذا أردت أن تعرف موقع وأثر مثل هذه المواقف الجميلة؛ فانظر إلى الأثر النفسي السلبي الذي يتركه عدم المبالاة بمن بذلوا وخدموا في مؤسساتهم الحكومية أو الخاصة لعدة سنوات، فلا يصلهم ولا خطاب شكر!

ومن ميادين تطبيق هذه القاعدة: الوفاء للمعلمين، وحفظ أثرهم الحسن في نفس المتعلم، وأعرف معلماً من رواد التعليم في إحدى مناطق بلادنا^(١)، ضرب مثلاً قيماً للوفاء؛ إذ لم يقتصر وفاؤه لأساتذته الذين درسوه، بل امتد لأبنائهم حينما مات أساتذته -رحمهم الله-، ويزداد عجبك حين تعلم أنه يتواصل معهم وهم خارج المملكة، سواء في مصر أو الشام، فله در هذا الرجل، وأكثر في الأمة من أمثاله. ورحم الله الإمام الشافعي يوم قال: «الحر من حفظ و داد لحظة، ومن أفاده لفظة».

وفي واقعنا مواضع كثيرة لتفعيل هذه القاعدة القرآنية الكريمة:

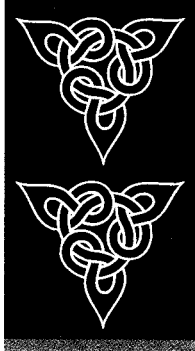
ف للجيران الذين افترقوا منها نصيب، ولجماعة المسجد منها حظ، بل حتى العامل والخادم الذي أحسن الخدمة، ولهذه القاعدة حضورها القوي في المعاملة، حتى قال بعض أهل العلم: «من بركة الرزق: أن لا ينسى العبد الفضل في المعاملة، كما قال تعالى:

(١) هو الأستاذ: عبد العزيز بن إبراهيم الخريف، من وجهاء حريملاء.

﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ بالتيسير على الموسرين، وإنظار المعسرين، والمحابة عند البيع والشراء، بما تيسر من قليل أو كثير، فبذلك ينال العبد خيراً كثيراً^(١).
نسأل الله تعالى أن يهدينا لأحسن الأخلاق والأعمال؛ لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يعيدنا من سيئها؛ لا يعيد منها إلا هو سبحانه.



(١) بهجة قلوب الأبرار (٣٧).



القاعدة الرابعة

﴿بَلِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ﴾

هذه قاعدة من قواعد التعامل مع النفس^(١)، ووسيلة من وسائل علاجها من أدوائها، وهي في الوقت نفسه سلّم لتترقى في مراقبي التزكية، فإن الله تعالى قد أقسم أحد عشر قسمًا في سورة الشمس على هذا المعنى العظيم، ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

ومعنى القاعدة باختصار: أن الإنسان وإن حاول أن يجادل عن أفعاله أو أقواله التي يعلم من نفسه بطلانها أو خطأها، واعتذر عن نفسه باعتذارات، فهو يعرف تمامًا ما قاله وفعله، ولو حاول أن يستر نفسه أمام الناس، أو يلقي الاعتذارات، فلا أحد أبصر ولا أعرف بما في نفسه من نفسه.

وتأمل كيف جاء التعبير بقوله: «بصيرة» دون غيرها من الألفاظ؛ لأن البصيرة متضمنة معنى الوضوح والحجة، كما يقال للإنسان: أنت حجة على نفسك!

(١) التحرير والتنوير (٢٩ / ٣٤٨): «وَقَدْ جَرَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَجْرَى الْمَثَلِ لِإِيحَازِهَا وَوَفْرَةِ مَعَانِيهَا».

* من صور تطبيقات هذه القاعدة:

إن لهذه القاعدة القرآنية مجالات كثيرة في واقعنا العام والخاص، أذكر بعضها؛
لعلنا أن نفيد منها في تقويم أخطائنا، وتصحيح ما نَدَّ من سلوكنا، فمن ذلك:

١- في طريقة تعامل بعض الناس مع النصوص الشرعية:

فلربما بلغ البعض نصًّا واضحاً محكِّمًا، لم يختلف العلماء في دلالاته على إيجاب أو
تحريم، أو تكون نفسه اطمأنت إلى حكم ما، ومع هذا تجد البعض يقع في نفسه حرجًا!
ويحاول أن يجد مدفعًا لهذا النص أو ذلك؛ لأنه لم يوافق هواه!

ورحم الله ابن القيم حيث قال: «فسبحان الله! كم من حزازة في نفوس كثير
من الناس من كثير من النصوص، وبودهم أن لو لم تَرِدْ؟ وكم من حرارة في أكبادهم
منها، وكم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها؟»^(١).

ولا ينفخ الإنسان أن يحاول دفع النصوص بالصدر؛ فالإنسان على نفسه بصيرة،
وشأن المؤمن أن يكون كما قال ربنا تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ
فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾
[النساء: ٦٥].

يقول ابن الجوزي، في كتابه الممتع (صيد الخاطر) - وهو يحكي مشاعر إنسان
يعيش هذه الحال مع النصوص الشرعية-: «قال بعض المعتبرين: قدرت مرة على لذة
ظاهاها التحريم، وتحتل الإباحة؛ إذ الأمر فيها متردد، فجاهدت النفس فقالت:
أنت ما تقدر فلماذا تركت! فقارب المقدور عليه، فإذا تمكنت فتركت؛ كنت تاركًا
حقيقة! ففعلت وتركت، ثم عاودت مرة أخرى في تأويل أرتني فيه نفسي الجواز

(١) الرسالة التبوكية، وتسمى أيضًا: زاد المهاجر.

- وإن كان الأمر يحتمل-؛ فلما وافقتها أثر ذلك ظلمة في قلبي؛ لخوفي أن يكون الأمر محرماً، فرأيت أنها تارة تقوى عليّ بالترخص والتأويل، وتارة أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع، فإذا ترخصت لم آمن أن يكون ذلك الأمر محظوراً، ثم أرى عاجلاً تأثير ذلك الفعل في القلب، فلما لم آمن عليها بالتأويل...» إلى أن قال: «فأجود الأشياء قطع أسباب الفتن، وترك الترخص فيما يجوز إذا كان حاملاً ومؤدياً إلى ما لا يجوز»^(١) انتهى كلامه.

٢- ومن مجالات تفعيل هذه القاعدة- في مجال التعامل مع النفس:-

- أن من الناس من شُغف - عياداً بالله- بتتبع أخطاء الناس وعيوبهم، مع غفلة عن عيوب نفسه، كما قال قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسيره لهذه الآية: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾: إذا شئت والله رأيت بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم، غافلاً عن ذنوبه^(٢)، وهذا - بلا ريب- من علامات الخذلان، كما قال بكر بن عبد الله المزني: إذا رأيتم الرجل موكلاً بعيوب الناس، ناسياً لعيبه؛ فاعلموا أنه قد مُكِرَ بِهِ.

ويقول الشافعي: بلغني أن عبد الملك بن مروان قال للحجاج بن يوسف: ما من أحد إلا وهو عارف بعيوب نفسه، فعب نفسك ولا تحبب منها شيئاً^(٣)، ولهذا يقول أحد السلف: أنفع الصدق أن تُقر الله بعيوب نفسك^(٤).

- ومن مواضع تطبيق هذه القاعدة: أن ترى بعض الناس يجادل عن نفسه في بعض المواضع - التي تبين فيها خطؤه - بما يعلم في قرارة نفسه أنه غير مصيب، كما

(١) صيد الخاطر: (٢٠٣-٢٠٤).

(٢) تفسير الطبري: (٦٣/٢٤).

(٣) حلية الأولياء: (١٤٦/٩).

(٤) حلية الأولياء: (٢٨٢/٩).

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾: فَإِنَّهُ يَعْتَذِرُ عَنِ نَفْسِهِ بِأَعْذَارٍ وَيَجَادِلُ عَنْهَا، وَهُوَ يَبْصُرُهَا بِخِلَافِ ذَلِكَ (١).

- وَمِنْ دَلَالَاتِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الشَّرِيفَةِ:

أَنْ يَسْعَى الْمَرْءُ إِلَى التَّفْتِيْشِ عَنِ عِيُوبِهِ، وَأَنْ يَسْعَى فِي التَّخْلِصِ مِنْهَا قَدْرَ الطَّاقَةِ، فَإِنَّ هَذَا نَوْعًا مِنْ جِهَادِ النَّفْسِ الْمَحْمُودِ، وَأَنْ لَا يَرْتَكِبُ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ عِيُوبٍ أَوْ أَخْطَاءٍ، بِحُجَّةٍ أَنَّهُ نَشَأَ عَلَى هَذَا الْخَلْقِ أَوْ ذَاكَ، أَوْ اعْتَادَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ أَعْلَمُ مِنْكَ بِنَفْسِكَ وَعِيُوبِهَا وَأَخْطَائِهَا وَذُنُوبِهَا، وَمَا تَسْرَهُ مِنْ أَخْلَاقٍ.

وإِلَيْكَ هَذَا النَّمُودَجُ الْمَشْرُوقُ مِنْ حَيَاةِ الْإِمَامِ ابْنِ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللهُ، حَيْثُ يَقُولُ - فِي

تَقْرِيرٍ هَذَا الْمَعْنَى -:

«كَانَتْ فِي عِيُوبٍ، فَلَمْ أَزَلْ بِالرِّيَاضَةِ وَاطِّلَاعِي عَلَى مَا قَالَتْ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَالْأَفْضَلُ مِنَ الْحُكَمَاءِ الْمَتَأَخِّرِينَ وَالْمَتَقَدِّمِينَ - فِي الْأَخْلَاقِ وَفِي آدَابِ النَّفْسِ - أَعَانِي مَدَاوِئَهَا، حَتَّى أَعَانَ اللهُ ﷻ عَلَى أَكْثَرِ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِهِ وَمَنِّهِ، وَتَمَامِ الْعَدْلِ وَرِيَاضَةِ النَّفْسِ وَالتَّصَرُّفِ بِأَزْمَةِ الْحَقَائِقِ هُوَ الْإِقْرَارُ بِهَا؛ لِيَتَعَطَّ بِذَلِكَ مَتَعَطَّ يَوْمًا إِنْ شَاءَ اللهُ» (٢).

ثُمَّ سَأَلَ الْإِمَامُ ابْنَ حَزْمٍ جَهْلَةً مِنَ الْعِيُوبِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ، وَكَيْفَ حَاوَلَ التَّغْلِبَ عَلَيْهَا، وَمَقْدَارَ مَا نَجَحَ فِيهِ نَجَاحًا تَامًا، وَمَا نَجَحَ فِيهِ نَجَاحًا نَسِيًّا.

- وَمِنْ مَوَاطِنِ اسْتِفَادَةِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ:

أَنَّ الْإِنْسَانَ مَا دَامَ يَعْلَمُ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِهِ؛ وَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَفَطَّنَ أَنَّ النَّاسَ قَدْ يَمْدَحُونَهُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، بَلْ قَدْ يُفْرَطُونَ فِي ذَلِكَ، وَفِي الْمَقَابِلِ قَدْ يَسْمَعُ

(١) مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى: (١٤ / ٤٤٥).

(٢) رَسَائِلُ ابْنِ حَزْمٍ: (١ / ٣٥٤).

يوماً من الأيام من يضع من قدره، أو يخفض من شأنه بنوع من الظلم والبغي، فمن عرف نفسه لم يغتر بمدحه بما ليس فيه، ولم يتضرر بذمه بما ليس فيه، بل يستفيد من ذلك بتصحيح ما فيه من أخطاء، ويسعى لتكميل نفسه بأنواع الكمالات البشرية قدر المستطاع.

ومن أشرف مجالات تطبيق هذه القاعدة:

أن من أكبر ثمرات البصيرة بالنفس: أن يوفق الإنسان إلى الاعتراف بالذنب والخطأ، وهذا مقام الأنبياء والصديقين والصالحين:

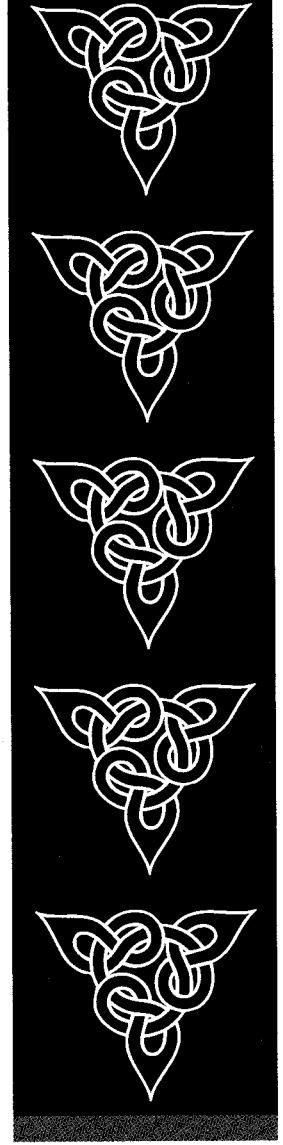
فتأمل في قول أبوينا - حين أكلا من الشجرة -: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّنَّ تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقول نوح عليه السلام - عندما نهاه الله أن يسأله ما ليس به علم -: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وقول موسى عليه السلام - ندماً على قتله القبطي -: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، في سلسلة متتابعة كان من آخرها: ما أثبتته القرآن عن أولئك المنافقين الذين اعترفوا بذنوبهم؛ فسلموا وتيب عليهم، قال تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] «فعلم أن من لم يعترف بذنبه كان من المنافقين»^(١).

أسأل الله تعالى أن يبصرنا بعيوننا، وأن يقينا شرها.





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الخامسة

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾

جاءت هذه القاعدة في سياق قصة موسى مع فرعون وسحرته، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ (٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿طه: ٥٦-٦٢﴾.

والافتراء يطلق على معاني منها: الكذب، والشرك، والظلم، وقد جاء القرآن بهذه المعاني الثلاث، وكلها تدور على الفساد والإفساد^(١).

قال ابن قيم الجوزية رحمته الله مؤكداً اطراد هذه القاعدة: «وقد ضمن سبحانه أنه لا بد أن يُحَيَّبَ أهل الافتراء ولا يهديهم، وأنه يُسْحِتُهُمُ بعذابه، أي يستأصلهم»^(٢).

* ومن صور تطبيقات هذه القاعدة:

إذا تأملت هذه القاعدة وجدت في الواقع - وللأسف - من له منها نصيب وافر،

ومن ذلك:

(١) مفردات الراغب: (٦٣٤).

(٢) الصواعق المرسله: (٤ / ١٢١٢).

١- الكذب والافتراء على الله، بالقول عليه بغير علم بأي صورة من الصور، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقد دلّ القرآن على أن القول على الله بغير علم أعظم المحرمات على الإطلاق! قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وأنت إذا تأملت في هذا الأمر؛ وجدت أن المشرك إنما أشرك لأنه قال على الله بغير علم! ومثله الذي يحلل الحرام أو يحرم الحلال، كما حكاه الله تعالى عن بعض أخبار بني إسرائيل.

ويدخل فيها الذين يفتون بغير علم، فهم من جملة المفترين على الله سبحانه وتعالى، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ أَلْسِنَتِكُمْ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وكل من تكلم في الشرع بغير علم فهو من المفترين على الله: سواء في باب الأسماء والصفات، أو في أبواب الحلال والحرام، أو في غيرها من أبواب الدين.

ولأجل هذا كان كثير من السلف يتورع أن يجزم بأن ما يفتي به هو حكم الله - إذا كانت المسألة لا نص فيها، ولا إجماع - قال بعض السلف: «ليتق أحدكم أن يقول: أحل الله كذا وحرم كذا فيقول الله له: كذبت! لم أحل كذا ولم أحرم كذا!»^(١).

ولهذا لما كتب الكاتب بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حكماً حكّم به، فقال: «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر!» فقال: لا تقل هكذا، ولكن قل: «هذا

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: (١/ ٣٩).

ما رأى عمر، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر»^(١).

وقال ابن وهب: سمعت مالكا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لم يكن من أمر الناس، ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحداً أقتدي به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره كذا، ونرى هذا حسناً فينبغي هذا ولا نرى هذا»^(٢).

فعلى من لم يكن عنده علم فيما يتكلم به أن يُمسك لسانه، وعلى من تصدر لإفتاء الناس أن يراعي هدي السلف في هذا الباب؛ فإنه خير وأحسن تأويلاً.

٢- ومن صور تطبيقات هذه القاعدة:

ما يفعله بعض الوضاعين للحديث - في قديم الزمان وحديثه - الذين يكذبون على النبي ﷺ ويفترون عليه: إما لغرض - هو بزعمهم - حسنٌ كالترغيب والترهيب، أو لأغراض سياسية، أو مذهبية، أو تجارية، كما وقع ذلك وللأسف منذ أزمنة متطاولة!

ولو استشعر كل من يضع الحديث على النبي ﷺ أنه من جملة المفترين - وأنه لن يفلح سعيه، بل هو خائب، كما قال ربنا: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى﴾ - لارعوى كثير من هؤلاء عن غيهم، ولا ينفعه ما يظنه قصداً حسناً - كما زعم بعض الوضاعين - فإن مقام الشريعة عظيم، وجنابها مصان ومحترم، وقد أكمل الله الدين، فلا يحتاج إلى حديث موضوع ومختلق، وليست شريعةً تلك التي تبنى على الكذب، وعلى من؟ على رسولها ﷺ؟

ومن المؤسف أن يرى لسوق الأحاديث الضعيفة والمكذوبة رواجٌ في هذا العصر

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (٢٠١٣٥).

(٢) إعلام الموقعين: (٣٩/١).

بواسطة الإنترنت، أو رسائل الجوال؛ فليتق العبد ربه، ولا ينشرن شيئاً ينسب إلى النبي ﷺ حتى يتثبت من صحته عنه.

٣- ومن صور تطبيقات هذه القاعدة القرآنية الكريمة المشاهدة في الواقع:

ما يقع من بعضهم - وللأسف الشديد - من ظلم وبغي على إخوانهم المسلمين، وهذا له أسبابه الكثيرة، لعل من أبرزها: الحسد - عياداً بالله منه -، والطمع في شيء من لعاعة الدنيا، أو لغير ذلك من الأسباب، ويعظّم الخطب حينما يُلبس بعض الناس صنيعة لبوس الدين؛ ليبرر بذلك فعلته في الوشاية بفلان، والتحذير من فلان بغيّاً وعدواناً.

ولقد وقفتُ على كثير من القصص في هذا الباب، منها القديم ومنها المعاصر اعترف أصحابها بها، وهي قصص تدمي القلب، وتفتت الكبد؛ بسبب ما ذاقوه من عاقبة افتراءهم وظلمهم لغيرهم، أكتفي من ذلك بثلاثة مواقف؛ لعل في ذكرها عظةٌ وعبرة:

١- لما جلس المتوكل - الخليفة العباسي - دخل عليه عبد العزيز بن يحيى الكناني فقال: يا أمير المؤمنين! ما رُوي أعجب من أمر الواثق! قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن! قال: فوجد المتوكل من ذلك، وساءه ما سمعه في أخيه، إذ دخل عليه محمد بن عبد الملك الزيات، فقال له: يا ابن عبد الملك، في قلبي من قتل أحمد بن نصر! فقال: يا أمير المؤمنين! أحرقتني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا!!!

قال: ودخل عليه هرثمة، فقال: يا هرثمة، في قلبي من قتل أحمد بن نصر! فقال: يا أمير المؤمنين! قطعني الله إرباً إرباً إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا!!!

قال: ودخل عليه أحمد بن أبي دؤاد، فقال: يا أحمد، في قلبي من قتل أحمد بن نصر!
 فقال: يا أمير المؤمنين! ضربني الله بالفالج إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافرًا!!
 قال المتوكل: فأما الزيات فأنا أحرقتة بالنار، وأما هرثمة فإنه هرب وتبدى
 واجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل من الحي فقال: يا معشر خزاعة، هذا الذي قتل
 أحمد بن نصر؛ فقطعوه إرْبًا إرْبًا!

وأما أحمد بن أبي دؤاد، فقد سجنه الله في جلده^(١)!!

٢- تحدثت إحداهن -وهي أستاذة جامعية ومطلقة مرتين- فقالت: حدثت
 قصتي مع الظلم قبل سبع سنوات، فبعد طلاقي الثاني قررت الزواج بأحد أقاربي
 الذي كان ينعم بحياة هادئة مع زوجته وأولاده الخمسة، حيث اتفقت مع ابن خالتي
 - الذي كان يحب زوجة هذا الرجل - اتفقنا على اتهامها بخيانة زوجها! وبدأنا في
 إطلاق الشائعات بين الأقارب، ومع مرور الوقت نجحنا، حيث تدهورت حياة
 الزوجين وانتهت بالطلاق!

وبعد مضي سنة تزوجت المرأة - التي طُلقَت بسبب الشائعات - برجل آخر ذي
 منصب، أما الرجل فتزوج امرأة غيري!، وبالتالي لم أحصل مع ابن خالتي على هدفنا
 المنشود، ولكننا حصلنا على نتيجة ظلمنا؛ حيث أصبت بسرطان الدم!

أما ابن خالتي فقد مات حرقاً مع الشاهد الثاني؛ بسبب التماس كهربائي في الشقة
 التي كان يقيم فيها، وذلك بعد ثلاث سنوات من القضية.

٣- أما ثالث هذه المواقف فيرويه شخص اسمه (حمّد) يقول: عندما كنت طالبًا
 في المرحلة الثانوية حدثت مشاجرة بيني وبين أحد الطلاب المتفوقين، فقررت -بعد
 تلك المشاجرة- أن أدمر مستقبله، فحضرت ذات يوم مبكرًا إلى المدرسة، ومعني

(١) تهذيب الكمال: (١/٥١١)، طبقات الشافعية الكبرى: (٢: ٥٣).

مجموعة من سجائر الحشيش - التي كنا نتعاطاها - ووضعتها في حقيبة ذلك الطالب، ثم طلبت من أحد أصدقائي إبلاغ الشرطة بأن في المدرسة مروج مخدرات، وبالفعل تمت الخطة بنجاح، وكنا نحن الشهود الذين نستخدم المخدرات.

يقول حمد هذا: ومنذ ذلك اليوم وأنا أعاني نتيجة الظلم الذي صنعه بيدي، فقبل سنتين تعرضت لحادث سيارة فقدتُ بسببه يدي اليمنى، وقد ذهبت للطالب في منزله أطلب منه السماح، ولكنه رفض لأنني تسببت في تشويه سمعته بين أقاربه حتى صار شخصاً منبوذاً من الجميع، وأخبرني بأنه يدعو عليّ كل ليلة؛ لأنه خسر كل شيء بسبب تلك الفضيحة، ولأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب فقد استجاب الله دعوته، فها أنا بالإضافة إلى يدي المفقودة أصبحت مقعداً على كرسي متحرك نتيجة حادث آخر! ومع أي أعيش حياة تعيسة، فإني أخاف من الموت؛ لأنني أخشى عقوبة رب العباد^(١).



(١) نشرت هذه القصص في مقال للكاتب محمد بن عبد الله المنصور، بعنوان: (رسالة بلا عنوان!) في جريدة اليوم الإلكترونية، عدد (١١٨٥٤)، الاثنين ٢٦/١٠/١٤٢٦هـ الموافق: ٢٨/١١/٢٠٠٥م.



القاعدة السادسة

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾

هذه قاعدة من قواعد بناء المجتمع، وإصلاحه، وتدارك أي سبب لتفككه، وقد وردت هذه القاعدة في سياق الحديث عما قد يقع بين الأزواج من أحوال قد تؤدي إلى الاختلاف والتفرق، وأن الصلح بينهما على أي شيء يرضيانه خير من تفرقهما، يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

ويمكننا القول: إن جميع الآيات التي ورد فيها ذكر الإصلاح بين الناس هي من التفسير العملي لهذه القاعدة القرآنية المتينة.

ومن المناسبات اللطيفة أن ترد هذه الآية في سورة النساء، وهي نفس السورة التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

يقول ابن عطية -مؤكدًا أطراد هذه القاعدة-: «وقوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ لفظٌ عام مطلق، يقتضي أن الصلح الحقيقي -الذي تسكن إليه النفوس ويزول به

الخلاف - خيرٌ على الإطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أن صلح الزوجين على ما ذكرنا خير من الفرقة»^(١).

ومعنى الآية باختصار:

أنه «إذا خافت المرأة نشوز زوجها، أي: ترفُّعه عنها، وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن - في هذه الحالة - أن يصلحا بينهما صلحًا؛ بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها: إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة أو الكسوة أو المسكن، أو القسم بأن تُسقط حقها منه، أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى: أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة - في جميع الأشياء - أنه خيرٌ من استقصاء كل منهما على كل حقه؛ لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة والاتصاف بصفة السماح.

وهو - أي الصلح - جائزٌ في جميع الأشياء إلا إذا أحل حرامًا أو حرم حلالًا، فإنه لا يكون صلحًا، وإنما يكون جورًا.

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك ونبه على أنه خير، والخيرُ كلُّ عاقلٍ يطلبه ويرغب فيه، فإن كان - مع ذلك - قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلبًا له ورغبة فيه.

(١) المحرر الوجيز: (١٤١/٢).

وذكر المانع بقوله: ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] أي: جبلت النفوس على الشح: وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له؛ فالنفوس مجبولة على ذلك طبعًا، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده وهو السباحة: بذل الحق الذي عليك، والافتناع ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومُعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه؛ فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر^(١).

ومن تأمل القرآن، وجد سعة هذه القاعدة من جهة التطبيق، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره - من الإصلاح بين الأزواج - فإننا نجد في القرآن حثًا على الإصلاح بين الفئتين المقتلتين، ونجده يثني ثناء ظاهرًا على الساعين في الإصلاح بين الناس: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

بل تأمل في افتتاح سورة الأنفال؛ فإنك واجدٌ عجبًا، فإن الله تعالى افتتح هذه السورة بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، فلم يأت الجواب عن الأنفال مباشرة، بل جاء الأمر بالتقوى وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله؛ لأن إغفال هذه الأصول الكبار سببٌ عظيم في شر عريض، ولعل من أسرار إرجاء الجواب عن هذا التساؤل: لبيان أن التقاتل على الدنيا - ومنها الأنفال (وهي الغنائم) -

(١) تفسير السعدي (ص: ٢٠٧).

سببٌ في فسادِ ذاتِ البين؛ ولهذا جاء الجواب عن سؤال الأنفال بعد أربعين آية من هذا السؤال.

ولأهمية هذا الموضوع - أعني الإصلاح - : أجازت الشريعة أخذ الزكاة لمن غرم بسبب الإصلاح بين الناس.

إذا تقرر هذا المعنى المتين والشامل لهذه الآية الكريمة: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾؛ فمن المهم - لنستفيد من هذه القاعدة القرآنية - أن نسعى لتوسيع مفهومها في حياتنا العملية، وأصدق شاهد على ذلك سيرة نبينا ﷺ، الذي طبق هذه القاعدة في حياته، وهل كانت حياته إلا صلاحًا وإصلاحًا!

المصلحون أصابعٌ جُمعت يدًا هي أنت، بل أنت اليدُ البيضاءُ

- ومن أمثلة ذلك: أنه ﷺ حينما كبرت زوجته أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها، ووقع في نفسه أن يفارقها، فكانت تلك المرأة عاقلة رشيدة؛ فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة، فقبل ذلك منها، وأبقاها على ذلك.

- طبق النبي ﷺ هذه القاعدة في قصة بريرة - وهي أمةٌ قد أعتقتها عائشة رضي الله عنها

- فكرهت أن تبقى مع زوجها، الذي كان شديد التعلق بها، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما

- وهو يصف حب مغيث لبريرة - : لكأني به في طرق المدينة ونواحيها، وإن دموعه

لتسيل على لحيته؛ يترضاها لتختاره فلم تفعل! ^(١)، فقال النبي ﷺ: «لو راجعته!»

قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: «إنها أنا أشفع» قالت: لا حاجة لي فيه ^(٢).

فانظر كيف حاول ﷺ أن يكون واسطة خير بين زوجين انفصلا، وشفع لأحد

الطرفين لعله يقبل، فلم يشأ أن يجبر؛ لأن من أركان الحياة الزوجية الحب، والرغبة!

(١) الترمذي ح (١١٥٦).

(٢) البخاري ح (٥٢٨٣).

- خرج مرة ﷺ إلى أهل قباء، لما أُخْبِرَ أنهم اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فقال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم»^(١).

وعلى هذه الجادة النبوية سار تلاميذه النجباء، من أصحابه الكرام وغيرهم ممن سار على نهجهم، ومن ذلك:

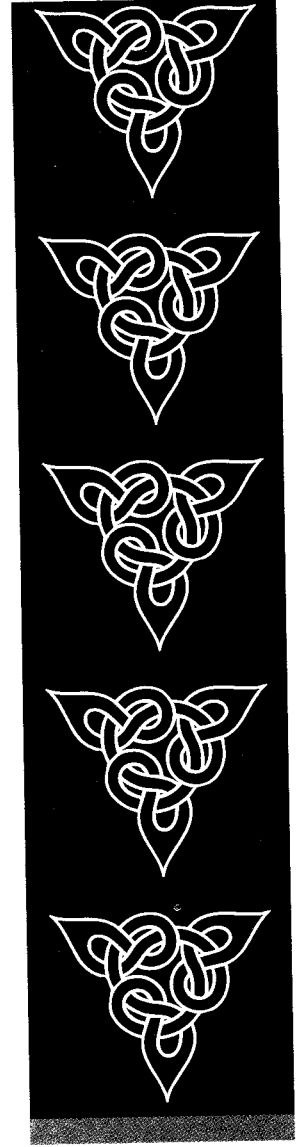
- خروج ابن عباس رضي الله عنه لمناظرة الخوارج - الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه - فرجع منهم عدد كبير.

ومن قلب كتب السِّير؛ وجد نماذج مشرقة لجهود فردية في الإصلاح بين الناس على مستويات شتى، ولعل مما يبشر بخير: ما نراه من لجان إصلاح ذات البين، والتي هي في الحقيقة ترجمة عملية لهذه القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

فهنيئاً لمن جعله الله من خيار الناس، الساعين في الإصلاح بينهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



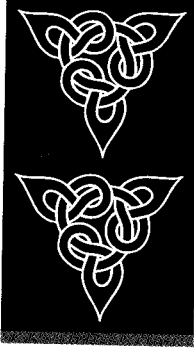
(١) البخاري ح (٢٥٤٧).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة

السابعة

﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾

هذه قاعدة من قواعد التعامل الإنساني، والتي جاءت في سياق الحديث عن موقف سجّله القرآن لبيان أصناف المعتذرين عن غزوة تبوك - التي وقعت في شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة - ومن هم الذين يُعذّرون والذين لا يُعذّرون.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٩٠ ﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ٩١ ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْنًا أَلَا يَحِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ٩٢ ﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَسْتَذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [التوبة: ٩٠-٩٣].

ومعنى القاعدة باختصار: «ليس على أهل الأعدار الصحيحة - من ضعف أبدان،

أو مرض أو زمانة^(١)، أو عدم نفقة - إثم، بشرط لا بد منه، وهو: ﴿إِذَا نَصَحُوا﴾ أي: بيناتهم وأقوالهم، سرًا وجهراً، بحيث لم يرجفوا بالناس، ولم يثبطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا...، ثم أكد الرجاء بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢).

وبما أن (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) - كما هو مقرر في علم أصول التفسير - فهذا يعني توسيع دلالة هذه القاعدة القرآنية التي دل عليها قوله سبحانه: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

وهذا يدل على أن الأصل هو سلامة المسلم من أن يلزم بأي تكليف سوى تكليف الشرع كما أن الآية تدل بعمومها أن الأصل براءة الذمة من إلزام الإنسان بأي شيء فيما بينه وبين الناس حتى يثبت ذلك بأي وسيلة من وسائل الإثبات المعتبرة شرعاً.

أيها المتأمل كلام ربه:

لقد كانت هذه الآية - ولا زالت - دليلاً يفرع إليه العلماء في الاستدلال بها في أبواب كثيرة في الفقه، خلاصته يعود إلى أنه «من أحسن على غيره، في نفسه أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن؛ لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن - وهو المسيء - كالمفترط، أن عليه الضمان»^(٣).

(١) «الرَّمَانَةُ لَعْنَةُ: الْبَلَاءِ وَالْعَاهَةِ، يُقَالُ: زَمِنَ زَمَانًا وَزَمَنَةً وَزَمَانَةً: مَرِضَ مَرَضًا يَدُومُ زَمَانًا طَوِيلًا، وَضَعَفَ بِكَبِيرٍ سِنَّ أَوْ مَطَاوَلَةَ عِلَّةٍ. فَهُوَ زَمِنٌ وَزَمِينٌ، وَلَا يُخْرَجُ اسْتِعْمَالُ الْفُقَهَاءِ هَذَا اللَّفْظَ عَنِ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ، قَالَ زَكَرِيَّا الْأَنْصَارِيُّ: الزَّمِنُ هُوَ الْمُتَبَلَّى بِأَفْئَةٍ تَمْتَعُهُ مِنَ الْعَمَلِ» الموسوعة الفقهية الكويتية: (٢٤ / ١٠).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز (٣ / ٧٨)، تفسير ابن كثير: (٢ / ٤٦٤).

(٣) تفسير السعدي (ص ٣٤٧).

وإذا تجاوزنا الجانب الفقهي الذي أشرتُ إليه بإجمال، فلتلتفت قليلاً إلى ميدان من الميادين التي نحتاج فيها إلى هذه القاعدة، ذلك أن حياتنا تحفل بمواقف كثيرة يُفْتَحُ فيها باب الإحسان، وتتاح لآخرين أن يحسنوا إلى غيرهم فيبادروا بتقديم خدمة ما، وأول هؤلاء هم أهل بيت الإنسان: من زوجة أو زوج أو ولد! فمن المؤسف أن يتجانف البعض هداية هذه القاعدة القرآنية، فيُلحِقوا غيرهم اللوم والعتاب الشديد، مع أنهم محسنون متبرعون، فيساهمون بذلك - شعروا أم لم يشعروا - في إغلاق باب الإحسان، أو تضيق دائرته بين العباد.

تأمل هذه الصورة:

يُجْتَهِدُ أَحَدُ النَّاسِ فِي مَحَاوَلَةِ إِتْقَانِ عَمَلٍ دَعْوِيٍّ، أَوْ اجْتِمَاعِيٍّ، أَوْ عَائِلِيٍّ، وَيَبْذُلُ جُهِدَهُ، وَرَبِيحاً مَالَهُ، وَهُوَ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ يَطْلُبُ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَسَاعِدَهُ وَيَعِينَهُ عَلَى الْعَمَلِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا، فَيَبْذُرُ وَحْدَهُ، وَيُجْتَهِدُ وَيَثَابِرُ لِيُنْجِحَ الْعَمَلَ، وَيُظْهِرُهُ بِالْمُظْهِرِ الْمَشْرُوفِ، فَإِذَا جَاءَتْ سَاعَةُ الْإِسْتِفَادَةِ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ، وَظَهَرَتْ بَعْضُ الثَّغَرَاتِ، وَبَعْضُ النِّقْصِ الَّذِي لَا يَسْلَمُ مِنْهُ عَمَلُ الْبَشَرِ، فَإِذَا بِهِ - بَدَلًا مِنْ أَنْ يُقَابَلَ بِالشُّكْرِ وَالتَّقْدِيرِ، مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَى الْأَخْطَاءِ بِأَسْلُوبٍ لَطِيفٍ - يُقَابَلَ بِعَاصِفَةٍ مِنَ اللُّومِ وَالعِتَابِ!، مَعَ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ قَدْ يَكُونُ اسْتَنْجِدَ بِغَيْرِهِ لِلْمُسَاعَدَةِ فَلَمْ يُنْجِدْ، فَوَاصِلَ الْعَمَلِ وَحْدَهُ، فَلَمَّا حَانَتْ سَاعَةُ قَطَافِ الثَّمَرَةِ، لَمْ يَجِدْ إِلَّا اللُّومَ وَالعِتَابَ!، بِسَبَبِ قَلَّةِ حِيلَتِهِ، وَضَعْفِ قُدْرَتِهِ، أَلَيْسَ هَذَا مِنْ أَحْقَ النَّاسِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَاعَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾؟! ثم أليس أولئك خليقون أن يقال لهم:

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم، أو سدوا المكان الذي سدوا^(١)

(١) هذا من شعر الخطيئة، انظر: الكامل في اللغة والأدب (١٣٧/٢).

وأمثال هذه الصورة تتكرر في مواقف أخرى؛ في البيت، في المدرسة، في المؤسسة، وفي الشركة، وفي الدائرة الحكومية، وفي العمل الإعلامي، مع العلماء والدعاة والمحتسين، ومع غيرهم، فما أحوجنا إلى استشعار هذه القاعدة، وطريقة التعامل مع أوهام أو أخطاء المحسنين؛ لكي لا ينقطع باب الإحسان، فإنه إذا كثرت اللوم على المحسنين والمتبرعين، وتقاوس من يفترض منهم العمل، فمن يبقى للأمة؟!!

وهذا كله - بلا ريب - لا يعني التنبيه على الأخطاء، أو التذكير بمواضع الصواب التي كان يفترض أن يُنبه عليها، لكن المهم أن يكون ذلك بأسلوب يحفظ جهد المحسن، ولا يفوت فرصة التنبيه على الخطأ؛ ليرتقي العمل، ويزداد جودة وجمالاً.

ومن المهم أيضاً - ونحن نتحدث عن هذه القاعدة القرآنية - أن لا نخلط بين ما تقدم وبين التزام الإنسان بشيء ما، ثم يتخلى عنه بحجة أنه محسن! فإن هذا من الفهم المغلوط لهذه القاعدة، ذلك أن الإنسان قبل أن يلتزم بوعده لطرف آخر؛ فهو في دائرة الفضل والإحسان، لكن إن التزم بتنفيذ شيء، والقيام به، فقد انتقل إلى دائرة الوجوب الذي يستحق صاحبه الحساب والعتاب، ولعل مما يُقرب تصور هذا المعنى: النذر؛ فإن النذر: إلزام المكلف نفسه بشيء لم يكن واجباً عليه بأصل الشرع، كمن ينذر أن يتصدق بألف ريال، فهذا قبل نذره لا يلزمه أن يتصدق ولو بريال واحد، لكنه لما نذر فقد التزم؛ فوجب عليه الوفاء. وهكذا ما نحن بصدده، وإنما نبهت على هذا لأن من الناس من أساء فهم هذه القاعدة، وطردها في غير موضعها، فصار ذلك سبباً في وجود النفرة بين بعض الناس؛ لأن أحد الطرفين اعتقد التزام الطرف الآخر، فاعتمد عليه - بعد الله - ثم تخلى ذلك الطرف عما التزم؛ بحجة أنه محسن! فوقع خلاف المقصود من باب الإحسان.





القاعدة

الثامنة

﴿وَلَا نُزْرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة، تؤسس لمبدأ من أشرف المبادئ، وهو مبدأ العدل، وهي قاعدة طالما استشهد بها العلماء والحكماء؛ لعظيم أثرها في باب العدل والإنصاف، تلکم هي ما دل عليها قوله تعالى: ﴿وَلَا نُزْرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الزمر: ٧]^(١).

ومعنى هذه القاعدة باختصار: أن المكلفين إنما يجازون بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل أحدٌ خطيئة أحد، ما لم يكن سبباً فيها، وهذا من كمال عدل الله تبارك وتعالى وحكمته.

ولعل الحكمة من التعبير عن الإثم بالوزر؛ لأن الوزر هو الحمل - وهو ما يحمله المرء على ظهره - فعبر عن الإثم بالوزر لأنه يُتَخَيَّلُ ثَقِيلاً على نفس المؤمن^(٢).

وهذه القاعدة القرآنية - بهذا النص - تكرر تقريرها في كتاب الله تعالى خمس مرات، وهذا - بلا شك - له دلالته ومغزاه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه القاعدة ليس من خصائص هذه الأمة المحمدية، بل هو عام في جميع الشرائع، تأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلاً

(١) وقد نص على كونها قاعدة: الإمام محمد بن عبد الوهاب في تفسيره (٥٧).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٥/٢٩٣).

وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعْنَدُهُ، عَلِمَ الْعَيْبَ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يَبْتَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ
الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعِيَهُ،
سَوْفَ يَرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿النجم: ٣٣ - ٤١﴾.

وهذا المعنى الذي قررته القاعدة لا يُعارض ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُنَّ
أَثْقَاهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ
بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]؛ لأن هذه النصوص تدل على أن الإنسان يتحمل إثم ما
ارتكب من ذنوب، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله، كما أن الدعاة إلى الهدى يشيهم
الله على عملهم وعمل من اهتدى بهديهم، واستفاد من علمهم.

ولهذا لما اجتهد جماعة من صناديد الكفر في إبقاء بعض الناس على ما هم عليه
من الكفر، أو حث من كان مؤمناً لينتقل من الإيمان إلى الكفر، أغروهم بخلاف
هذه القاعدة تماماً، فقالوا - كما حكى الله عنهم -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا
يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢ - ١٣].

ولو تأملت كلام العلماء في كتب التفسير والحديث والعقائد والفقهاء وغيرها؛
لرأيت عجباً من كثرة الاستدلال بهذه القاعدة في مواطن كثيرة:

فكم من رأي نقضه فقيه هذه الآية! بل كم مسألة عقدية صار الصواب فيها
مع المستدل بهذه الآية! والمقام ليس مقام عرض لهذه المسائل، بل المقصود التنبيه على
عظيم موقعها.

وإذا أردنا أن نبحث عن أمثلة تطبيقية لهذه القاعدة في كتاب الله، فإن من أشهر
الأمثلة وأظهرها: تطبيق نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام لها، وذلك أنه حينما

احتال على أخيه بنيامين، بوضع السقاية في رحل أخيه؛ جاء إخوته يقولون:
﴿يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾
[يوسف: 78]، فأجابهم يوسف قائلاً: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَنَا
عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوا﴾ [يوسف: 79].

قارن هذا -بارك الله فيك- بقول فرعون حينما قال له كهنته: إنه سيولد من بني إسرائيل غلامٌ ستكون نهاية ملكك على يده! فأصدر مرسومه الظالم بقتل جميع من يولد من بني إسرائيل -وهم بالآلاف، وربما بعشراتهما- من أجل طفلٍ واحد فقط!! ولكن من كان يقول للناس: أنا ربكم الأعلى فلا يستغرب منه هذا الأمر!
وفي واقع من الناس من سار على هدي يوسف، فتراه لا يؤاخذ إلا من أخطأ أو تسبب في الخطأ، ولا يؤسِّع دائرة اللوم على من ليس له صلة بالخطأ؛ بحجة القرابة أو الصداقة أو الزمالة ما لم يتبين خلاف ذلك.

وفي المقابل: ففي واقع الناس من يأخذ المحسنين أو البرءاء بذنوب المسيئين.

وإليك هذه الصورة التي قد تتكرر كثيرًا في واقع بيوتنا:

يعود الرجل من عمله متعبًا، فيدخل البيت فيجد ما لا يعجبه من بعض أطفاله - إما من إتلاف تحفة، أو تحطيم زجاجة - أو يرى ما لا يعجبه من قبل زوجته - كتأخرها في إعداد الطعام، أو زيادة ملوحة أو نقصها، أو غير ذلك من الأمور التي قد تستثير بعض الناس - فإذا افترضنا أن هذه المواقف مما تستثير الغضب، أو أن هناك خطأ يستحق التنبيه، أو التوبيخ، فما ذنب بقية الأولاد الذين لم يشاركوا في كسر تلك التحفة - مثلًا -؟! وما ذنب الأولاد أن يصبَّ عليهم جام غضبه إذا قصرت الزوجة في شيء من أمر الطعام؟! وما ذنب الزوجة -مثلًا- حينما يكون المخطئ هم الأولاد؟! ومثله يقال في علاقة المعلم والمعلمة مع طلابهم، أو المسئول في عمله،

بحيث لا ينقلوا مشاكلهم إلى أماكن عملهم، فيكون من تحت أيديهم من الطلاب والطالبات أو الموظفين ضحية لمشاكل ليس لهم علاقة بها!!

هنا يستحضر المؤمن أموراً، من أهمها: أن يتذكر هذه القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ فإن هذا خيرٌ وأحسن تأويلاً، وأقرب إلى العدل والقسط الذي قامت عليه السماوات والأرض.

وثمة فهمٌ خاطئ لهذه القاعدة القرآنية: وهي أن البعض يظن أن هذه القاعدة مخالفة لما يراه من بعض العقوبات الإلهية التي تعم مجتمعات من المجتمعات، أو بلدًا من البلدان، حينها تفشو المنكرات والفواحش والمعاصي، وسبب خطأ هذا الفهم، أن المنكر إذا استعلن به الناس، ولم يوجد من ينكره، فإن هذا ذنب عظيمٌ اشترك فيه كلُّ من كان قادرًا على الإنكار ولم ينكر، سواءً كان الإنكار باليد أو باللسان أو بالقلب وذلك أضعف الإيمان، ولا عذر لأحد بترك إنكار القلب، فإذا خلا المجتمع من هذه الأصناف الثلاثة - عيادًا بالله - مع قدرة أهلها عليها استحقوا العقوبة، وإن وجد فيهم بعض الصالحين.

تأمل معي قول الله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً^ط وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

يقول العلامة السعدي رحمه الله^(١) في تفسير هذه الآية: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره، وتقوى هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن.

(١) تفسير السعدي: (ص ٣١٨).

ويوضح معنى هذه الآية الكريمة ما رواه الإمام أحمد: بسند حسن - كما يقول الحافظ ابن حجر^(١) - من حديث عدي بن عميرة رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم - وهم قادرون على أن ينكروه- فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة».

وروى الإمام أحمد: في مسنده^(٢) بسند جيد، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير ما وضعها الله عز وجل ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه».

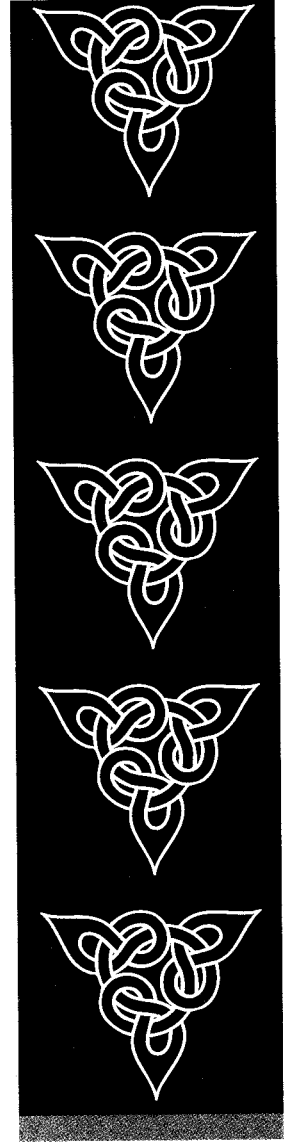
وفي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له: يا رسول الله! أهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثرت الخبث»^(٣). والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، يضيق المقام بذكرها، والمقصود إزالة هذا الإشكال الذي قد يعرض للبعض في فهم هذه القاعدة القرآنية، والله سبحانه وتعالى أعلم.



(١) فتح الباري: (٤/١٣).

(٢) المسند: (١٧٨/١).

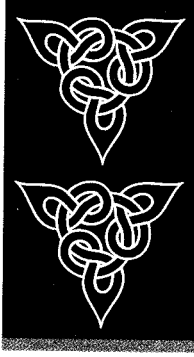
(٣) البخاري ح (٣٣٤٦)، ومسلم ح (٢٨٨٠).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة

التاسعة

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية العظيمة، التي هي أثر من آثار كمال علم الله وحكمته وقدرته في خلقه ﷻ، تلکم هي ما دل عليها قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ [آل عمران: ٣٦].

وهذه الآية جاءت في سياق قصة امرأة عمران، والدة مريم -عليها السلام- يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٦].

وخلاصة القصة: أن امرأة عمران قد نذرت أن يكون مولودها القادم خادماً لبيت المقدس، فلما وضعت مولودها، قالت معذرة: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾؛ لأن قدرة الذكر على خدمة بيت المقدس، والقيام بأعباء ذلك أكثر من الأنثى التي جبلها الله تعالى على الضعف البدني، وما يلحقها من العوارض الطبيعية التي تزيدها ضعفاً:

كالحيض والنفاس^(١).

ولقد بين القرآن هذا التفاوت بين الجنسين في مواضع كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ﴾: وهم الرجال ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾: وهن النساء، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وذلك لأن الذكورة كمال خلقي، وقوة طبيعية، وشرف وجمال، والأنوثة نقص خلقي، وضعف طبيعي، كما هو محسوس مشاهد لجميع العقلاء، لا يكاد ينكره إلا مكابر في المحسوس، وقد أشار جل وعلا إلى ذلك بقوله: ﴿أَوْمَن يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]؛ فالأنثى تنشأ في الحلية، أي: الزينة - من أنواع الحلبي والحلل - لتجبر بذلك نقصها الخلقي^(٢).

بل يقال: إن بعض ما جبل الله عليه الأنثى هو نوع من الكمال في حقها، وإن كان نقصاً في حق الرجال، «ألا ترى أن الضعف الخلقي والعجز عن الإبانة في الخصام عيب ناقص في الرجال، مع أنه يعد من جملة محاسن النساء التي تجذب إليها القلوب»^(٣).

هذا هو حكم الله القدري: أن الذكر ليس كالأنثى، وهذا حكم الأعم بالحكم والمصالح -، هذا كلام الذي خلق الخلق، وعلم ما بينهم من التفاوت والاختلاف: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقد تفرع على ذلك: اختلاف بين

(١) ومن اللطائف في تركيب هذه القاعدة: أن الله تعالى قال: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ مع أنه لو قيل: «وليست الأنثى كالذكر» لحصل المقصود، ولكن لما كان الذكر هو المقصود قدام في الذكر هنا، ولأنه هو المرجو المأمول؛ فهو أسبق إلى لفظ المتكلم. ينظر: التحرير والتنوير: (٨٧/٣).

(٢) ينظر: أضواء البيان (٤٩٨/٣) ط. الراجحي.

(٣) أضواء البيان: (٥٠١/٣).

الذكر والأنثى في جملة من الأحكام الشرعية - وإن كانا في الأصل سواء-.

وهذا الاختلاف في الأحكام الشرعية بين الذكر والأنثى راجع إلى مراعاة طبيعة المرأة من حيث خلقتها، وتركيبها العقلي، والنفسي، وغير ذلك من صور الاختلاف التي لا ينكرها العقلاء والمنصفون من أي دين، وليعلم المؤمن ههنا قاعدة تنفعه في هذا الموضوع وفي مواضع كثيرة، وهي: أن الشرع لا يمكن أن يفرق بين متماثلين، ولا يجمع بين متناقضين، وشأن المؤمن الحق أن لا يعارض الشرع بعقله القاصر، بل شأنه أن يتلمس الحكم من وراء ذلك التفريق، أو هذا الجمع.

ومن توهم أنهما سواء فقد أبطل دلالة القرآن والسنة على ذلك:

أما القرآن فإن القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها دليل واضح على هذا.

وأما السنة: فإن النبي ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال^(١)، فلو كانا متساويين لكان اللعن باطلاً.

ولتأمل شيئاً من حكم الله تعالى في التفريق بين الذكر والأنثى في بعض الأحكام الشرعية، ومن ذلك:

١- التفريق في الميراث:

اقتضت سنة الله أن يكون الرجل هو الذي يكدح ويتعب في تحصيل الرزق، وهو الذي يطلب منه دفع الميراث، والمشاركة في دفع الدية - عند قيام المقتضي لذلك - فالذكر مترقب دوماً للنقص من ماله، بعكس الأنثى فهي دوماً مترقب الزيادة في مالها: حينما يدفع لها المهر، وحينما ينفق عليها من قبل وليها.

يقول العلامة الشنقيطي: «وإيثارُ مترقب النقص دائماً على مترقب الزيادة دائماً

(١) البخاري ح (٥٨٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

- لجبر بعض نقصه المترقب - حكمته ظاهرة واضحة، لا ينكرها إلا من أعمى الله بصيرته بالكفر والمعاصي»^(١).

٢- التفريق في الشهادة:

وهذا نصت عليه آية الدين: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدِينَ مِنْ رِجَالِكُمْ ۖ إِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَآمَرَ أَنَّكَ إِذَا مَنَ الرَّضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا أَلْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]، كما دلت عليه السنة الصحيحة عن النبي ﷺ، وبين أن سبب هذا هو نقص في عقلها.

وهذا التفريق - لمن تأمله - عين العدل، يقول الشيخ السيد رشيد رضا - مبيّنًا هذا المعنى -: «إن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوزات، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك في الأمور المنزلية - التي هي شغلها - فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل، يعني أن طبع البشر ذكرًا وإناثًا أن يقوى تذكرهم للأمور التي تهمهم ويكثر اشتغالهم بها، ولا ينافي ذلك اشتغال بعض نساء الأجانب في هذا العصر بالأعمال المالية فإنه قليل لا يعول عليه، والأحكام العامة إنما تناط بالأكثر في الأشياء وبالأصل فيها»^(٢) انتهى.

ولا يظن أحدٌ أن في ذلك انتقاصًا لقدرها، بل هو تنزيهٌ لها عن ترك مهمتها الأساسية في التربية والقرار في البيت، إلى مهمة أقل شأنًا وسموًا، وهي ممارسة التجارة والمعاملات المالية!

وقد أشار فريق من الباحثين إلى أن المرأة الحامل ينكمش عندها حجم الدماغ، ولا يعود لحجمه الطبيعي إلا بعد أشهر من وضعها.

(١) أضواء البيان: (٣/ ٥٠٠).

(٢) تفسير المنار: (٣/ ١٠٤).

وليُعلم أن هذا الحكم - أعني كون شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل - ليس مطردًا في جميع الأبواب، بل إنها مثل الرجل في بعض الأحكام، كشهادتها في دخول شهر رمضان، وفي باب الرضاع، والحيض، والولادة، واللعان وغير ذلك من الأحكام.

ونحن بحمد الله مؤمنون بحكم الله وقدره، ولا تزيدنا البحوث الحديثة إلا يقينًا، ونقطع بأن أي بحث يخالف صريح القرآن فنتيجته غلط، وإنما أتى صاحبها من سوء فهمه.

وليس هذا التفريق بين الذكر والأنثى كله في صالح الرجل، بل جاءت أحكام تفرق بينها تفريقًا لصالح المرأة - إن صحّت العبارة -، ومن ذلك: أن الجهاد لا يجب على النساء لطبيعة أجسادهن، فسبحان العليم الحكيم الخبير.

إذا تبين هذا؛ فعلى المؤمن أن يحذر من كلمة راجت على كثير من الكتاب والمثقفين، وهي كلمة «المساواة» في مقام الحديث عن موضوع المرأة، وهي كلمة لم ترد في القرآن بهذا المعنى الذي يورده أولئك الكتاب، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ﴾، وكقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ والصواب أن يعبر عن ذلك بالعدل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، ولم يقل: يأمر بالمساواة! لأن في كلمة المساواة إجمالًا ولبسًا بخلاف العدل، فإنها كلمة واضحة بينه صريحة في أن المراد أن يعطى كل ذي حق حقه.

إن دلالة العدل تقتضي أن يتولى الرجل ما يناسبه من أعمال، وأن تتولى المرأة ما يناسبها من أعمال، بينما كلمة مساواة: تعني أن يعمل كلٌّ من الجنسين في أعمال الآخرة!

ومدلول كلمة العدل: أن تعمل المرأة عددًا من الساعات يناسب بدنها وتكوينها الجسمي والنفسي، بينما مقتضى المساواة: أن تعمل المرأة نفس ساعات الرجل، مهما اختلفت طبيعتها!

وهذا كلّه عين المضادة للفطرة التي فطر الله عليها كلّاً من الرجل والمرأة! ولهذا لما أصرت بعض المجتمعات الغربية على هذه المصادمة للفطرة، وبدأت تساوي المرأة بالرجل في كل شيء ذاقت ويلاتها ونتائجها المرة، حتى صرخ العقلاء منهم -رجالاً ونساء- وكتبوا الكتب والرسائل التي تحذر مجتمعاتهم من الاستمرار وراء هذه المصادمة، ومن ذلك:

١- ما قالته دافيسون -زعيمة حركة كل نساء العالم-: «هناك بعض النساء حطمن حياتهن الزوجية عن طريق إصرارهن على المساواة بالرجل، إن الرجل هو السيد المطاع، ويجب على المرأة أن تعيش في بيت الزوجية، وأن تنسى كل أفكارها حول المساواة»^(١).

٢- وهذه هيلين أندلين - وهي خبيرة في شؤون الأسرة الأمريكية - تقول: «إن فكرة المساواة - التماثل - بين الرجل والمرأة غير عملية أو منطقية، وإنما ألحقت أضراراً جسمية بالمرأة والأسرة والمجتمع» ا.هـ.^(٢)

٣- أما رئيسة الجمعية النسائية الفرنسية -رينيه ماري- فتقول: «إن المطالبة بالمساواة الكاملة بين الرجل والمرأة تصل بهما إلى مرحلة الضياع، حيث لا يحصل أحد من الطرفين على حقوقه» ا.هـ.^(٣)، ولورجعنا إلى لغة الأرقام التي أجريت في بلاد الغرب لطلال بنا المقام.

(١) العدوان على المرأة (ص ١٠٢). فؤاد العبد الكريم.

(٢) قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية. فؤاد العبد الكريم: (ص ٢٧٨).

(٣) السابق (ص ٢٦٩).

٤- وهذه كلمات قالتها امرأة من أشهر دعاة الحرية والمساواة بين الرجل والمرأة

في منطقة الخليج^(١):

«سأعترف اليوم بأنني أقف في كثير من الأشياء ضد ما يسمى بـ (حرية المرأة)، تلك الحرية التي تكون على حساب أنوثتها، على حساب كرامتها، وعلى حساب بيتها وأولادها، سأقول: إنني لن أحمل نفسي - كما تفعل كثيرات - مشقة رفع شعار المساواة بينها وبين الرجل، نعم أنا امرأة!

ثم تقول: هل يعني هذا أن أنظر إلى البيت - الذي هو جنة المرأة - على أنه السجن المؤبد، وأن الأولاد ما هم إلا حبل من مسد يشد على عنقي؟ وأن الزوج ما هو إلا السجان القاهر الذي يكبل قدمي خشية أن تسبقه خطوتي؟ لا، أنا أنثى وأعتز بأنوثتي، وأنا امرأة أعتز بما وهبني الله، وأنا ربة بيت، ولا بأس بعد ذلك أن أكون عاملة أخدم خارج البيت نطاق الأسرة، ولكن - ويا رب اشهد! - بيتي أولاً، ثم بيتي، ثم بيتي، ثم العالم الآخر»^(٢) انتهى.

وبعد هذا كله: فماذا يقال عن سؤى بين الذكر والأنثى، والذي خلقها يقول:

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾؟

إنك لا تتعجب أن يقع الرد لهذا الحكم القدري من كفار أو ملاحدة، وإنما تستغرب أن يقع هذا من بعض المنتسبين لهذا الدين، والذين يصرحون في مقالاتهم وكتاباتهم بأن هذا الحكم كان في فترة نزول الوحي يوم كانت المرأة جاهلة لم تتعلم! أما اليوم فقد تعلمت المرأة، وحصلت على أعلى الشهادات!

وهذا الكلام خطير جداً، وقد يكون ردةً عن الدين؛ لأنه ردٌّ على الله تعالى، فإنه

(١) هي الكاتبة ليل العثمان.

(٢) رسائل إلى حواء: (٣/٨٥).

هو الذي قدّر هذا الحكم، وهو الذي يعلم ما ستؤول إليه المرأة إلى يوم القيامة.

ثم إن التاريخ والواقع يُكذّب هذه المقولة من جهتين:

الأولى: أن تكوين المرأة النفسي والبدني (الفسولوجي) لم يتغير منذ خلقها الله تعالى، فأئمتنا حواء من ضلع أئبنا آدم، وإلى أن يرث الله ومن عليها! ولم يربط الله تعالى ذلك بعلم تتعلمه، أو بشهادة تحصل عليها.

والجهة الثانية لبيان خطأ هذه المقولة:

أن هذا الحكم يدخل فيه أمهات المؤمنين -رضوان الله عليهن-، وهن -بلا ريب- أعلم نساء هذه الأمة، وأتقاهن، ومن هي التي تبلغ عشر علمهن؟! ومع ذلك لم تتعرض واحدة منهن على هذه الأحكام الشرعية التي سمعناها مباشرة من زوجهن رسول الله ﷺ، بل قابلن ذلك بالانقياد والتسليم، والرضى والقبول، وجرى على هذا الهدى من سار على نهجهن من نساء المؤمنين إلى يومنا هذا.

ولعلي أختم هذه القاعدة بهذه القصة الطريفة - التي سمعتها من أحد الباحثين، وهو يتكلم عن زيف الدعوى التي تطالب بفتح الباب للنساء؛ لكي يمارسن الرياضة كما يمارسها الرجال - يقول هذا الباحث وفقه الله:

إن أحد العدائين الغربيين المشهورين تعرّف إلى امرأة تمارس نفس رياضة العدو، فرغب أن يتزوجها، وتمّ له ما أراد، لكن لم يمض سوى شهرين على زواجهما حتى انتهى الزواج إلى طلاق! فسئل هذا العداء: لماذا طلقتها بهذه السرعة؟! فقال: لقد تزوجت رجلاً ولم أتزوج امرأة!! في إشارة منه إلى القسوة في التمارين - التي تتطلبها رياضة العدو - أفقدتها أنوثتها، فأصبحت في جسم يضاهاى أجسام الرجال، وصدق الله العظيم، العليم الخبير: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾، فهل من مُدّكر؟.





القاعدة

العاشرة

﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ﴾

هذه قاعدة جليلة من القواعد القرآنية العظيمة، تشع منها القدرة الإلهية؛ لتساند جند الإيمان في كل زمان ومكان.

إن النصر كلمة تعشقها النفوس، وتسعى لها جميع الأمم، وتتطلع لها كل الدول، وهي غاية تختلف الأمم في الوسائل التي تتحقق بها، وإن اتفقت في جملة منها، لكن ثمة معنى شريف، يلفت إليه القرآن أتباعه؛ لترسيخ سبب من أعظم الأسباب التي لا يجوز أن تغيب عن أذهان المؤمنين وهم يقاتلون أعداءهم، أو ربما استعجلوا بقطع ثمرة النصر، ونسيان أسباب تثبيته.

تأتي هذه القاعدة لتقول لأهل القرآن: إن حقيقة النصر إنما هي «بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ونصرة رسله وأتباعهم، ونصرة دينه وجهاد أعدائه، وقهرهم حتى تكون كلمته جل وعلا هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى»^(١).

وهذه القاعدة جاءت ضمن آيتين كريمتين، أبرزتا أسباب النصر، يقول تعالى:

﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَكْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ

(١) أضواء البيان: (٥ / ٢٦٥).

أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤٠-٤١﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١].

«ففي هاتين الآيتين الكریمتین وعد الله بالنصر من ينصره وعداً مؤكداً بمؤكدات لفظية ومعنوية:

أما المؤكدات اللفظية: فهي القسم المقدّر؛ لأنّ التقدير: والله لينصرن الله من ينصره، وكذلك اللام والنون في ﴿وَلْيَنْصُرَكَ﴾ كلاهما يفيد التوكيد.

وأما التوكيد المعنوي: ففي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فهو سبحانه قوي لا يضعف، وعزيز لا يذل، وكل قوة وعزة تضادّه ستكون ذلاً وضعفاً.

وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ تثبيت للمؤمن عندما يستبعد النصر في نظره لبعده أسبابه عنده، فإن عواقب الأمور لله وحده، يغيّر سبحانه ما شاء حسب ما تقتضيه حكمته»^(١).

وهذه الجملة التي تضمنتها هذه القاعدة جاءت عطفًا على جملة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بالجهاد وإقامة الحدود، ﴿هُدِمَتْ﴾^(٢) صومع وبيع وصلوات ومسجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا^(٣) وهذه هي معابد أهل الملل الكبرى، ثم قال سبحانه بعد ذلك - مؤكداً هذه القاعدة والسنة الإلهية المطردة-: ﴿وَلْيَنْصُرَكَ﴾

(١) مجالس شهر رمضان (٩٥) للعثيمين.

(٢) وفي الآية قراءتان: بتخفيف الدال: (هُدِمَتْ) وبالتشديد على التكثير، فالتخفيف يكون للقليل والتكثير، والتشديد يختص بالتكثير، ينظر: تفسير البغوي (٥ / ٣٨٩).

(٣) «فإن قيل: لم قدمت مساجد أهل الذمة ومصلياتهم على مساجد المسلمين؟ قيل: لأنها أقدم بناء. وقيل: لقربها من الهدم وقرب المساجد من الذكر، كما أخرج السابق في قوله: ﴿فَمَنْهُمْ طَالِمٌ لِنَفْسِهِ. وَمَنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ﴾ [فاطر: ٣٢]. ينظر: تفسير القرطبي (١٢ / ٧٢).

اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ

والسؤال: كيف يكون نصر الله؟ وهل الله محتاج إلى نصره وهو الغني القوي

العزيز؟

والجواب على ذلك: أن نصره يكون بنصرة دينه، ونصرة نبيه ﷺ في حياته، ونصرة سنته بعد مماته، وتممة الآية التي بعدها تكشف حقيقة النصر الذي يحبه الله ويريده، بل هو النصر الكفيل باستمرار التمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

ولذا، ما نُصِرَ دين الله بأعظم من إظهار هذه الشعائر العظيمة:

الصلاة: التي هي صلة بين العباد وربهم، وبها يستمدون قوتهم الحسية والمعنوية، وراحتهم النفسية.

وإيتاء الزكاة: «فأدوا حق المال، وانتصروا على شح النفس، وتطهروا من الحرص، وغلبوا وسوسة الشيطان، وسدوا خلة الجماعة، وكفلوا الضعاف فيها والمحاييج، وحققوا لها صفة الجسم الحي»^(١).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وفيه إصلاح لغيرهم، فالناس ما بين جاهل أو غافل، فهؤلاء يؤمرون بالخير ويذكرون به، أو عاصي ومعاند، فهؤلاء ينهون عن المنكر.

فمتى ما علم الله من أي أمة من الأمم أو دولة من الدول أنها ستقيم هذه الأصول الأربعة من أصول التمكين؛ أمدها الله بتوفيقه، وعونه وإن تكالبت عليها الأمم، وفي

(١) في ظلال القرآن (٤ / ٢٤٢٧).

سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، ومن سار سيرتهم أصدق الشواهد وأنصعها.

أما إذا علم الله من أحوالهم أنهم إذا عادوا إلى الأرض ومكّنوا فيها ما أقاموا صلاةً، ولا أتوا زكاةً، ولا رجحوا معروفًا، ولا قبحوا منكرًا، فإن الله تعالى يكلهم إلى أنفسهم، ويسلط عليهم عدوهم، أو يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض، وفي التاريخ عبرة!

وإنك لتعجب - بعد هذا الإيضاح الرباني لأصول النصر والتمكين - من أناس ينتسبون إلى الإسلام، كيف تنكبوا عنه؟ أم كيف استبدلوا به مذاهب لا دينية أصلًا؟ ولا ينسى الناس قول أحد القياديين في منظمة التحرير الفلسطينية - لما أرادوا إعلان الدولة الفلسطينية -: نريدها دولة علمانية!

إن انتصار اليهود على هؤلاء أقرب؛ فهم أهل كتاب ودين وإن كانوا قتلةً مجرمين.

إن من يقرأ القرآن الكريم بأدنى تأمل، سيجد الحديث فيه ظاهرًا وبيّنًا عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة في مواطن متفرقة، وهي تحكي مواقف وقعت لأشرف جيش عرفته الدنيا، قائده محمد رسول الله ﷺ، وجنوده الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

لقد تساءل أصحاب النبي ﷺ في أحد عن سبب الهزيمة؟ فجاء الجواب من السماء: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وفي حنين، وقع إعجاب من بعض مُسلمة الفتح بكثرتهم، فكاد الجيش أن يهزم، فجاء التعقيب الذي تضمن تذكيرًا بمنن الله عليهم في مواطن كثيرة: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ

عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾
[التوبة: ٢٥].

وفي حديث القرآن عن غزوة بدر - في سورة الأنفال - تصريح بأهم أسباب النصر وأخطر أسباب الهزيمة: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: ٤٦-٤٧].

ونجد تصريحًا بسبب آخر من أسباب النصر ألا وهو الإيثار، إذ يقول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

والسؤال: أين النصر اليوم عن المسلمين؟ المسلمون في بلدان كثيرة مضطهدون مهزومون، يعيشون ضعفًا ويذوقون عجزًا!!

أين النسخ المكررة من يوم الفرقان في بدر الكبرى؟ ويوم الأحزاب؟ واليرموك؟ ونهاوند؟ أو يوم كسر التتار حين غزوا بلاد الإسلام في أوائل القرن الثامن؟!
إنني حرصتُ أن أنقل إجابات أربعة من علماء الإسلام في القديم والحديث، ومن نواحٍ متفرقة، من المغرب والمشرق؛ لنرى كيف ينظر هؤلاء العلماء إلى الداء والدواء:

يقول القرطبي رحمه الله (ت: ٦٧١هـ) - مجيبًا على هذا السؤال القديم في ضوء هذه القاعدة: ﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مِنْ نَصْرِهِ﴾: -

«هكذا يجب علينا نحن أن نفعل^(١)! لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير

(١) أي: أن نصر دين الله.

مرة! وذلك بما كسبت أيدينا وفي البخاري: قال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم، وفيه مسند^(١) أن النبي ﷺ قال: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»^(٢)، فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتقاد ضعيف والتقوى زائلة، قال الله تعالى: ﴿أَصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿وَلْيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنِ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فهذه أسباب النصر وشروطه، وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا! فإننا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه! لظهور الفساد وكثرة الطغيان وقلة الرشاد، حتى استولى العدو شرقاً وغرباً، براً وبحراً، وعمت الفتن وعظمت المحن! ولا عاصم إلا من رحم^(٣).

ويقول الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ (ت: ٧٢٨هـ) مشخصاً الداء ومبيناً الدواء:

«إذا كان في المسلمين ضعف، وكان العدو مستظهِراً عليهم؛ كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم - إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطنًا وظاهرًا، وإما بعدوانهم بتعدي الحدود باطنًا وظاهرًا-، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى

(١) أي: في صحيح البخاري حديث مسند.

(٢) صحيح البخاري ح (٢٨٩٦)، وفي رواية النسائي: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفتهم بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصهم»، وله شاهد من حديث أبي الدرداء عند أحمد والنسائي بلفظ: «إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»، قال ابن بطال: تأويل الحديث أن الضعفاء أشد إخلاصًا في الدعاء، وأكثر خشوعًا في العبادة؛ لخلاء قلوبهم عن التعلق بزخرف الدنيا. فتح الباري لابن حجر: ٦/٨٩.

(٣) تفسير القرطبي: (٣/٢٥٥).

الْجَمْعَانِ إِنَّمَا أَسْرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴿٤٠﴾، وقال تعالى: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْنِمَ أَنِّي هَذَا قُلُّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيبٌ ﴿٤١﴾﴾ (١).

وللعلامة الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ (ت: ١٣٥٤هـ) جواب عن هذا السؤال، يحسن إيراده، وهو العالم الذي عاش فترة ضعف وهوانٍ شديدين مرت بها أمة الإسلام:

«ولكننا نرى كثيرًا من الذين يدعون الإيَّان في هذه القرون الأخيرة غير منصورين، فلا بد أن يكونوا في دعوى الإيَّان غير صادقين، أو يكونوا ظالمين غير مظلومين، ولأهوائهم لا لله ناصرين، ولسننهم في أسباب النصر غير متبعين، وإن الله لا يخلف وعده ولا يبطل سننهم، وإنما ينصر المؤمن الصادق وهو من يقصد نصر الله وإعلاء كلمته، ويتحرى الحق والعدل في حربه لا الظالم الباغي على ذي الحق والعدل من خلقه، يدل على ذلك أول ما نزل في شرع القتال قوله تعالى - من سورة الحج -: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ [الحج: ٣٩] إلى قوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، فأما الرسل الذين نصرهم الله ومن معهم فقد كانوا كلهم مظلومين، وبالحق والعدل معتصمين، والله ناصرين. وقد اشترط مثل ذلك في نصر سائر المؤمنين، فقال في - سورة القتال -: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَإِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيُنِيبُ أَقْدَامَهُمْ﴾ [محمد: ٧]، والإيَّان سبب حقيقي من أسباب النصر المعنوية، يكون مرجحاً بين من تساوت أسبابهم الأخرى، فليس النصر به من

(١) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا - (١/ ٥٨).

خوارق العادات»^(١).

أما العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ (ت: ١٣٧٦هـ) فيضمن بيانه عن الداء والدواء حديثاً مهماً عن الفأل، فيقول:

«إيمان ضعيف، وقلوب متفرقة، وحكومات متشتتة، وعداوات وبغضاء باعدت بين المسلمين، وأعداء ظاهرون وباطنون، يعملون سراً وعلناً للقضاء على الدين، وإلحاد وماديات، جرفت بتيارها الخبيث، وأواجهها المتلاطمة الشيوخ والشبان، ودعايات إلى فساد الأخلاق، والقضاء على بقية الرمق!!

ثم إقبال الناس على زخارف الدنيا، وبحيث كانت هي مبلغ علمهم، وأكبر همهم، ولها يرضون ويغضبون، ودعاية خبيثة للتزهد في الآخرة، والإقبال بالكلية على تعمير الدنيا وتدمير الدين، واحتقار واستهزاء بالدين وما ينسب إليه، وفخر وفخفخة، واستكبار بالمدينيات المبنية على الإلحاد التي آثارها وشرها وشررها قد شاهده العباد...

ولكن مع ذلك: فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله، ولا يكون نظره مقصوراً على الأسباب الظاهرة، بل يكون ملتفتاً في قلبه كل وقت إلى مسبب الأسباب، الكريم الوهاب، ويكون الفرج بين عينيه، ووعدته الذي لا يخلفه، بأنه سيجعل الله بعد عسر يسراً، وأن الفرج مع الكرب، وأن تفريج الكربات مع شدة الكربات وحلول المقطعات»^(٢).

نسأل الله تعالى أن يعز دينه وأن يجعلنا من أنصاره، وأن يُظهر أوليائه، ويُذل أعداءه.



(١) تفسير المنار (٧/ ٣١٧).

(٢) بهجة قلوب الأبرار: (ص ٢٣٠).



القاعدة الحادية عشرة

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة، والتي يتعين إبرازها للناس، وخصوصًا في هذا الزمن الذي راجت فيه سوق السحرة والمشعوذين، إنها القاعدة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩] (١)، وفي معنى هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧].

وهذه القاعدة جاءت ضمن قصة موسى مع سحرة فرعون في سورة طه، بعد أن واعدهم موسى، هو في خندق، وفرعون ومن معه من السحرة في خندق آخر، فلما اجتمعوا: ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَٰئِكَ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٥] قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسَعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَالْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٥ - ٦٩].

ووجه اطراد هذه القاعدة: أن المتقرر في علم النحو: أن الفعل إذا كان في سياق

(١) وعن نص على أن هذه قاعدة كلية من قواعد القرآن: الإمام محمد بن عبد الوهاب في تفسيره

النفي فإن ذلك يكسبه صفة العموم، وهكذا الفعل (لا يفلح) فإنه جاء في سياق النفي، فدل ذلك على عمومته، فلن يفلح ساحر أبدًا، مهما احتال، وتأمل كيف عمم ذلك بالأمكنة فقال: ﴿حَيْثُ أَتَى﴾^(١).

وفي اختيار الفعل ﴿أَتَى﴾ دون قوله -مثلاً-: حيث كان، أو حيث حل سرًّا، ولعل السر في ذلك: من أجل مراعاة كون معظم أولئك السحرة مجلوبون من جهات مصر المختلفة، كما قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨] ^(٢).

يقول العلامة الشنقيطي -ملعقًا على نفي الفلاح عن الساحر مطلقًا-:

«وذلك دليل على كفره؛ لأن الفلاح لا ينفي بالكلية نفيًا عامًا إلا عمّن لا خير

فيه، وهو الكافر، ويدل على ما ذكرنا أمران:

الأول: هو ما جاء من الآيات الدالة على أن الساحر كافر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا

كَفَرُوا سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]،

فقوله: ﴿وَمَا كَفَرُوا سُلَيْمَنُ﴾ يدل على أنه لو كان ساحرًا -وحاشاه من ذلك-

لكان كافرًا، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ صريح

في كفر معلم السحر.

الأمر الثاني: أنه عرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظة (لا يفلح) يراد

بها الكافر، كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ

أَعْلَىٰ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَنْتَقُولُونَ

عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّا لِلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾

[يونس: ٦٨ - ٦٩]، وقوله في سورة يونس أيضًا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ

(١) ينظر: أضواء البيان (٤/ ٥٥١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ١٤٤).

كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ [يونس: ١٧].^(١)

كم هي الآيات التي تحدثت عن السحر والسحرة في كتاب الله تعالى، وأخبرت عن ضلالهم، وخسارتهم في الدنيا والآخرة! ومع هذا فيتعجب المؤمن كثيرًا؛ من رواج سوق السحر والسحرة في بلاد الإسلام!

وليس العجب من وجود ساحر أو ساحرة؛ فهذا لم يخل منه أفضل الأزمان، وهو الزمن الذي عاش فيه النبي ﷺ فضلًا عن غيره!

وليس العجب -أيضًا- من ساحر يسعى لكسب الأموال بأي طريق!

لكن العجب من أمة تقرأ هذا الكتاب العظيم، وتقرأ ما فيه من آيات صريحة واضحة في التحذير من السحر وأهله، وبيان سوء عاقبتهم ومآلهم في الدنيا والآخرة، ومع ذلك يقفون زرافاتٍ ووحدانًا أمام عتبات أولئك السحرة المجرمين!! سواء أمام بيوتهم، أم أمام شاشات قنوات السحر والشعوذة، والتي راجت سوقها منذ فترة من الزمن! يلتمسون منهم التسبب في إيقاع الضر بأحد أو إزالته عن آخر، وكان هؤلاء لم يقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَنعَلَمُونَ مَا يَصُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۗ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]!

والمقطع به أنه لولا تكاثر الناس على هؤلاء السحرة لما راجت سوقهم، وانتشر

باطلهم!

إن مرور الإنسان بحالة مرضية صعبة، أو حالة نفسية شديدة، لا يبيع له بحال أن يرد هذه السوق الكاسدة -سوق السحرة- وكيف يرجي الريح من أناس

(١) ينظر: أضواء البيان (٤/ ٥٥٢).

حكم عليهم ربهم بالخسران؟! وإن الله تعالى أرحم وأحكم من أن يجرم عليهم إتيان
السحرة، ولا ينزل لهم دواء لما ابتلوا به! كما قال النبي ﷺ: «لكل داء دواء فإذا أصيب
دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل»^(١).

وفي البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له
شفاء»^(٢).

ولعظيم ضرر السحر، فقد حرّمته جميع الشرائع.

إن من أيقن بأن الساحر لا يفلح حيث أتى، وأيقن بأنه لا يفلح الساحرون،
دفعه هذا إلى أمورٍ، من أهمها:

* البعد عن إتيان هذا الصنف من الناس الذين نفى الله فلاحهم في الدنيا
والآخرة - بغية علاج أو نحوه - وكيف يرتجى النفع ممن حكم عليه رب العالمين بأنه
خاسر في الدنيا والآخرة!!

* الحذر من التفكير في ممارسة شيء من أنواع السحر، مهما كان المبرر، سواء
بقصد العطف، أو الصرف - كما تفعله بعض النساء - وتظن أن قصد استمالة الزوج،
أو منعه من الزواج عليها، ونحو ذلك من الشبه، أن ذلك يبيح لها ما تصنع، فإن هذا
كله من تزيين الشيطان وتلييسه.

* ليعلم كل من يمارس السحر أو تسبب في فعله ذلك أنه على خطر عظيم،
وأنه قد باع دينه بثمان بخس، وأن الشياطين هم شيوخه وأساتذته في عمله هذا، كما
قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ۗ وَمَا كَفَرَ سَلِيمًا ۗ وَلَكِنَّ
الشَّيْطِينِ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ...﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا

(١) مسلم ح (٢٢٠٤) عن جابر رضي الله عنه.

(٢) البخاري ح (٥٦٧٨).

لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ١٠٢﴾.

* إن ضعفت النفس لحظة، وزين الشيطان لها شيئاً من هذه الأفعال المنكرة، فليبادر بالتوبة الآن، وليقلع عن هذا العمل الباطل، وليتحلل ممن لحقه الأذى من جراء هذا الفعل، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، وقبل أن يوقف للحساب بين يدي من لا تخفى عليه خافية، الذي يعلم من هو الساحر؟ ومن هو المسحور؟ ومن هو المتسبب في ذلك كله! فيقتصر للمظلوم من ظالمه، حين تكون الحسنة أعلى من الدنيا وما عليها!

إن يقين المؤمن بهذه القاعدة: ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ مما يقوي عبادة التوكل عنده، وعدم الخوف من إرهاب هذا الصنف الحقير من الناس، وهم السحرة، ويتذكر عندها قول الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وفي قراءة: ﴿أليس الله بكافٍ عباده؟ والجواب: بلى والله.

ومما يحسن تأمله والتفكير فيه: أن هؤلاء السحرة رغم ما يملكون من الأموال، وما يعيشونه من سكرة التفات الناس إليهم، إلا أنهم من أتعس الناس حياةً، وأخبثهم نفوساً، ولا عجب! فمن سلّم قياده للشياطين، وكفر برب العالمين، كيف يسعد أم كيف يفلح؟!





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الثانية عشرة

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة، التي تدل على عظمة هذا الدين، وسموه، وعلو مبادئه.

إن هذه الآية العظيمة جاءت في سورة الحجرات، وإن شئت فسمها: جامعة الآداب، فبعد أن ذكر الله تعالى جملةً من الآداب العظيمة، والخلال الكريمة، ونهى عن جملة من الأخلاق الرذيلة، والطباع السيئة، قال الله بعدها -مقررًا الأصل الجامع الذي تنطلق منه الأخلاق الحسنة، وتضعف معه أو تتلاشى الأخلاق السيئة، وأنه معيار التفاضل والكرامة عند الله-: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، إنها لآية عظيمة، تبرز ميزان العدل الذي لم تظهر تفاصيله كما ظهرت في هذا الدين.

لن يتبين لك موقع هذه الآية الكريمة إلا إذا استعرضت في ذهنك شيئًا من الموازين التي كان يتعامل بها عرب الجاهلية في نظرهم لغيرهم من غير قبائلهم، سواء كانوا من قبائل أخرى أقل منها درجة في النسب، أو في نظرهم للأعاجم، أو في تعاملهم مع العبيد والموالي!

وإليك هذا الموقف الذي وقع في حياة النبي ﷺ وحدث به الصحابي صادق اللهجة: أبو ذر رضي الله عنه: روى الشيخان من حديث المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر بالربذة، وعليه بُردٌ وعلى غلامه مثله، فقلنا يا أبا ذر: لو جمعتَ بينهما كانت حلة، فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية!» قلت: يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمّه، قال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم!»^(١) فهذا أبو ذر مع صدق إيمانه، وسابقته في الإسلام، لأمه النبي ﷺ، وعاتبه لما خالف هذه القاعدة القرآنية العظيمة، وعير الرجل بمنطق أهل الجاهلية!

وليس هذا الموقف الوحيد الذي ربّى فيه النبي ﷺ على الاهتمام بهدي هذه القاعدة، بل كررها بعدة أساليب بيانية وعملية، ولعلي أكتفي بهذين الموقفين الذين لا يمكن أن تنساهما العرب ولا قريش أبد الدهر:

أما الموقف الأول:

فهو يوم فتح مكة، حين أمر النبي ﷺ بلائلاً أن يصعد فوق الكعبة ليرفع الأذان، في مشهد ما ظنّ بعض مُسلمةِ الفتح أن يعيش ليرى هذا العبد الحبشي يقف كهذا الموقف! ولكنه الإسلام، والهدي النبوي الذي يربي بالفعل والقول.

وفي ذات اليوم -فتح مكة- يدخل النبي ﷺ الكعبة ويصلي فيها، ولك أن تتفكر من هي الشخصيات المتوقعة التي حظيت بشرف مرافقته في دخوله هذا، والذي أغلق

(١) البخاري ح (٥٧٠٣)، ومسلم ح (١٦٦١) واللفظ له.

عليه الباب بعد دخوله، ومن معه؟! لعله أبو بكر وعمر رضي الله عنهما؟ كلا، إذن: لعله صهره وزوج ابنتيه ذي النورين: عثمان، وابن عمه علي رضي الله عنه؟ كلا، إذن: لعله دخل بعض مُسلمة الفتح من أكابر قريش؟ كلا، بل لم يدخل معه سوى: أسامة بن زيد -مولاه ابن مولاه- وبلال الحبشي، وعثمان بن طلحة المسئول عن مفتاح الكعبة! ^(١).
الله أكبر! أي برهان عملي على إذابة المعايير الجاهلية أكبر من هذا؟ مع أن في الحضور من هو أفضل من بلال وأسامة -كالخلفاء الأربعة، وبقية العشرة المبشرين-!
وأما الموقف الثاني:

فإنه وقع في أعظم مشهد عرفته الدنيا في ذلك الوقت... إنه مشهد حجة الوداع، ففي بعض مشاهد تلك الحجة، وبيننا الناس مستعدون للنفير من عرفة، وإذا بالأبصار ترمق الدابة التي كان النبي ﷺ يركبها، ويتساءلون: من الذي سيحظى بشرف الارتداد مع النبي ﷺ؟ فلم يرعهم إلا وأسامة -ذلك الغلام الأسود: مولاه وابن مولاه- يركب خلف النبي ﷺ والناس ينظرون!

فعل هذا النبي ﷺ وهو الذي خطب في ذلك اليوم خطبته العظيمة التي قرر فيها أصول التوحيد والإسلام، وهدم فيها أصول الشرك والجاهلية، وقال كلمته المشهورة: «إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوع».

هذان الموقفان قطرة من بحر سيرته العطرة ﷺ!

أما سيرة أصحابه رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان فالمواقف فيها كثيرة وعظيمة، أكتفي منها بهذا الموقف الذي يدل على نبلمهم وفضلهم، وشرف أخلاقهم حقاً، الذي جعلهم أهلاً لأن يكونوا خير من يمثل عالمية الإسلام وعالمية الرسالة:

(١) والحديث في الصحيحين من حديث ابن عمر: البخاري ح (٢٨٢٦)، ومسلم ح (١٣٢٩).

كان علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام - المعروف بـ: زين العابدين، وهو من سكان مدينة النبي صلى الله عليه وآله - إذا دخل المسجد، يتخطى حلق قومه من قريش، حتى يأتي حلقة زيد بن أسلم - وهو مولى لكنه من علماء المدينة الكبار في زمانه - فيجلس عنده، فكأن بعض الناس لامة: كيف تجلس - وأنت الرجل القرشي وحفيد النبي صلى الله عليه وآله - عند رجل من الموالي؟ فقال كلمة ملؤها العقل: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه^(١).

إن من عظمة هذا الدين أنه لم يربط مكانة الإنسان ومنزلته عند الله بشيء لا قدرة عليه به، فالإنسان لا يختار أن يكون شريف النسب، وإلا لتمنى الكل أن يتصل بالسلالة النبوية! ولم يربطه بطول ولا قصر، ولا وسامة ولا دمامة^(٢)، ولا غير ذلك من المعايير التي ليست في مقدور البشر، بل ربطه بمعيار هو في مقدور الإنسان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحدًا بنسبه، ولا يذم أحدًا بنسبه، وإنما يمدح الإيمان والتقوى، ويذم الكفر والفسوق والعصيان»^(٣).

ومما يشهد لما قاله شيخ الإسلام: أن الله تعالى أنزل سورة كاملة في ذم أبي لهبٍ لكفره وعداوته للنبي صلى الله عليه وآله، ونهى الله نبيه صلى الله عليه وآله أن يطرد المؤمنين من ضِعْفَةِ أصحابه، وإن كان القصد من ذلك: الرغبة في كسب قلوب أكابر قريش، فقال سبحانه: ﴿وَلَا

(١) ينظر: حلية الأولياء (٣/١٣٨).

(٢) يقال لقيح الخِلقة: ذميم (بالدال)، وهو: من قبح منظره وصغر وجهه؛ وكأنه مأخوذ من «الدِّمَّة» بالكسر وهي القملة أو النملة الصغيرة، وأما الذميم بالدال فهو قبيح الأخلاق، لهذا يقال: ذميم الخلق ذميم الخلق. انظر: المصباح المنير (١/١٠٥)، أساس البلاغة: (١/٢٧٤).

(٣) دقائق التفسير: (٢/٢٣).

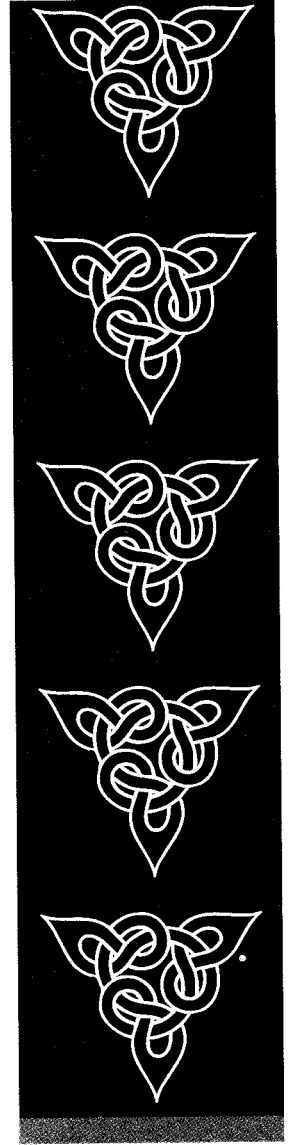
تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال له في الآية الأخرى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

إن مما يؤسف عليه - في واقعنا المعاصر - وجود أمثلة كثيرة مخالفة لهذه القاعدة الشريفة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ﴾ تمثلت بصور من عودة العصبية الجاهلية للقبيلة، والتي لم تتوقف عند حد التعارف بين أفراد القبيلة الواحدة فحسب، ولم تتوقف عند التماحح المباح، بل تجاوز ذلك إلى الغلو في المدح، والمبالاة المفرطة للقبيلة، بل والتلويح تارة بنبز القبائل الأخرى، والتي ذوبان المعايير الشرعية عند البعض بسبب هذه الأساليب التي كرسها وعزز من حضورها المسابقات الشعرية التي تبتتها بعض القنوات الفضائية، والتي ترتب عليها محاذير شرعية أخرى ليس هذا موضع ذكرها، وإنما الغرض الإشارة إلى مخالفتها إلى ما دلت عليه هذه القاعدة القرآنية الكريمة، فليتق الله من يسمع ويقرأ قول ربه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ﴾ من التفاخر المذموم، وليعلم المؤمن أن من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

نسأل الله تعالى أن يعيدنا من أخلاق أهل الجاهلية، وأن يرزقنا التأسى برسوله

ﷺ في جميع أمورنا.





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة

الثالثة

عشر

﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية، تُوقِفُ العبدَ على شيءٍ من عظمة الله تعالى في خلقه وحِكمته في شرعه، وتُوقِفُ العبدَ على قصوره في علمه.

وهذه القاعدة جاءت في سياق آيات الفرائض في صدر سورة النساء، والمعنى:

﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ يعني: الذين يرثونكم من الآباء والأبناء ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ

أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا تعلمون أنهم أنفع لكم في الدين والدنيا، فمنكم من يظن أن الأب أنفع له، فيكون الابن أنفع له، ومنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له، وأنا العالم بمن هو أنفع لكم، وقد دبرت أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه»^(١).

«ولو رد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم لحصل من الضرر ما الله به عليم؛

لنقص العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن، في كل زمان ومكان»^(٢).

لقد كان أهل الجاهلية يقسمون الميراث بموازين غير منضبطة، فتارة يراعون حاجة الأبوين، وتارة حاجة الأبناء، وتارة يتوسطون، فجاء الشرع المطهر ليُلغِي تلك الاجتهادات، فتولى الله ﷻ قسمة الموارث بنفسه، ثم بيّن سبحانه في خاتمة هذه الآية

(١) تفسير البغوي: (٢/ ١٧٨).

(٢) تفسير السعدي: (ص ١٦٦).

الكريمة معنيين عظيمين يعزب عنهما علم البشر مهما بلغ في سعته، فقال ﷺ في خاتمتها:

١- ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]، وهي

القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها.

٢- ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١] فهذه فرائض

يجب تنفيذها، وعدم الافيات عليها بتحريف أو تقصير، وعلل هذا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ ليزداد يقين المؤمن أن هذه القسمة صادرة عن علم تام، وحكمة بالغة، لا يمكن أن يلحقها نقص أو جور.

من تطبيقات هذه القاعدة:

ولنحاول أن نطبق هذه القاعدة على واقعنا؛ لعلنا نستفيد منها في تصحيح بعض

ما يقع منا من أخطاء في بعض تصوراتنا ومواقفنا الاجتماعية، فمن ذلك:

١- أن بعض الآباء قد تكون خَلْفَتُهُ^(١) من الذرية بنات فقط؛ فيضيق لذلك

صدره، ويغتم لهذا الابتلاء، فتأتي هذه القاعدة لتسكب في قلبه اليقين والرضا، وكم من بنتٍ كانت أنفع لوالديها من عددٍ من الأبناء! والواقع شاهدٌ بذلك.

أعرف رجلاً لما كبرت سنه، كان أولاده بعيدون عنه في طلب الرزق، فلم يجد هذا الوالد - الذي خارت قواه، وضعفت بُنيته - أكثر حنوًّا ورعاية من ابنته الوحيدة التي قامت بحقه خير قيام من جهة النفقة، والرعاية الصحية، وصدق الله: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالأمر أعظم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أطوعكم الله

ﷺ من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة، والله تعالى يُشَفِّعُ المؤمنين بعضهم

(١) الصحاح في اللغة (١/ ١٨٣): «الْخَلْفُ وَالْخَلْفُ: مَا جَاءَ مِنْ بَعْدِ. يُقَالُ: هُوَ خَلْفٌ سَوِيٌّ مِنْ

أبيه، وَخَلْفٌ صَدِيقٌ مِنْ أَبِيهِ».

في بعض^(١)، فإن كان الوالد أرفع درجة في الجنة رُفِعَ إليه ولده، وإن كان الولد أرفع درجة رُفِعَ إليه والده لتقر بذلك أعينهم.

ومن المؤسف أن نسمع ونقرأ عن أناسٍ رزقوا عددًا من البنات، يتدمرون بل قد يهددون زوجاتهم إن هُنَّ ولدنَ لهم إناثًا! وكأن الأمر بأيديهن، وهذا من الجهل - في الحقيقة - إذ كيف يلام إنسان على أمر لا طاقة له به؟

ويا ليت من يقعون في هذا الأسلوب يتأملون في أمور منها:

(١) هذه القاعدة القرآنية: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾

[النساء: ١١].

(٢) قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ۗ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

قال ابن القيم - معلقًا على هذه الآية -: «وكفى بالعبد - تعرضًا لمقتته - أن يتسخط

ما وهبه»^(٢).

(١) تفسير الطبري: (٤٩/٧) ط: الرسالة.

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود: ص (٣٢)، ولكلامه تمة يحسن ذكرها، وهي قوله: «وبدأ سبحانه بذكر الإناث: فليل جبرا هن؛ لأجل استئصال الوالدين لمكانهن، وقيل - وهو أحسن - : إنها قدمهن لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالبًا، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء؛ فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان، وعندني وجه آخر: وهو أنه سبحانه قدّم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات؛ حتى كانوا يئدوهن، أي: هذا النوع المؤخر عنكم مُقدّمٌ عندي في الذكر، وتأمل كيف نكّر سبحانه الإناث، وعرّف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنويهٌ كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين، الذين لا يخفون عليكم، ثم لما ذكر الصنفين معًا قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك» انتهى.

٣) ومما يحسن بمن ابتلي بالبنات أن يتذكره: الأحاديث الواردة في فضل من عال البنات ورباهن حتى يبلغن.

ومما يُذكر به المتضرر من الابتلاء بالبنات، أن يقال له:

٤) هب أنك ضجرت، وتدمرت، فهل هذا سينجب لك ذكورًا؟ صحيح أن أغلب الناس جُبِلَ على حب الذكور، لكن المؤمن ينظر إلى هذا الابتلاء بمنظار آخر، وهو: عبودية الصبر، وعبودية الرضا عن الله، بل قد ينتقل بعض الموفقين إلى مرتبة الشكر؛ لعلمه بأن خيرة الله خير من خيرته لنفسه، وأن الله قد يكون صرف عنه شرًا كثيرًا حين حرمة من الذكور أليس الله تعالى قد سلط الخضر على ذلك الغلام فقتله، ثم علل ذلك بقوله: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۗ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَانَتْ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾؟! [الكهف: ٨٠ - ٨١].

ومما يحسن ذكره في هذا المقام: أن الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ - وهو ممن ابتلي بالبنات ولم يرزق الذكور - كتب مقالًا، أكاد أجزم لو قرأه الذين ابتلوا بالبنات لم يتمنوا إلا ما هم فيه!

وكما أن الآية فيها سلوة لمن ابتلوا بالبنات؛ ففيها سلوة لأولئك الذين ابتلوا بأولاد معاقين، سواء كانت إعاقتهم سمعية أو بصرية أو عقلية أو بدنية، فيقال لهم: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ويقال لهم أيضًا: والله إنكم لا تدرُونَ أي أولادكم أقرب لكم نفعًا! فقد يكون هذا المعاق أقرب لكم نفعًا في الدنيا قبل الآخرة!

أما في الدنيا: فكم فتحت هذه الابتلاءات لوالدي هؤلاء المعاقين من لذة التعلق بالله، ومناجاته، ورجائه الفرج!

وكم ربّت هذه الابتلاءات في نفوس والدي المعاقين من معاني الصبر والاحتمال

ما لم تكن تحصل لهم لولا هذه الابتلاءات! وكم... وكم...!!

وأما في الآخرة: فلعل أمثال هذه الابتلاءات بهؤلاء المعاقين تكون سبباً في رفعة

درجاتهم عند الله تعالى، رفعة قد لا تبلغها أعمالهم!

ولئن كانت الآية واضحة المعنى في موضوع الابتلاء بالبنات، أو بأبناء فيهم

عاهات أو إعاقات، فإنه يمكن أن يقاس عليها أمور أخرى، مثل: الأعمال الصالحة،

والمؤلفات، والمقالات، والكلمات، بل والعبادات، فلا يدري الإنسان أي تلك

الأعمال، والمؤلفات، والعبادات أكثر نفعاً له في الآخرة.

تأمل في سؤال النبي ﷺ لبلال ؓ - حينما سمع ﷺ خشف^(١) نعليه في الجنة

-: «أخبرني بأرجى عمل عملته في الإسلام؟» فقال بلال: إني لم أتوضأ ساعة من ليل

أو نهار إلا صليت بذلك الوضوء ركعتين!^(٢).

تأمل كيف أنه لم يذكر بلالاً جهاده مع الرسول، ولا التزامه بالأذان!

وهذا كله يدعو العبد لأن يكثر من أبواب الخير؛ فالإنسان لا يدري أي أعماله

التي قد تكون سبباً في نيل رضوان الله والجنة، ولرب عمل كبير لكن داخله ما داخله

من حظوظ النفس؛ فلم ينتفع به صاحبه، ولرب عمل قليل عظمت فيه النية، وصدق

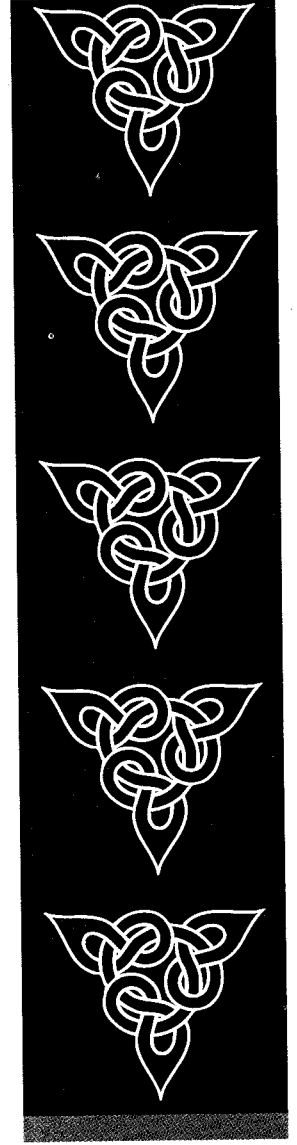
صاحبها مع الله فأثابه ثواباً لا يخطر على باله، وفي قصة المرأة البغي التي سقت كلباً

أكبر شاهد على ذلك.



(١) الخشفة: الصوت والحركة أو الحس الخفي.

(٢) البخاري ح (٣٤٧٦)، ومسلم ح (٢٤٥٨).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الرابعة عشر

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة، التي تجلي معنى عظيمًا ومهمًا في باب التسليم والانقياد لأوامر الله ورسوله، والانقياد لحكم الشريعة.

وهذه الآية الكريمة جاءت في سورة القصص، في سياق الحجاج مع المشركين، وبيان تنوع أساليبهم في العناد لرد الشريعة، ورميهم للنبي ﷺ بالعظائم، يقول تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفُونٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَاتُوا بِكِنْدِبٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ^{٥٠} وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٨ - ٥٠].

والشاهد الذي نحن بصدد الحديث عنه، هو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

وقد بين الله تعالى هذه القاعدة في موضع آخر، فقال ﷺ: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتُمْ تُصِرُّونَ﴾^(١).

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن (١٢٩) لابن القيم.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ موضحاً هذه القاعدة: «فما هو إلا الهوى أو الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤]، فجعل النطق نوعين: نطقاً عن الوحي، ونطقاً عن الهوى»^(١)، «فما لم يقله سبحانه ولا هدى إليه فليس من الحق، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، فقسم الأمور إلى قسمين لا ثالث لهما: اتباع لما دعا إليه الرسول واتباع الهوى»^(٢).

«فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة، وعدل عنها إلى خلافها؛ فقد اتبع هواه»^(٣).

إن الحاجة إلى التذكير بهذه القاعدة القرآنية العظيمة من الأهمية بمكان، خصوصاً في هذا العصر الذي كثرت فيه الأهواء، وتنوعت فيه المشارب في التعامل مع النصوص الشرعية بدعاوى كثيرة: فهذا ينصر بدعته، وهذا يروج لمنهجه في تناول النصوص، وثالث يتبع الرخص التي توافق مراد نفسه، لا مراد الله ورسوله!

لقد أتى على الناس زمانٌ لا يحتاج الشخص ليمثل الأمر أو يترك النهي إلا أن يقال له: قال الله، قال رسوله، قال الصحابة، فيتمثل وينصاع، ويندر أن تجد من يناقش مناقشة المتملص من الحكم الشرعي، أما اليوم - وقد انفتحت على الناس أبواب كثيرة يتلقون منها المعلومات - فقد سمعوا أقوالاً متنوعة في المسائل الفقهية، وليست هذه هي المشكلة - فالخلاف قديمٌ جداً، ولا يمكن إلغاء أمر قدره الله ﷻ - إلا أن المشكلة، بل المصيبة: أن بعض الناس وجد في بعض تلك الأقوال - التي قد تكون شاذةً في المقياس الفقهي - فرصةً للأخذ بها؛ بحجة أنه قد وجد في هذه المسألة

(١) الصواعق المرسله: (٣/ ١٠٥٢).

(٢) إعلام الموقعين: (١/ ٢٩٨).

(٣) الصواعق المرسله: (٤/ ١٥٢٦).

قولاً يقول بالإباحة! ضارباً عرض الحائط بالقول الآخر الذي يكاد يكون إجماعاً أو شبه إجماع من السلف الصالح على تحريم هذا الفعل أو ذلك القول!

هذا فضلاً عن تلك المسائل التي تبين فيها خطأ قائلها من أهل العلم؛ بسبب خفاء النص عليه، أو لغير ذلك من الأسباب المعروفة التي لأجلها يختلف العلماء^(١)، ولئن كان ذلك الإمام معذوراً مأجوراً - لخفاء النص عليه أو لغير ذلك من الأسباب - فما عُدُّ من بلغه النص عن الله أو عن رسوله؟! ثم بعد ذلك يدعي أنه يسوغ له الأخذ بذلك القول لأجل أنه قد قيل به! مردداً مقولةً كثر تكرارها على ألسنة هذا الصنف من الناس: ما دام أنني لم أخالف إجماعاً قطعياً، ولا نصاً صحيحاً صريحاً، فلا حرج عليّ!! ناسياً أو متناسياً قواعد الاستدلال التي قررها الأئمة رحمهم الله.

أليس هؤلاء لهم نصيب من هذه القاعدة: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأَعْلَمَ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾؟!؟

وهنا يحسن أن يُذكَر هذا الصنف من الناس بقول الله تعالى: ﴿لَيْلِ الْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ - بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، وهي قاعدة قرآنية محكمة، سبق شرحها.

كما ينبغي أن يُذكَرُوا بالقاعدة التي جاءت في الحديث المشهور - والذي قواه بعض أهل العلم^(٢) -: «البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر»^(٣).

وهذا المعنى - الذي دلّ عليه الحديث - كما نبّه على ذلك العلماء: إنما يجده من

(١) والتي حررها شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته القيمة: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

(٢) قال ابن رجب: «وقد روي هذا الحديث عن النبي ﷺ من وجوه متعددة، بعض طرقه جيدة»، ينظر: (جامع العلوم والحكم - شرح الحديث ٢٧).

(٣) وقد أشرت لشيء من معناه في آخر حديثي عن القاعدة النبوية الرابعة عشر (البر حسن الخلق)، أعان الله على إتمام تلك القواعد وطبعتها.

بقي في قلبه بقية من نور لم تطمسها ظلمة الشهوات والشبهات! أما من هام في أودية
الفسق والفجور؛ فإن قلبه لا يفتيه إلا بما تهواه نفسه!

وما أجل ما حكاه ابن الجوزي عن نفسه، وهو يصف حالاً مرّت به، تُشبه ما
نحن بصدد الحديث عنه - من أحوال بعض المترخصين اتباعاً لأهوائهم - يقول:
«ترخصت في شيء يجوز في بعض المذاهب، فوجدت في قلبي قسوة عظيمة، وتخايل لي
نوع طرد عن الباب وبعُد، وظلمة تكاثفت! فقالت نفسي: ما هذا؟ أليس ما خرجت
عن إجماع الفقهاء؟!

فقلت لها: يا نفسِ السوء! إنك تأولت ما لا تعتقدين، فلو استُتِيت لم تفتِ بما
فعلت، والثاني: أنه ينبغي لك يا نفسُ الفرح بما وجدت من الظلمة عقيب ذلك؛ لأنه
لولا نورٌ في قلبك ما أثر هذا عندك!»^(١).

لقد جرى لي مرة حوار عارض مع بعض هذه الفئة، التي أخذت تخوض عملياً
في جملة من المسائل المخالفة لما عليه جماهير العلماء، فقلتُ له: يا هذا! دعنا من البحث
الفقهي المحض، وأخبرني عن قلبك: كيف تجده وأنت تفعل ما تفعل؟!

فأقسم لي بالله: أنه غير مرتاح! وإنما يخادع نفسه بأن الشيخ الفلاني يفتي بهذا،
وهو في قرارة نفسه غير مطمئن لتلك الفتوى! فقلتُ له: يا هذا، إن العالم الذي قال
بهذه المسألة معذور؛ لأن هذا هو مبلغ علمه، ولكن انج بنفسك، فإن صنيعك هذا
هو الذي قال العلماء: إنه تتبع الرخص، وذموا فاعله، بل جعلوا هذا الفعل نوعاً من
النفاق واتباع الهوى، ولذا قال جمع من السلف: من تتبع الرخص فقد ترندق!

ومن تأمل كلمة الهوى في القرآن الكريم، لم يجدها ذُكرت إلا في موطن الدم!
ولهذا حذر الله نبياً من خيرة أنبيائه من هذا الداء القلبي الخطير فقال: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا

(١) صيد الخاطر: (١٦٢) بتصرف.

جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ [ص: ٢٦]! فمن يأمن على نفسه من الهوى بعد ذلك؟

ولو أن رجلاً أخذ برخص الفقهاء من عدة مذاهب في مسائل متنوعة، لاجتمع فيه شرٌّ عظيم، ولأصبح دينه مرقعاً ورقيقاً!

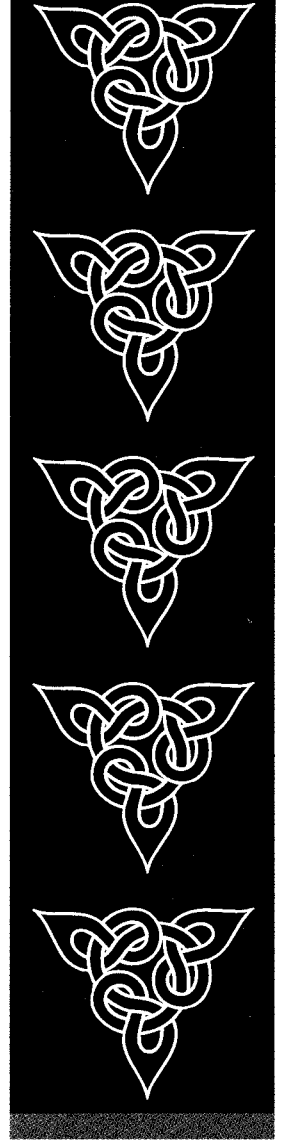
وليتذكر المؤمن جيداً - وهو يسلك مسلك تتبع الرخص - أنه إنما يفعل ما يفعل، ويترك ما يترك ديانةً لله، وقيامًا بواجب العبودية لهذا الرب العظيم، فكيف يرضى العبد أن يتعامل مع ربه بدين شعاره الهوى؟!!

وقبل أن نختم الحديث عن هذه القاعدة العظيمة، يجب أن نتنبه لأمرين:

الأول: الحذر من تنزيل هذه القاعدة على المسائل الشرعية التي الخلاف فيها معتبر ومعروف عند أهل العلم.

الثاني: أن المقصود بالذم هنا، هو من اتبع هواه في الاستفتاء، بحيث يتنقل بين المفتين، فإن وافقت الفتيا ما في نفسه طبقها، وإلا بحث عن آخر حتى يجد من يفتيه، وهذا هو اتباع الهوى بعينه، نعوذ بالله من اتباع الهوى، ونسأله ﷻ أن يجعل اتباع الحق رائدنا وغايتنا.





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الخامسة عشر

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة، التي تبعث الأمل في نفوس أهل الإيمان، وتملأ قلوبهم ثقةً و يقيناً.

وهذه القاعدة القرآنية جاءت مرةً على لسان موسى عليه الصلاة والسلام وهو يبشر قومه الذين آمنوا به؛ بحسن العاقبة لهم في الدنيا قبل الآخرة، والتمكين في الأرض إن هم لازموا التقوى.

وجاءت هذه القاعدة بلفظ مقارب، في خطاب الله تعالى لنبيه محمد ﷺ في خواتيم سورة طه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلنَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

وجاءت هذه القاعدة -أيضاً- بعد انتهاء قصة قارون، في خواتيم سورة القصص، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

ومن المعلوم أن العاقبة هنا لا تنحصر في الآخرة التي ضمن الله النجاة فيها للمتقين، كما في قوله ﷺ: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، بل هي عامة في الدنيا

والآخرة، ولكن قبل أن نسأل: أين هذه القاعدة من واقعنا؟ فلنسأل: أين تحقيق التقوى على الوجه الصحيح؟! وإلا فوعد الله لا يتخلف!

إن أدنى تأمل لمجيء هذه الآيات - مع تنوع سياقاتها - ليوضح بجلاء اطراد هذه القاعدة، فقد أخبر بها ربنا جل وعلا في قوله: ﴿وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾، وبعد قصة قارون قوله: ﴿وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وبشر بها موسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام.

«وحقيقة العاقبة: أنها كل ما يعقب أمرًا، ويقع في آخره من خير وشر، إلا أنها غلب استعمالها في أمور الخير، فالمعنى: أن التقوى تجيء في نهايتها عواقب خير.

واللام - في قوله: ﴿لِلتَّقْوَى﴾، و﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للملك، تحقيقًا لإرادة الخير من العاقبة؛ لأن شأن لام الملك أن تدل على نوال الأمر المرغوب، وإنما يطرد ذلك في عاقبة خير الآخرة، وقد تكون العاقبة في خير الدنيا أيضًا للتقوى.

وجاءت هذه الجملة بهذا الأسلوب لتؤكد معنى العموم، أي: لا تكون العاقبة إلا للتقوى، فهذه الجملة أرسلت مجرى المثل^(١).

ما أحوجنا ونحن نشاهد ما نشاهد - إن على المستوى الفردي أو الجماعي - أن نتأمل هذه القاعدة!

ولنبداً بالإشارة إلى المستوى الجماعي:

فإن أمة الإسلام تمر منذ قرون بحالة من الضعف والتفرق وتسلط الأعداء على كثير من أبنائها، وهذه حال تجعل بعض الناس من المنتسبين للإسلام قد يبحث عن موطئ قدم خارج دائرة الإسلام؛ فيذهب غربًا أو شرقًا؛ بحثًا عن مبادئ أخرى، ومذاهب مختلفة، لا تمكث إلى الإسلام بصله، بسبب شعوره البائس بهزيمة داخلية!

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ١٩٣) بتصرف يسير.

ولما تعانیه الأمة الإسلامية من تفرق وتشرذم! وفي الوقت ذاته: انبهاره بالتقدم المادي، وما يوجد في تلك البلاد من محاسن تتعلق بحقوق الإنسان، وغيرها من المجالات.

والمؤلم في أمثال هؤلاء: أنهم لم يروا من حضارة الشرق أو الغرب إلا الجانب الإيجابي والحسن، وعميت أبصارهم، أو تعاملوا عن الجوانب المظلمة - وما أكثرها! - هذه الحضارة التي اعتنت بالجسد، وأهملت الروح، وعمرت الدنيا وخربت الآخرة، وسخرت ما تملكه من أسباب مادية في التسلط على الشعوب المستضعفة، وفرض ثقافتها، وأجندتها على من تشاء!

وعلى سبيل المثال: فإن نظام الثورة الفرنسية الذي قرر مبادئ حقوق الإنسان والمساواة بين البشر - كما يزعم واضعوه - لم يمنعه من إبادة ثلث سكان جزيرة هايتي؛ لأنهم تمردوا على العبودية! كما أن القائد الفرنسي المشهور نابليون - الذي أنجبت الثورة الفرنسية - جاء إلى بلاد مصر، ليحتلها ويقيم نظامًا استعماريًا فيها.

والأمثلة كثيرة لا يتسع المقام لسردها، فضلاً عن التفصيل فيها، ولكن لعل من المناسب أن نذكر بقضية انهيار النظام الاقتصادي الرأسمالي! الذي قام على مصادمة منهج الله العادل في شأن المال، فرأى أربابه صدق ما توعد الله به أكلة الربا من المحق، وفي كل يوم نسمع عن مليارات ضائعة، وشركات عالمية أفلست، ومئات من البنوك أغلقت على مستوى العالم! حينها قال من قال: لا بد من العودة إلى المنهج الإسلامي في الاقتصاد! وصدق الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وصدق الله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾.

ألا ما أحوج الدول الإسلامية، والجماعات الإسلامية - في بقاع الأرض - إلى أن يتدبروا هذه القاعدة جيداً، وأن يتأملوا في العواقب التي جناها مخالفوا التقوى في الأنظمة والحكم والسلوك.

ومن تدبر مجيء قوله تعالى - على لسان موسى وهو يخاطب قومه المضطهدين عدة قرون-: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] عرف حاجة الدول والمجتمعات لتدبر هذه الآية جيداً، وأن وعد الله لا يتخلف لمن اتقاه دولاً كانوا أو شعوباً، وتأمل قول مَنْ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ كُلُّهَا إِلَيْهِ ﷻ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

ومن أراد أن يعرف الآثار السيئة التي لقيها العالم حين بُعد المسلمون عن دينهم، وخسارة العالم لعظيم مبادئ الإسلام؛ فليقرأ كتاب الشيخ أبي الحسن الندوي رَحِمَهُ اللهُ: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)!

أما على المستوى الفردي، فإن الحديث فيها يحتاج إلى بسط أكثر، ولكن حسبنا في مقامنا هذا أن نشير إشارة مُذَكَّرَةٌ بأهمية هذه القاعدة في حياتنا اليومية:

فإن آية القصص: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ جاءت بعد قصة قارون الذي لم يصبر على شهوة المال!

وفي هذا إشارة إلى حاجة العبد -رجلاً كان أو امرأة- لتدبر هذه القاعدة، خصوصاً وهو يعيش في جو من المغريات والفتن والصوارف عن دين الله ﷻ؛ لتَهْوَنَ عليه الصبر عن الشهوات والملذات المحرمة، فكلما دعت نفسه إلى ما يخالف التقوى، فليذكرها بحسن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة.

وكذلك الداعية إلى الله، من أحوج ما يكون إليها وهو يسير في طريق الدعوة الطويل، والمليء بالابتلاء بالخير أو بالشر، وخصوصاً إذا كان لا يجد معيناً ولا ناصرًا، بل قد يجد مناهضاً ومعادياً!

يقول شيخنا العلامة ابن باز رحمته الله بعد أن ذكر شيئاً مما تعرض له إمام الدعوة محمد صلى الله عليه وسلم من أذى وابتلاء:

«فكيف يطمع أحد بعد ذلك أن يسلم؟ أو يقول: متى كنت متقياً أو مؤمناً فلا يصيبني شيء؟! ليس الأمر كذلك بل لابد من الامتحان، ومن صبر حمداً العاقبة، كما قال الله جل وعلا: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ فالعاقبة الحميدة لأهل التقوى، متى صبروا واحتسبوا وأخلصوا لله وجاهدوا أعداءه وجاهدوا هذه النفوس، فالعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، كما قال صلى الله عليه وسلم: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فأنت - يا عبد الله - في أشد الحاجة إلى تقوى ربك ولزومها، والاستقامة عليها، ولو جرى ما جرى من الامتحان، ولو أصابك ما أصابك من الأذى أو الاستهزاء من أعداء الله، أو من الفسقة والمجرمين فلا تبال، واذكر الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، واذكر أتباعهم بإحسان؛ فقد أودوا، واستهزئ بهم، وسخر بهم، ولكنهم صبروا؛ فكانت لهم العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، فأنت يا أخي كذلك اصبر وصابر»^(١).

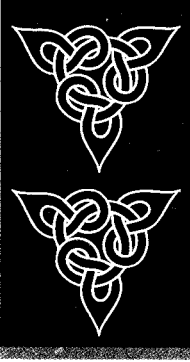
ومفهوم هذه القاعدة القرآنية المحكمة: أن كل من لم يكن تقياً في أحواله، أو أفعاله، فلا عاقبة له حسنة، وإن أمهل زماناً، أو ترك دهرًا، وهذه سنة الله في خلقه، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يستدل بهذه القاعدة القرآنية: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وبأمثالها - إبان هجوم التتار على بلاد الإسلام - وكان يقسم بالله أن التتار لن يُنصروا، بل سيخذلون وينكسرون، وكان مما قاله حينها: «واعلموا - أصلحكم الله - أن النصره للمؤمنين، والعاقبة للمتقين، وأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وهؤلاء

(١) مجموع فتاوى ابن باز: (٢/ ٢٨٩).

القوم مهجورون مسموعون، والله سبحانه وتعالى ناصرنا عليهم، ومنتقم لنا منهم،
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ فأبشروا بنصر الله تعالى وبحسن عاقبته،
وهذا أمر قد تيقناه وتحققناه والحمد لله رب العالمين»^(١).
اللهم ارزقنا تقواك، واجعلنا من عبادك المخلصين.



(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٢٥)، و(٤١٩ / ٢٨).



القاعدة السادسة عشر

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة، يحتاجها الإنسان في مقام التمييز بين الأقوال والأفعال، والسلوكيات والمقالات.

والخبيث: ما يُكره بسبب رداءته وخساسته، سواء كان شيئاً محسوساً، أو شيئاً معنوياً، فالخبيث إذا تناول: كل قول باطلٍ ورديء في الاعتقاد، والكذب في المقال، والقبیح من الفعال، فكل خبيث: لا يحبه الله ولا يرضاه، بل مآله إلى جهنم، كما قال ﷺ: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وإذا تبين معنى الخبيث ههنا؛ فإن الطيب بعكسه فيدخل فيه الواجب والمستحب والمباح - من الأقوال والأفعال والصحيح من المعتقدات - فدخل في هذه القاعدة كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الواجبات والمستحبات والمباحات.

فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال^(١).

(١) ينظر: مفردات الراغب (٢٧٢)، وتفسير ابن جزري والسعدي لهذه الآية.

وهذه القاعدة القرآنية هي صدر الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠]، والتي سيقت في معرض الحديث عن أنواع من المطاعم والمشارب والصيد، وتفصيل الحرام والحلال فيها.

ولا ريب أن الغرض من الآية ليس مجرد الإخبار بأن الخبيث لا يستوي هو والطيب، فذلك أمرٌ مركزوز في الفطر، بل الغرض: الحث والترغيب في تتبع كل طيب من القول والعمل والاعتقاد والمكسب، والتنفير من كل خبيث من القول والعمل والاعتقاد والمكسب.

ولما كان في بعض النفوس ميلٌ إلى بعض الأقوال أو الأفعال أو المكاسب الخبيثة، وكان كثيرٌ من الناس يؤثر العاجل على الآجل، والفاني على الباقي؛ جاء التحذير من الخبيث بأسلوب عجيب يقطع الطريق على من قد يحتج بكثرة من يتناول هذا الخبيث، فقال ﷺ: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ وذلك أن في بعض الخبائث شيءٌ من اللذة الحسية أو المعنوية، كالحصول على مالٍ كثير لكن من طريق حرام، أو الوصول إلى اللذة الجسدية عن طريق الزنا، أو الخمر أو غيرها من الم لذات المحرمة، فهذه قد تغري الإنسان، وتعجبه، إلا أنه مع كثرة مقداره، ولذاذة متناوله، وقرب وجدانه، سبب للحرمان من السعادات الباقية الأبدية السرمدية التي إليها الإشارة بقوله: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦]، وإذا كان الأمر كذلك فالخبيث -ولو أعجبك كثرته- يمتنع أن يكون مساوياً للطيب الذي أعظمه: معرفة الله ومحبه، وطاعته، فتلك هي -والله- الحياة الطيبة التي وعد بها ﷺ من استقام على أمره، بأن يطيب عيشه في الدنيا والبرزخ والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿ [النحل: ٩٧] هؤلاء هم الذين طابت أقوالهم وأفعالهم وحياتهم، فطاب
مئاتهم ورجوعهم إلى الله، كما قال ﷺ: ﴿ الَّذِينَ نُوقِفُهُمُ الْمَلَكَةَ طَيِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٢]
نسأل الله الكريم المنان من فضله الواسع العظيم.

ولعظيم موقع هذه القاعدة وما دلّت عليه، فإن التأمل للقرآن يجد عجبًا من
كثرة التأكيد على العمل بما دلّت عليه هذه القاعدة! ومن ذلك:

١- التأكيد على ضرورة العناية بالمكاسب الطيبة، ولم يستثن الله أحدًا من عباده
المؤمنين في الحث على هذا الأمر، بالإضافة إلى العمومات الآمرة بطيب المكسب،
كقوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨] إلا أن الله تعالى خص الرسل عليهم الصلاة
والسلام -الذين كانوا أطيب الناس حسًا ومعنى- بخطاب خاص في هذه المسألة
بالذات، فقال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وكلُّ هذا يؤكد ضرورة العناية بهذا الباب العظيم الذي هو طيب المكسب، ولقد
كان سلفنا الصالح شديدي العناية بهذه المسألة، ولربما سافر أحدهم مئات الأميال،
وتغرب عن وطنه، كل ذلك بحثًا عن لقمة طيبة حلال، حتى قال سفيان الثوري: إن
طلب الحلال هو عمل الأبطال.

ولقد كان من أعظم أسباب العناية بطيب المكسب عند أسلافنا أمور، من
أهمها:

أ- أن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا كما قال النبي ﷺ.

ب- ومنها: أن هذه المكاسب مما تنبت عليها الأجساد.

ولهذا فإن مما يُوصَى به: كثرة الصدقة كلما كثر المال، أو قويت فيه الشبهة؛ كما أوصى بذلك النبي ﷺ من يتعاطون التجارة، حيث يقول ﷺ - فيما رواه أهل السنن - من حديث قيس بن أبي غرزة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ - ونحن نسعى السهاسة - فقال: «يا معشر التجار! إن الشيطان والإثم يحضران البيع فشوبوا بيعكم بالصدقة» قال الترمذي: حديث حسن صحيح ^(١).

وإذا كان هذا شأن المكسب الطيب - فعلى الناصح لنفسه أن يجتهد في تحقيقه، والحذر من أي شيء يكدره، خصوصاً وقد اتسعت على الناس اليوم أنواع من المكاسب المحرمة فضلاً عن المختلطة والمشتبهة، كبعض الشركات الموجودة في أسواق الأسهم المحلية والعالمية.

٢- ومن هدايات هذه القاعدة القرآنية العظيمة: أنه لا يصح - أبداً - أن نجعل الكثرة مقياساً لطيب شيء ما، وصحته وسلامته من المحاذير الشرعية، وهذا أمرٌ يصدق على الأقوال والأفعال والمعتقدات، بل يجب أن نحكم على الأشياء بكيفيتها وصفتها وبمدى موافقتها للشرع المطهر.

تأمل - مثلاً - في قلة أتباع الرسل وكثرة أعدائهم: ﴿وَأَنْ تَطْعَمَ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وهذا مما يؤكد على الداعية أهمية العناية بالمنهج وسلامته، وأن لا يكون ذلك على حساب كثرة الأتباع! وهذا موضعٌ لا يفقهه إلا من وفقه الله تعالى، ولا يصبر عليه إلا من أعانه الله وسدده؛ لأن في الكثرة فتنة، وفي القلة ابتلاء.

وإليك مثلاً ثالثاً يجلي لك معنى هذه القاعدة بوضوح، وهو أن تتأمل في كثرة المقالات والعقائد الباطلة وكيف أن المعتقد الحق هو شيء واحد فقط، قال ﷺ:

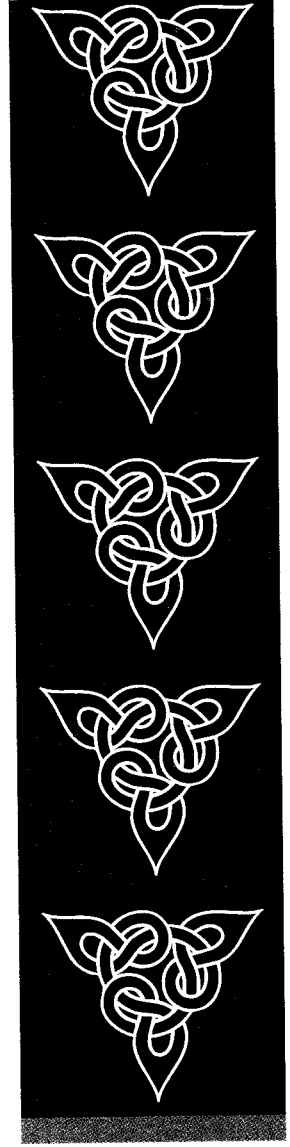
(١) الترمذي ح (١٢٠٨) وقال: حسن صحيح.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾
 [الأنعام: ١٥٣].

ووالله ما في الخبيث من لذة إلا وفي الطيب مثلها وأحسن، مع أمنٍ من سوء العاقبة في الدنيا والآخرة، والعاقلة حين يتحرر من هواه، ويمتلئ قلبه من التقوى ومراقبة الله تعالى؛ فإنه لا يختار إلا الطيب، بل إن نفسه ستعاف الخبيث، ولو كان ذلك على حساب فوات لذات، ولحوق مشقات؛ فينتهي الأمر إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، مسلماً نفسه بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ أَنْقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَنِيلاً﴾ [النساء: ٧٧].

اللهم جعلنا من الذين طابت أقوالهم وأفعالهم، فطاب منقلبهم ومآلهم.

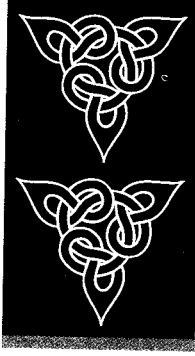




قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة السابعة عشر

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾

هذه قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة في أبواب المعاملات، والعلاقات بين الناس.

وهذه القاعدة القرآنية جاءت في سياق قصة موسى مع صاحب مدين - في سورة القصص -، والذي كان عاجزاً عن طلب الماء فخرجت ابنتاه للسقيا، بيد أنهما تأخرتا انتظاراً لصدور الناس عن البئر، إلا أن مروءة موسى وشهامته حملته على أن يبادر - من غير أن ينتظر سؤالهما - بقضاء حاجتهما، والسقي لهما، فأعجب هذا الفعل الفتاتين، فذكرتاه لوالدهما المقعد عن العمل، فأرسل في طلبه، فلما جاء وحدثه بخبره، قالت له إحداهما - وهي العاملة بعجز والدهما عن القيام بمهام الرجال -: ﴿يَتَأَبَّتْ أَسْتَجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ تعليل لطلبها، فالقوة: في العمل، والأمانة: في أدائه على الوجه المطلوب.

وهذا التنصيص على هذين الوصفين هو من وفور عقل هذه المرأة التي رأت اكتمال هاتين الصفتين في موسى، فإنهما من المطالب التي يتفق عليها عقلاء البشر في

جميع الأمم والشرائع.

وقد أخذ العلماء - رحمهم الله - هذه الآية مأخذ القاعدة فيمن يلي أمرًا من الأمور، وأن الأحق به هو من توفرت فيه هاتان الصفتان، وكلما كانت المهمة والمسؤولية أعظم، كان التشدد في تحقق هاتين الصفتين أكثر وأكبر.

إن من تأمل القرآن الكريم وجد تلازمًا ظاهرًا وبيّنًا بين هاتين الصفتين (القوة والأمانة) في عدة مواضع، ومن ذلك:

* ما وصف الله به مبلغ الوحي والرسالات إلى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: جبريل، في قوله ﷺ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١] فانظر كم وصفًا وصف الله به هذا الرسول الملكي الكريم! ومن ذلك وصفه بالقوة والأمانة، وهما من أعظم عناصر النجاح والكمال فيمن يؤدي عملاً من الأعمال.

* الموضع الثاني هو قول يوسف - عليه الصلاة والسلام - للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

«أي: حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصًا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه»^(١).

ولا يخفى أن إدارة أموال مجموعة من الأيتام تحتاج إلى هاتين الصفتين، فكيف بإدارة أموال تتعلق بجماعة؟! أم كيف بإدارة أموال دولة بأكملها؟! ولهذا أبرز يوسف

(١) تفسير السعدي: (٤٠٠).

-عليه الصلاة والسلام- هاتين الصفتين، ومدح نفسه بهما، لا لذات المدح، بل لأن الوضع الاقتصادي في مصر آنذاك يقتضي مبادرة في ضبط إدارة أموالها، خصوصاً وقد كانت مقبلة -بحسب الرؤيا- على سنين عجاف مجدبات، تحتاج إلى حكمة وتعقل في الصرف.

* أما الموضوع الثالث فهو:

ما جاء في قصة سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وهو يعرض على من كان عنده أمر إحضار عرش بلقيس ملكة سبأ: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [٣٨] قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ [النمل: ٣٨-٣٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقاً على هذه المواضع الثلاثة بكلام نفيس، أنقل منه ما يناسب المقام:

«وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب؛ فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾... والقوة في كل ولاية بحسبها: فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها، فإن الحرب خدعة، وإلى القدرة على أنواع القتال: من رمي وطعن وضرب وركوب وكر وفر... والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام.

والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمناً قليلاً، وترك خشية الناس، وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل من حكم على الناس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُونِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] إلى أن قال:

«اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم أشكوا إليك جلد الفاجر وعجز الثقة، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها، فتقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أميناً، كما سئل الإمام أحمد: عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف مع أيهما يُغزى؟ فقال: أما الفاجر القوي فتوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القوي الفاجر...».

ثم قال: مبيناً منهج النبي ﷺ ومنهج في هذا الباب:

«ولذلك كان النبي ﷺ يستعمل الرجل لمصلحة مع أنه قد كان يكون مع الأمير من هو أفضل منه في العلم والإيمان».

ثم لخص كلامه الطويل في تعليقه على هذه الآية بقوله: «والمهم - في هذا الباب - معرفة الأصلح، وذلك إنما يتم بمعرفة مقصود الولاية، ومعرفة طريق المقصود، فإذا عرفت المقاصد والوسائل تم الأمر»^(١).

وكان: قد قال كلمة تكتب بباء الذهب، وهي:

«أن المؤدي للأمانة - مع مخالفة هواه - يثبتته الله، فيحفظه في أهله وماله بعده، والمطيع لهواه يعاقبه الله بتقيض قصده، فيذل أهله، ويذهب ماله، وفي ذلك الحكاية المشهورة، أن بعض خلفاء بني العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك؟ فقال: أدركت عمر بن عبد العزيز، فقيل له: يا أمير المؤمنين أفقرت أفواه بنيك من هذا المال،

(١) ينظر: السياسة الشرعية - مع تعليق شيخنا العثيمين عليها ص (٤٢-٤٣) باختصار وتصرف.

وتركتهم فقراء لا شيء لهم - وكان في مرض موته - فقال: أدخلوهم علي، فأدخلوهم، وهم بضعة عشر ذكراً، ليس فيهم بالغ، فلما رأهم ذرفت عيناه، ثم قال: يا بَنِي! والله ما منعتكم حقاً هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني!

قال هذا العالم -الذي يحكي هذه القصة-: فلقد رأيت بعض بنيه، حمل على مائة فرس في سبيل الله، يعني أعطها لمن يغزو عليها.

قلت (والكلام لابن تيمية): هذا وقد كان خليفة المسلمين، من أقصى المشرق بلاد الترك، إلى أقصى المغرب، بلاد الأندلس وغيرها، ومن جزيرة قبرص، وثور الشام والعواصم، إلى أقصى اليمن، وإنما أخذ كل واحدٍ من أولاده، من تركته شيئاً يسيراً، يقال: أقل من عشرين درهماً! - قال - أي هذا العالم الذي يحدث بهذه القصة ويعظ ذلك الخليفة العباسي -: وحضرتُ بعض الخلفاء، وقد اقتسم تركته بنوه، فأخذ كل واحدٍ منهم ستمائة ألف دينار، ولقد رأيتُ بعضهم، يتكفف الناس!!^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وفي هذا الباب من الحكايات والوقائع المشاهدة في الزمان والمسموعة عما قبله، ما فيه عبرة لكل ذي لب!»^(٢).

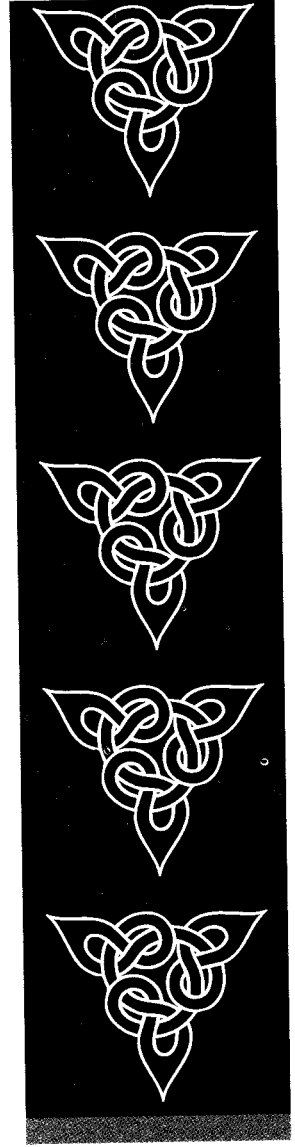
ومن أراد أن يتوسع في فهم معاني هذه القاعدة القرآنية العظيمة، فليراجع ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية». اللهم ارزقنا فهم كتابك والعمل به، واجعلنا ممن يقوم بحق ما ولاه الله عليه.



(١) يتكفف الناس: أي يسألهم بكفه.

(٢) ينظر: السياسة الشرعية - مع تعليق شيخنا العثيمين عليها - ص: (٢٩-٣١)، وسيرة عمر

ابن عبد العزيز: (٣٣٨).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الثامنة عشر

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾

تأتي هذه القاعدة القرآنية المحكمة لتبين سنة من سنن الله تعالى في تعامل الخلق مع بعضهم، وقد جاءت هذه القاعدة القرآنية في سياق آيات في سورة فاطر، يحسن ذكرها ليتضح معناها، يقول تعالى عن طائفة من المعاندين^(١): ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَنَجْجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنَجْجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢ - ٤٣].

ومعنى هذه القاعدة باختصار:

أن هؤلاء الكفار المعاندين أقسموا «بالله أشد الأيمان: لئن جاءهم رسول من عند الله يخوفهم عقاب الله ليكونن أكثر استقامة واتباعاً للحق من اليهود والنصارى وغيرهم، فلما جاءهم محمد ﷺ ما زادهم ذلك إلا بُعداً عن الحق ونفوراً منه، وليس إقسامهم لقصد حسن وطلباً للحق، وإنما هو استكباراً في الأرض على الخلق، يريدون به المكر السيئ، والخداع والباطل، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فهل ينتظر

(١) ينظر في بيان صفاتهم: التحرير والتنوير (٧٣/١٢).

المستكبرون الماكرون إلا العذاب الذي نزل بأمثالهم الذين سبقوهم، فلن تجد لطريقة الله تديلاً ولا تحويلاً فلا يستطيع أحد أن يُبدّل، ولا أن يُحوّل العذاب عن نفسه أو غيره»^(١).

وهذا المعنى الذي قررته هذه القاعدة، جاء معناه في آيات آخر من كتاب الله تعالى، كقوله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ بل قد قرر الله تعالى أن هذا الأسلوب - وهو المكر - إنما هو منهجٌ من مناهج أعداء الرسل مع الأنبياء والرسل، فقال ﷻ: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢]، وقال ﷻ: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وأما الأمثلة الفردية التي تبين معاني هذه القاعدة، فكثيرة في كتاب الله تعالى، لكن حسبنا أن نشير إلى بعضها، فمن ذلك:

١- ما قصه الله تعالى عن مكر إخوة يوسف بأخيهم، فماذا كانت العاقبة؟ يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] صحيح أن إخوته تابوا، لكن بعد أن آذوا أباهم وأخاهم بأنواع من الأذى، فعاد مكرهم على غير مرادهم، وفاز بالعاقبة الحسنة، والمآل الحميد من صبر وعفا وحلم.

٢- قوله الله تعالى عمن أرادوا كيداً بنبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]!

٣- ولما تحايل المشركون بأنواع الحيل لأذية نبينا ﷺ قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ

(١) التفسير الميسر (تفسير المجمع).

الْمَكْرِينِ ﴿ [الأنفال: ٣٠]، فكانت العاقبة له عليه الصلاة والسلام.

وأما في السنة، وفي التاريخ فكثيرٌ جدًّا، ومن قرأ التاريخ قراءة المتدبر المتأمل؛ وجد من ذلك عبرًا، وأدرك معنى هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

ولهذا لما كان المكر برسول الله ﷺ كثيرًا، والكيِّدُ له عظيمًا؛ سلاه الله بأية عظيمة، تبعث على الثقة والطمأنينة، والأمل والراحة، ليس له ﷺ وحده، بل لكل داعية يسير على نهجه ممن قد يشعر بكيد الكائدين ومكر الماكرين، فقال ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفْ فِي صَبْرِكَ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧ - ١٢٨].

«فالله حافظه من المكر والكيِّد، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص في دعوته، لا يتبغي من ورائها شيئًا لنفسه، ولقد يقع به الأذى لامتحان صبره، ويبطئ عليه النصر لابتلاء ثقته بربه، ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون»^(١)، والمهم أن يحفظ سياج التقوى، ولا يقطع إحسانه إلى الخلق، ثم ليبشر بعد ذلك ببطلان كيد الماكرين.

ولعلك تلاحظ في هذه القاعدة القرآنية: أن المكر أضيف إلى السوء ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، وهذا يوضح أن المكر من حيث هو لا يُذم ولا يُمدح إلا بالنظر في عاقبته، فإن كان المكر لغاية صحيحة فهو ممدوح، وإلا فلا.

ومن بلاغة البيان القرآني: التعبير بالحقيق مع كلمة المكر، في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ﴾ فالعرب تقول: حاق به المكروه يحيق به حيقًا، إذا نزل به وأحاط به، ولا

(١) في ظلال القرآن: (٤/٤٩٩).

يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة، فلا تقول: حاق به الخير، بمعنى: أحاط به (١).

ولعلك تتأمل في الحكمة من اتباع هذه القاعدة القرآنية بقوله ﷻ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ليتبين أن هذه القاعدة القرآنية مطردة، وفي ذلك من التحذير من مكر السوء ما فيه.

وإذا تقرر أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فإنه يدخل في هذه الآية كل مكر سيء، يقول العلامة ابن عاشور مبيِّنًا علة اطراد وثبات هذه القاعدة ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾: «لأن أمثال هذه المعاملات الضارة تؤول إلى ارتفاع ثقة الناس بعضهم ببعض، والله بنى نظام هذا العالم على تعاون الناس بعضهم مع بعض؛ لأن الإنسان مدني بالطبع، فإذا لم يأمن أفراد الإنسان بعضهم بعضًا تنكر بعضهم لبعض، وتبادروا الإضرار والإهلاك؛ ليفوز كل واحد بكيد الآخر قبل أن يقع فيه؛ فيفضي ذلك إلى فساد كبير في العالم، والله لا يحب الفساد، ولا ضر عبيده إلا حيث تأذن شرّاعه بشيء».

وكم في هذا العالم من نواميس مغفول عنها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسْكَادَ﴾، وفي كتاب ابن المبارك في «الزهد» بسنده عن الزهري بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمكر، ولا تُعن ماكرًا؛ فإن الله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾».

ومن كلام العرب: من حفر لأخيه جبا، وقع فيه منكبا!

فكم انهالت من خلال هذه الآية من آداب عمرانية، ومعجزات قرآنية، ومعجزات نبوية خفية (٢).

وإذا أردنا أن ننظر في آثار هذه القاعدة القرآنية على أهلها في الدنيا والآخرة،

(١) ينظر: أضواء البيان (٤/١٥٣).

(٢) التحرير والتنوير: (٢٢/٣٣٥-٣٣٦).

فلنتأمل هذه القصص التي ذكرها ربنا في كتابه عن أهل المكر بأوليائه والدعاة إلى سبيله، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره عن جملة من الأنبياء، نجد أمثلة أخرى لأتباعهم، نجاهم الله فيها من مكر الأعداء، ومن ذلك:

- فرعون! كم كاد لبني إسرائيل لما آمنوا به! ومن جهلتهم ذلك الرجل الذي عرف بـ «مؤمن آل فرعون» الذي قصّ الله خبره في سورة غافر! تأمل قوله تعالى:

﴿ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّامِكْرًا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [غافر: ٤٥ - ٤٦] فنجى الله المؤمن، وأما فرعون وجنوده فهم الآن - بل منذ ماتوا - وهم يعذبون، وإلى يوم القيامة.

- وهذا الإمام البخاري رحمته الله - صاحب «الصحیح» -، كان كثير من أصحابه يقولون له: إن بعض الناس يقع فيك! فيقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء ٧٦]، ويتلو أيضًا: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، فقال له أحد أصحابه: كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك؟! فقال: «قال النبي ﷺ: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»^(١)، وقال ﷺ: «من دعا على ظالمه، فقد انتصر»^(٢)»^(٣).

- وقد ذكر ابن القيم رحمته الله أمثلة تطبيقية وعملية من واقع الناس لهذه القاعدة في سياق حديثه عن المتحايلين على الأحكام الشرعية، كالمتحايلين على أكل الربا ببعض المعاملات، أو يحتالون على بعض الأنكحة، وأمثال هؤلاء، فقال:

(١) البخاري ح (٣٥٨١)، ومسلم ح (١٠٦١).

(٢) الترمذي (٥٥٤/٥)، ولفظه: «من دعا على من ظلمه...»، قال الترمذي: هذا حديث غريب.

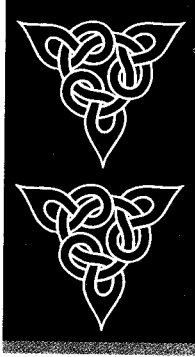
(٣) سير أعلام النبلاء: (٤٥٥/٢٣).

«فالمحتال بالباطل مُعَامَلٌ بنقيض قصده شرعاً وقدرًا، وقد شاهد الناس عياناً أنه من عاش بالمكر مات بالفقر؛ ولهذا عاقب الله ﷻ من احتال على إسقاط نصيب المساكين وقت الجداد بحرمانهم الثمرة كلها^(١)، وعاقب من احتال على الصيد المحرم بأن مسخهم قرده وخنازير، وعاقب من احتال على أكل أموال الناس بالربا بأن يمحق ماله، كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الضَّكَاةَ﴾ فلا بد أن يمحق مال المرابي ولو بلغ ما بلغ، وأصل هذا: أن الله سبحانه جعل عقوبات أصحاب الجرائم بضد ما قصدوا له بتلك الجرائم،... وهذا بابٌ واسعٌ جدًا عظيمُ النفع، فمن تدبره يجده متضمنًا لمعاقبة الرب سبحانه من خرج عن طاعته؛ بأن يعكس عليه مقصوده شرعاً وقدرًا، دنيًا وأخرى، وقد اطردت سنته الكونية سبحانه في عبادته بأن: من مكر بالباطل مُكْرَبه، ومن احتال احتيل عليه، ومن خادع غيره خُدِعَ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْتَفِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، فلا تجد ماكرًا إلا وهو مَكْرُوبٌ به، ولا مخادعًا إلا وهو مخدوع ولا محتالًا إلا وهو محتال عليه^(٢).



(١) يشير بذلك إلى قصة أصحاب الجنة في سورة القلم.

(٢) إغاثة اللفهان: (١/ ٣٥٨).



القاعدة

التاسعة

عشر

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾

هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب التعامل بين الخلق، الذين لا تخلو حياة كثير منهم من بغي وعدوان، سواء على النفس أو على ما دونها.

وهذه القاعدة القرآنية العظيمة جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِمُ الَّذِينَ آمَنُوا كُنْبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنَ اعْتَدَىٰ بِعَدَاةٍ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى - مبيِّنًا هذه القاعدة العظيمة في باب الجنایات - : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ولنا

مع هذه القاعدة القرآنية المحكمة وقفات:

الوقفة الأولى:

إن من تأمل في واقع بلاد الدنيا عمومًا - مسلمها وكافرها - فسيجد قلة القتل في البلاد التي يُقتل فيها القاتل - كما أشار إلى ذلك العلامة الشنقيطي، وعلل ذلك بقوله: - «لأن القصاص رادع عن جريمة القتل؛ كما ذكره الله في الآية المذكورة آنفًا، وما يزعمه أعداء الإسلام من أن القصاص غير مطابق للحكمة؛ لأن فيه إقلال عدد

المجتمع بقتل إنسان ثان بعد أن مات الأول، وأنه ينبغي أن يعاقب بغير القتل فيحبس، وقد يولد له في الحبس فيزيد المجتمع كله كلاماً ساقط، عارٍ من الحكمة؛ لأن الحبس لا يردع الناس عن القتل، فإذا لم تكن العقوبة رادعةً فإن السفهاء يكثر منهم القتل، فيتضاعف نقص المجتمع بكثرة القتل»^(١).

الوقفة الثانية:

مع قوله ﷺ - في هذه القاعدة القرآنية المحكمة - ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾: ذلك أن «الحياة أعز شيء على الإنسان في الجبلية، فلا تعادل عقوبة القتل في الردع والانزجار، ومن حكمة ذلك: تطمين أولياء القتلى بأن القضاء ينتقم لهم ممن اعتدى على قتلهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] أي: لئلا يتصدى أولياء القتيل للانتقام من قاتل مولاهم بأنفسهم؛ لأن ذلك يفضي إلى صورة الحرب بين رهطين فيكثر فيه إتلاف الأنفس»^(٢).

الوقفة الثالثة:

مع تنكير كلمة (حياة) في هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾: فهذا التنكير «للتعظيم، أي: في القصاص حياة لنفوسكم؛ فإن فيه ارتداع الناس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنه يسلم من الموت لأقدم على القتل مستخفاً بالعقوبات كما قال سعد بن ناشب لما أصاب دمًا وهرب فعاقبه أمير البصرة بهدم داره بها:

(١) أضواء البيان: (٣/ ٣٢).

(٢) التحرير والتنوير: (٢/ ١٩٢).

سَأغْسَلُ عَنِي الْعَارَ بِالسِّيفِ جَالِبًا عَلَيَّ قِضَاءَ اللَّهِ مَا كَانَ جَالِبًا
وَأَذْهَلَ عَن دَارِي، وَأَجْعَلُ هَدْمَهَا لِعِرْضِي مِّن بَاقِي الْمَذْمَةِ حَاجِبًا
وَيَصْغُرُ فِي عَيْنِي تِلَادِي إِذَا انْتَشَت يَمِينِي بِإِدْرَاكِ الَّذِي كُنْتُ طَالِبًا

ولو ترك الأمر للأخذ بالثأر - كما كان عليه في الجاهلية - لأفرطوا في القتل وتسلسل الأمر كما تقدم، فكان في مشروعية القصاص حياة عظيمة من الجانبين»^(١).

الوقف الرابع:

هي مع ختم هذه القاعدة بقوله تعالى: ﴿يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ﴾ ففي ذلك «تنبيه على التأمل في حكمة القصاص؛ ففي توجيه النداء إلى أصحاب العقول إشارة إلى أن حكمة القصاص لا يدركها إلا أهل النظر الصحيح؛ إذ هو في بادئ الرأي كأنه عقوبة بمثل الجناية؛ لأن في القصاص رزية ثانية لكنه عند التأمل هو حياة لا رزية؛ للوجهين المتقدمين.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إكمالاً للعلة، أي لأجل أن تتقوا، فلا تتجاوزوا في أخذ الثأر حد العدل والإنصاف»^(٢).

الوقف الخامس:

أن هذه القاعدة العظيمة فاقت ما كان سائرًا مسرى المثل عند بعض المتأخرين^(٣)، وهو قولهم: (القتل أنفى للقتل).

وقد اشتغل جمع من البلاغيين في تحليل هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَكُمْ فِي

(١) التحرير والتنوير: (٢/٢٠٠).

(٢) التحرير والتنوير: (٢/٢٠٠) بتصريف واختصار.

(٣) ينظر في بيان كون هذا المثل منقولاً ومترجماً وليس عربيًا أصالة: وحي القلم (٣/٤٠٧ -

أَلْقِصَاصِ حَيَوَةٌ ﴿﴾ للبحث عن مواطن إيجازها المتقن، ومقارنتها بالمثل المشهور الذي تكرر وتردد على السنة كثير من الأدباء، والكتّاب والصحفيين، ذلكم هو قول العرب: (القتل أنفى للقتل) فزعم بعضهم أنه أفصح من هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها ﴿﴾ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوَةٌ ﴿﴾، وقبل بيان المقارنة يحسن إيراد كلمة محررة وممتينة لأبي بكر الباقلائي؛ حيث يقول كلاماً، هو كالقاعدة بين حال من يريد أن يقارن بين كلام الله وكلام خلقه، يقول: «فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مُرْمَدٍ^(١) فصاحة القرآن، وموقع بلاغته وعجيب براعته فما عليك منه! إنها يخبر عن نفسه، ويدل على عجزه، ويبين عن جهله، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله»!^(٢).

وبالمقارنة بين ما نحن بصدده من هذه القاعدة القرآنية: ﴿﴾ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوَةٌ ﴿﴾ وبين ذلك المثل: «القتل أنفى للقتل» ظهر ما يلي:

(١) إن حروف القاعدة القرآنية: ﴿﴾ فِي الْقِصَاصِ حَيَوَةٌ ﴿﴾ أقل عددًا من عبارة العرب: «القتل أنفى للقتل».

(٢) القاعدة القرآنية ذكرت «القصاص» ولم تقل القتل، فشملت كل ما تُقَابَلُ به الجناية على الأنفس فما دون الأنفس من عقوبة مُمَّاثِلَةٌ، وحددت الأمر بأن يكون عقوبة وجزاء لخطأ سابق، لا مجرد عدوان، وهذا عين العدل.

أما عبارة العرب فقد ذكرت القتل فقط، ولم تقيده بأن يكون عقوبة، ولم تُشِرْ إلى مبدأ العدل، فهي قاصرة وناقصة.

(٣) القاعدة القرآنية ﴿﴾ فِي الْقِصَاصِ حَيَوَةٌ ﴿﴾ نصّت على ثبوت الحياة بتقرير حكم

(١) أي من في عينيه رمذ، إشارة إلى عماء عن إبطار الحقيقة.

(٢) نقلها الرفاعي في: وحي القلم (٣/٣٩٩)، وينظر: أعلام النبوة للهاوردي (١٠٠).

القصاص، أما المثل العربي فذكر نفي القتل، وهو لا يُدُلُّ على المعنى الذي يدُلُّ عليه لفظ «حياة».

(٤) القاعدة القرآنية خالية من عيب التكرار، بخلاف المثل العربي الذي تكررت فيه كلمة القتل مرتين في جملة قصيرة.

(٥) القاعدة القرآنية صريحة في دلالتها على معانيها، مستغنية بكلماتها عن تقدير محذوفات، بخلاف عبارة «العرب» فهي تحتاج إلى عدّة تقديراتٍ حتى يستقيم معناها، إذ لا بُدَّ فيها من ثلاثة تقديرات، وهي كما يلي: «القتل» قصاصًا «أنفى» من تركه «لِلْقَتْلِ» عمدًا وعدوانًا.

(٦) في القاعدة القرآنية سلاسة؛ لاشتغالها على حروف متلائمة سهلة التتابع في النطق، أمّا العبارة «العربية» ففيها تكرير حرف القاف المتحرّك بين ساكنين، وفي هذا ثقل على الناطق^(١).

وبعد: فإن لهذه المقارنة البلاغية الموجزة قصةً أختم بها حديثي في هذه القاعدة القرآنية، وهي أن العلامة محمود شاكر رَحِمَهُ اللهُ قرأ مقالةً لأحد الصحفيين يقرر فيها أن عبارة «القتل أنفى للقتل» أبلغ من هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾، فضايق صدر الشيخ محمود شاكر جدًّا، ووصف هذه الكلمة بأنها كافرة، فكتب -وقتها- إلى الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي رَحِمَهُ اللهُ يستحثه على الجواب عن هذه الدعوى المزيفة، يقول الشيخ محمود شاكر رَحِمَهُ اللهُ: «على الدم في رأسي حين رأيت الكاتب يلج في تفضيل قول العرب: «القتل أنفى للقتل» على قول الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فذكرت

(١) ينظر في بيان أوجه إعجاز هذه الآية الكريمة: وحي القلم (٣/٤٠٢ - ٤٠٩) للرافعي، والبلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها (٤٩٢) للميداني.

هذه الآية القائلة: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]... ففي عنقك أمانة المسلمين جميعًا لتكتبن في الرد على هذه الكلمة الكافرة؛ لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها؛ فإن هذه زندقة إن تركت تأخذ مأخذها في الناس؛ جعلت البر فاجرًا، وزادت الفاجر فجورًا، هم ذئاب الزندقة الأدبية التي جعلت همها أن تلغ ولوغها في البيان القرآني... إلخ كلامه.

فلما بلغ هذا الكلام الأديب الرفاعي غضب غضبة مُضْرية، وانبرى للرد على هذه الكلمة الأثمة في بضع صفحات من كتابه الرائع «وحي القلم»، لخصنا شيئًا منها فيما ذكرته آنفًا، فجزاه الله خيرًا، وغفر له، وإلى هنا ينتهي ما أردتُ بيانه حول هذه القاعدة القرآنية الكريمة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾.





القاعدة العشرون

﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾

هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب العدل والجزاء، ولتدبرها أثرٌ في فهم المؤمن لما يراه أو يقرأه في كتب التاريخ، أو الواقع من تقلبات الزمن والدهر بأهله، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، إنها القاعدة القرآنية التي دل عليها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

ولعل إيراد الآية الكاملة التي ذكرت فيها هذه القاعدة مما يجلي لنا أبرز صور الإهانة التي تنزل الإنسان من عليائه، يقول ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

فهل أدركتَ معي - وأنت تتلو هذه الآية الكريمة - أن أعلى وأبهى وأجلى صور كرامة العبد أن يوحد ربه، وأن يفرد بالعبادة، وأن يترجم ذلك بالسجود لربه، والتذلل بين يدي مولاه، وخالفه ورازقه، ومن أمر سعادته ونجاته وفلاحه بيده ﷻ، يفعل ذلك اعترافاً بحق الله، ورجاءً لفضله، وخوفاً من عقابه؟!!

وهل أدركتَ أيضاً أن غاية الهوان والذل، والسفول والضعفة أن يستنكف العبد

عن السجود لربه، أو يشرك مع خالقه إلهًا آخر؟! وتكون الجبال الصم، والشجر، والدواب البهيم، خيرًا منه حين سجدت لخالقها ومعبودها الحق؟!!

إذا تبين هذا فإن هذه القاعدة القرآنية الكريمة: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ جاءت في سياق بيان من هم الذين يستحقون العذاب؟ إنهم الذين أدلوا أنفسهم بالإشراك بربهم، فأذهم الله بالعذاب، كما قال ﷺ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ فلا يجدون حينها من يكرمهم بالنصر، أو بالشفاعة!

وتأمل كيف جاء التعبير عن هذا العذاب بقوله: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ﴾ ولم يأت بـ(ومن يعذب الله) وذلك - والله أعلم - «لأن الإهانة إذلالٌ وتحقيرٌ وخزيٌّ، وذلك قدرٌ زائدٌ على ألم العذاب، فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان»^(١).

ثم تأمل كيف جاء التعبير عن ضد ذلك بقوله: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾؛ فإن «الكرم: لفظ جامع للمحاسن والمحامد، لا يراد به مجرد الإعطاء، بل الإعطاء من تمام معناه؛ فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن، والكرم كثرة الخير ويسرته،... والشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم، قال تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]، قال ابن قتيبة: من كل جنس حسن، والقرآن قد دل على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه، وفيهم من يهينه، قال تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]»^(٢).

وإذا كان الشرك بالله هو أعظم صورة يذل بها العبد نفسه، ويدسها في دركات الهوان، فإن ثمة صورًا أخرى - وإن كانت دون الشرك - إلا أن أثرها في هوان العبد

(١) مجموع الفتاوى: (٣٦٧/١٥).

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٩٥/١٦).

وذله ظاهر بيّن: إنه ذل المعصية، وهوان العبد بسببها.

يقول ابن القيم موضعًا شيئًا من معاني هذه القاعدة القرآنية المحكمة، وهو

يتحدث عن شيء من شؤم المعاصي، وأثارها السيئة:

«ومنها: أن المعصية سببٌ لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه، قال الحسن

البصري: هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم!

وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ

مِنْ مُكْرَمٍ!﴾ وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم، أو خوفًا من شرهم،

فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه...» إلى أن قال -وهو يتحدث عن بعض عقوبات

المعاصي-:

«أن يرفع الله ﷻ مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفون به، كما هان

عليه أمر الله، واستخف به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من

الله يخافه الناس، وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته يعظم الناس حرماته! وكيف ينتهك

عبدٌ حرّمات الله ويطمع أن لا ينهك الناس حرماته؟! أم كيف يهون عليه حق الله ولا

يهونه الله على الناس؟! أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟!!

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابها

بما كسبوا، وغطى على قلوبهم، وطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم

كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره.

ولهذا قال تعالى -في آية سجود المخلوقات له-: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ

مُكْرَمٍ!﴾ فإنهم لما هان عليهم السجود له، واستخفوا به ولم يفعلوه؛ أهانهم فلم يكن

لهم من مكرم بعد أن أهانهم، ومن ذا يكرم من أهانه الله أو يهن من أكرم...ومن

عقوباتها: أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار،

فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والمتقي والمطيع... ونحوها، وتكسوه اسم الفاجر والعاصي والمخالف والمسيء...، وأمثالها.

فهذه أسماء الفسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الإيثار التي توجب غضب الديان، ودخول النيران، وعيش الخزي والهوان، وتلك أسماء توجب رضى الرحمان، ودخول الجنان، وتوجب شرف التسمي بها على سائر أنواع الإنسان، فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل ناه عنها، ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها؛ لكان في العقل أمرٌ بها ولكن لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع، ولا مقرب لمن باعد، ولا مبعد لمن قرب، ومن يهن الله فما له من مكرم، إن الله يفعل ما يشاء»^(١).

وفي كلمة ابن القيم الأنفة: «ومن ذا يُكرم من أهانه الله، أو يُهن من أكرمه» إشارة إلى معنى يفهم من هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ وهو: أن من أكرمه ربه بطاعته، والانقياد لشرعه ظاهراً وباطناً؛ فهو الأعز الأكرم، وإن خاله المنافقون أو الكفار على خلاف ذلك، كما قال من طمس الله على بصائرهم من المنافقين وأشباههم: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] إي والله.. لا يعلمون من هم أهل العزة حقاً!

ألم يقل الله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:

١٣٩]؟!

وكيف يشعر المؤمن بالهوان وسنده أعلى؟! ومنهجه أعلى؟! ودوره أعلى؟

وقدوته ﷺ أعلى وأسمى؟!!

(١) الجواب الكافي: (٣٨-٥٢) باختصار.

فهل يعي ويدرك أهل الإيمان أنهم الأعزة حقاً؛ متى ما قاموا بها أوجب الله عليهم؟

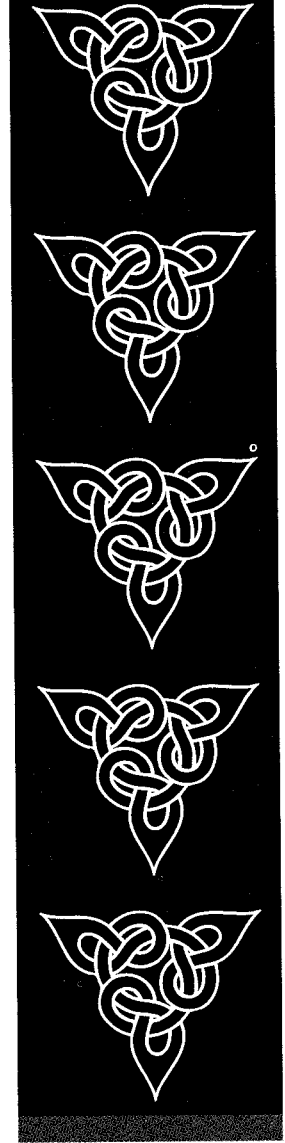
وأختم كلامي - عن هذه القاعدة القرآنية المحكمة - بكلمة رائعة لشيخ الإسلام ابن تيمية: حيث يقول:

«الكرامة في لزوم الاستقامة، والله تعالى لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاته وأوليائه ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»^(١).

أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم منهم، وأن يكرمنا وإياكم بطاعته، ولا يذلنا ويهيننا بمعصيته.



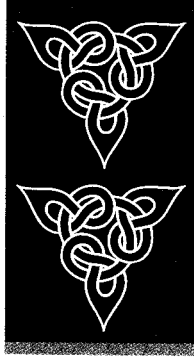
(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية (١٢).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الحادية والعشرون

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب التعامل مع الخالق ﷻ والتعامل خلقه، هي قاعدة تمثل سفينة من سفن النجاة، وركناً من أركان الحياة الاجتماعية، وهي - لمن اهتدى بهديها - علامة خير، وبرهان على سمو الهمة، ودليل على كمال العقل.

هذه القاعدة المحكمة جاءت تعقيباً على قصة جهاد طويل، وبلاء كبير في خدمة الدين، والذب عن حياضه، قام به النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، وذلك في خاتمة سورة التوبة - التي هي من آخر ما نزل عليه ﷺ - قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿[التوبة: ١١٧ - ١١٩].﴾

والرسالة التي تحملها هذه القاعدة التالية: أن هؤلاء الذين تاب الله عليهم - النبي ﷺ ومن معه، والثلاثة الذين خلفوا - هم أئمة الصادقين؛ فاقتدوا بهم.

وأنت إذا تأملت مجيء هذه القاعدة القرآنية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ
وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ بعد هذه الآيات، أدركت أن الصدق أعم من أن يختصر في
الصدق في الأقوال! بل هو الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال، التي كان يتمثلها
نبينا ﷺ في حياته كلها، قبل البعثة وبعدها.

ولما كان النبي ﷺ صادق اللهجة، عف اللسان، أميناً وفيّاً حافظاً للعهود قبل
بعثته؛ عرف بالصادق الأمين، وكان ذلك سبباً في إسلام بعض عقلاء المشركين،
الذين كان قائلهم يقول: لم يكن هذا الرجل يكذب على الناس ثم يكذب على الله!!
كثير من الناس حينما يسمع هذه القاعدة القرآنية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا
اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ لا ينصرف ذهنه إلا للصدق في الأقوال، وهذا في
الحقيقة تقصير في فهم هذه القاعدة، وإلا لو تأمل الإنسان سياقها لعلم أنها تشمل
جميع الأقوال والأفعال والأحوال! كما تقدم.

إن للصدق آثاراً حميدة، وعوائد جليلة؛ وهو دليل على رجحان العقل، وحسن
السيرة، ونقاء السريرة.

ولو لم يكن للصدق من آثار إلا سلامته من رجس الكذب، ومخالفة المروءة،
والتشبه بالمنافقين! فضلاً عما يكسبه الصدق من عزة، وشجاعة، تورثه كرامة، وعزة
نفس، وهيبة جناب، ومن تأمل في قصة الثلاثة الذين خلفوا أدرك حلاوة الصدق
ومرارة الكذب ولو بعد حين.

ومن تأمل في الآيات الواردة في مدح الصدق والثناء على أهله وجدَّ عجباً
عجاباً!

وحسبنا هنا أن نشير إلى جملة من الآثار التي دلَّ عليها القرآن للصدق وأهله في
الدنيا والآخرة:

١- فالصادق سائر على درب الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- الذين أثنى الله عليهم في غير ما آية بالصدق في الوعد والحديث.

٢- والصادق معانٍ ومنصورٌ، ويسخر الله له من يدافع عنه من حيث لا يتوقع، بل قد يكون المدافع خصماً من خصومه، تأمل في قول امرأة العزيز: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ لَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأودتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

والصادق يسير في طريق يهدي إلى الجنة، ألم يقل النبي ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»^(١)، وقد قال الله ﷻ -مبيناً صفات أهل الجنة-: ﴿الضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُسْتَعْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وأهل الصدق هم الناجون يوم العرض الأكبر على ربهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

والصادقون هم أهل مغفرة الله وما أعد لهم من الأجر والثواب العظيم، قال ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ...﴾، إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وبعد هذا؛ فإن من المحزن والمؤلم أن يرى المسلم الخرق الصارخ -في واقع المسلمين- لما دلّت عليه هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾!

(١) البخاري ح (٥٧٤٣)، ومسلم ح (٢٦٠٧) واللفظ له.

فكم هم الذين يكذبون في حديثهم؟ وكم هم الذين يخلفون مواعيدهم؟ وكم هم أولئك الذين ينتقضون عهودهم؟

أليس في المسلمين من يتعاطى الرشوة، ويخون بذلك ما أوتمن عليه من أداء وظيفته؟ أليس في المسلمين من لا يبالي بتزوير العقود، والأوراق الرسمية؟ وغير ذلك من صور التزوير؟

لقد شوّه هؤلاء - وللأسف - بأفعالهم وجه الإسلام المشرق، الذي ما قام إلا على الصدق!

وإنك لتعجب من مسلم يقرأ هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾! ومع ذلك يمارس كثير من المسلمين الكذب مع وفرة النصوص الشرعية التي تأمر بالصدق وتنهى عن الكذب!

ليت هؤلاء يتأملون هذا الموقف، الذي حدّث به أبو سفيان رضي الله عنه قبل أن يسلم، حينما كان في أرض الشام، إذ جيء بكتاب من رسول الله ﷺ إلى هرقل، فقال هرقل: هل ها هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم، قال: فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبًا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه، فقال له: قل لهم: إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبتني فكذبوه، فقال أبو سفيان: وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر علي الكذب لكذبت^(١).

فتأمل - أيها المؤمن - كيف حاذر هذا الرجل الذي كان مشركًا يومئذ من الكذب؛ لأنه يراه عارًا وسببًا لا تليق بالرجل الذي يعرف جلاله الصدق، وقبح الكذب؟! إنها

(١) البخاري ح (٧)، ومسلم ح (٧٤).

مروءة العربي، الذي كان يعد الكذب من أقبح الأخلاق!

ولهذا لما سئل ابن معين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الإمام الشافعي قال: دعنا، والله لو كان الكذب

حلالاً لمنعته مروءته أن يكذب! ^(١).

وجاء في ترجمة الحافظ إسحاق بن الحسن الحربي (ت: ٢٨٤) أن الإمام إبراهيم

الحربي سئل عنه، فقال: ثقة، ولو أن الكذب حلال ما كذب إسحاق! ^(٢).

وكان إبراهيم الحربي (ت: ٢٨٥) يقول في الإمام المحدث هارون الجمال: لو أن

الكذب حلال لتركه هارون تنزهاً ^(٣).

ولله درُّ الإمام الأوزاعي حيث قال: والله لو نادى منادٍ من السماء أن الكذب

حلال ما كذبت!

فأين من هذا أولئك الذين استمروا الكذب؟! بل وامتهنوه، ولم يكتفوا بهذا

بل روجوا شيئاً من عادات الكفار في الكذب، كما هو الحال فيما يسمى بكذبة إبريل!

ويزعم بعضهم أن تلك كذبة بيضاء! وما علموا أن الكذب كله أسود! إلا ما استثناه

الشرع المطهر.

ويقال: لو لم يكن من خسارة يجنيها هؤلاء الذين يكذبون إلا أنهم يتخلفون

بكذبهم هذا عن ركب المؤمنين الصادقين، الذين عناهم الله بهذه القاعدة القرآنية

المحكمة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ لكفتهم رادعاً.

ما أحرانا معشر الآباء والمرين، أن نربي أجيالنا على هذا الخلق العظيم، وعلى

كراهة الكذب، وأن نكون لهم قدوات حية يرونها بأعينهم.

(١) لسان الميزان: (٥/٤١٦).

(٢) تاريخ بغداد: (٦/٣٨٢).

(٣) تاريخ بغداد: (١٤/٢٢) وفي النص خللٌ صُحح من تذكرة الحفاظ: (٢/٤٧٨).

يقول الأستاذ الأديب الكبير محمد كرد علي:

«لو عَمَدنا إلى الصدق نجعله شعارنا الباطنَ والظاهر في عامة أحوالنا؛ لوفرنا على أنفسنا وعلى من يحتفون بنا وعلى القائمين بالأمر فينا أوقاتاً وأموالاً ولغوّاً وباطلاً، ولعشنا وأبناءنا سعداء لا نقلق ونرَوِّع، ممتعين بما نجني، مباركاً لنا فيما نأخذ ونعطي، ولعشنا في ظل الشرف، وتذوقنا معنى الإنسانية، ونَعِمْنَا بالقناعة، وعَمَّنا الرضى»^(١).
انتهى، والحمد لله رب العالمين.



(١) أقوالنا وأفعالنا (قولنا في الصدق).



القاعدة

الثانية

والعشرون

﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب التعامل مع الخالق ﷻ والتعامل مع خلقه، هي قاعدة وملاذ لمن تواجَه أعمالهم بعدم التقدير.

وهذه القاعدة جاءت في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام، وذلك حين دخل عليه إخوته فقالوا: ﴿يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَيْ نَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٨٨-٩٠]، ما هي التقوى؟! وما هو الصبر؟

ما أكثر ما نحفظ تعريف التقوى، بل قد يحفظ بعضنا عدة تعاريف لها وللصبر، ويحفظ تقسيات الصبر، ثم يفشل أحدنا في أول اختبار الصبر، أو يقع منه تقصير ظاهر في تطبيق هذه المعاني الشرعية كما ينبغي عند وجود المتقضي لها. ولست أعني بذلك العصمة من الذنب، فذلك غير مراد قطعاً، وإنما أقصد

أننا نخفق أحيانًا -إلا من رحم الله- في تحقيق التقوى أو الصبر إذا جد الجد، وجاء موجبها.

كلنا يحفظ أن التقوى هي فعل أو امر الله، واجتناب نواهيه.

وكلنا يدرك أن ذلك يحتاج إلى صبر ومصابرة، وحبس للنفس على مراد الله ورسوله، ولكن الشأن في النجاح في تطبيق هذين المعنيين العظيمين في أوانهما.

ولنا أن نتساءل هنا عن سر الجمع بين التقوى والصبر في هذه القاعدة القرآنية

المحكمة: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾؟

والجواب: أن ذلك -والله أعلم- لأن أثر التقوى في فعل المأمور، وأما الصبر

فأثره في الأغلب في ترك المنهي^(١).

* من تطبيقات هذه القاعدة:

إن لهذه القاعدة القرآنية الجليلة تطبيقات كثيرة في حياة المؤمن، بل وفيما يقرأه

المسلم في كتاب ربه، ومن ذلك:

١ - ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -تعليقًا على هذه القاعدة في سورة يوسف

عليه الصلاة والسلام:-

«ثم إن يوسف ابتلي بعد أن ظلمَ بمن يدعوهُ إلى الفاحشة، ويرأوده عليها،

ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك، فاستعصم واختار السجن على الفاحشة،

وآثر عذاب الدنيا على سخط الله، فكان مظلومًا من جهة من أحبه لهواه، وغرضه

الفاسد...»، ثم تكلم على محنته مع إخوته، وكيف أنه تعرض لنوعين من الأذى

فقابلهما بالتقوى والصبر:

(١) جامع الرسائل لابن تيمية: (١/٣٨).

أما الأذى الأول: فهو ظلم إخوته له، الذين أخرجوه من انطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير اختياره.

وأما الأذى الثاني: فهو ما تعرض له من ظلم امرأة العزيز، التي ألجأته إلى أن اختار أن يكون محبوبًا مسجونًا باختياره.

ثم فرق الشيخ: بين صبره على أذى إخوته، وصبره على أذى امرأة العزيز، وقرر أن صبره على الأذى الذي لحقه من امرأة العزيز أعظم من صبره على أذى إخوته؛ لأن صبره على أذى إخوته كان من باب الصبر على المصائب التي لا يكاد يسلم منها أحد، وأما صبره على أذى امرأة العزيز فكان اختياريًا، واقترب به التقوى؛ ولهذا قال يوسف: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ثم قال شيخ الإسلام - مبيِّنًا اطراد هذه القاعدة القرآنية -:

«وهكذا إذا أُوذِيَ المؤمن على إيمانه، وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان - وإن لم يفعل أُوذِيَ وعوقب - اختار الأذى والعقوبة على فراق دينه: إما الحبس وإما الخروج من بلده، كما جرى للمهاجرين حين اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين، وكانوا يعذبون ويؤذون.

وقد أُوذِيَ النبي ﷺ بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبرًا اختياريًا، فإنه إنما يُؤذَى لثلاث يفعل ما يفعله باختياره، وكان هذا أعظم من صبر يوسف؛ لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشة، وإنما عوقب - إذ لم يفعل - بالحبس، والنبي ﷺ وأصحابه طلب منهم الكفر، وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه، وأهون ما عوقب به الحبس...» إلى أن قال:

«فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة الله ورسوله لم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد، من جنس حبس يوسف،

لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه، وهذا أشرف النوعين، وأهلها أعظم بدرجة، وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه، وتكفر عنه الذنوب بمصائبه»^(١).

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية: تربية النفس على التقوى والصبر على ما يسمى بعشق الصور، الذي أفسد قلوب فئام من الناس، بسبب تعلق قلوبهم بتلك الصور، سواء كانت صوراً حية، أم ثابتة.

ولقد عظمت الفتنة بهذه الصور في عصرنا هذا، الذي لم تعرف الدنيا عصراً أعظم منه في انتشار الصورة، والاحتراف في تصويرها، والتفنن في تغيير ملامحها، وتيسر الوصول إلى الصور المحرمة منها وغير المحرمة، عن طريق الإنترنت، والجوال، وغيرها من الوسائل.

فعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يتقي ربه، وأن يجاهد نفسه في البعد عن هذا المرتع الوخيم - أعني تقليب النظر في الصور المحرمة - وأن يوقن أن ما يقذفه الله في قلبه من الإيثار والنور والراحة والطمأنينة سيكون أضعاف ما يجده من لذة عابرة بتلك الصور، ومن أراد أن يعرف مفاسد هذا الباب - أعني عشق الصور - فليقرأ أواخر كتاب العلامة ابن القيم: «الجواب الكافي» فقد أجاد وأفاد.

وليتذكر المبتلى بالعشق «أنه إذا عف عن المحرمات نظراً وقولاً وعملاً، وكنتم ذلك، فلم يتكلم به حتى لا يكون في ذلك كلامٌ محرم: إما شكوى إلى المخلوق، وإما إظهار فاحشة، وإما نوعٌ طلبٌ للمعشوق، وصبرٌ على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى ما في قلبه من ألم العشق، كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة؛ فإن هذا يكون ممن اتقى الله وصبر، و﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/١٢١-١٢٣) بتصرف واختصار.

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/١٣٣) بتصرف واختصار.

٣- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية العظيمة: أن الإنسان قد يبتلى بحُساد يحسدونه على ما آتاه الله من فضله، وقد يجد من آثار هذا الحسد ألوانًا من الأذى القولي أو الفعلي، كما وقع لأحد ابني آدم حين حسد أخاه؛ لأن الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان أخيه، وكما وقع ليوסף مع إخوته، وقد يقع هذا من المرأة مع صرتها، أو من الزميل مع زميله في العمل.

وهذا النوع من الحسد، يقع غالبًا بين المتشاركين في رئاسة أو مال أو عمل إذا أخذ بعضهم قسطًا من ذلك وفات الآخر؛ ويكون بين النظراء؛ لكرهة أحدهما أن يفضل الآخر عليه^(١).

فعلى من ابتلي بذلك أن يتذكر هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وليتذكر أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

٤- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية العظيمة: ما تكرر الحديث عنه في سورة آل عمران في ثلاثة مواضع، كلها جاءت بلفظ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾.
الأول والثاني منها: في ثنايا الحديث عن غزوة أحد، يقول ﷺ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

والثاني: في قوله ﷺ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آءِ الْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آءِ الْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤ - ١٢٥].

والموضع الثالث: في أواخر آل عمران - في سياق الحديث عن شيء من المنهج القرآني في التعامل مع أذى الأعداء من المشركين وأهل الكتاب - فقال ﷺ:

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١٠ / ١٢٥ - ١٢٦).

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصَابِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].





القاعدة

الثالثة

والعشرون

﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾

وهذه القاعدة القرآنية جاءت ضمن سياق الحديث عن عادة من عادات أهل الجاهلية، الذين إذا أحرموا، لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبداً بذلك، وظناً أنه بر، فأخبر الله أنه ليس ببر؛ لأن الله تعالى، لم يشره لهم، كما ثبت سبب هذا النزول في الصحيحين من حديث البراء رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿سَتَلُونَا عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

* من تطبيقات هذه القاعدة:

ولئن كان سبب النزول الذي عالج ذلك الخطأ من أجل وأظهر الصور التي عالجتها هذه القاعدة، فإن ثمة تطبيقات أخرى واسعة لهذه القاعدة القرآنية الجليلة ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، تظهر لمن تتبع كلام العلماء عنها، أو في تطبيقاتهم العملية لها، ومن ذلك:

١ - عبادة الله تعالى، فإنها الطريق الموصل إلى الله تعالى، ومن أراد أن يصل إلى الله،

فعلية أن يسلك الطريق الموصل إليه ﷺ، ولا يكون ذلك إلا بواسطة الطريق الذي سنه رسول الله ﷺ.

يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فالوصول إلى الله وإلى رضوانه بدونه محال، وطلب الهدى من غيره هو عين الضلال، وكيف يوصل إلى الله من غير الطريق التي جعلها هو سبحانه موصلة إليه، ودالة لمن سلك فيها عليه! بعث رسوله بها مناديا، وأقامه على أعلامها داعيا، وإليها هاديا، فالباب عن السالك في غيرها مسدود، وهو عن طريق هداه وسعادته مسدود، بل كلما ازداد كدحاً واجتهادا: ازداد من الله طردًا وإبعادًا»^(١).
ويؤكد ذلك العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ - في تعليقه على هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها - فيقول: «وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله، فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، التي هي قاعدة من قواعد الشرع»^(٢).

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة، أنه:

«يؤخذ من عمومها اللفظي والمعنوي أن كل مطلوب من المطالب المهمة ينبغي أن يؤتى من باب، وهو أقرب طريق ووسيلة يتوصل بها إليه، وذلك يقتضي معرفة الأسباب والوسائل معرفة تامة؛ ليسلك الأحسن منها والأقرب والأسهل، والأقرب نجاحًا، لا فرق بين الأمور العلمية والعملية، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية، ولا بين الأمور المتعدية والقاصرة، وهذا من الحكمة»^(٣).

(١) مقدمة كتابه «تهذيب السنن»: (٣/١).

(٢) تفسير السعدي (٨٨)، وقد نبه على اطراد هذه القاعدة: شيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرحه على البخاري.

(٣) تيسير اللطيف المنان: (ص ٤٥).

٣- ومن تطبيقات هذه القاعدة:

إغلاقها لباب الحيل على الأحكام الشرعية، إلا فيما أذن فيه الشرع؛ ذلك أن المتحايل على الشريعة لم يأت الأمر من بابه، فخالف بذلك ما دلت عليه هذه القاعدة المحكمة.

يقول ابن القيم رحمته الله - مبيناً شناعة فعل هؤلاء المتحايلين، الذين تفننوا في هذا الباب -:

«فاستبيحت بحيلهم الفروج، وأخذت بها الأموال من أربابها فأعطيت لغير أهلها، وعطلت بها الواجبات، وضيعت بها الحقوق، وعجّت الفروج والأموال والحقوق إلى ربها عجيجًا، وضجت مما حل بها إليه ضجيجًا، ولا يختلف المسلمون أن تعليم هذه الحيل حرام، والإفتاء بها حرام، والشهادة على مضمونها حرام، والحكم بها مع العلم بحالها حرام»^(١).

فإذا تبين ذلك؛ فقارن: كم هم الذين وقعوا في هذا المرتع الوخيم ممن نصبوا أنفسهم للإفتاء في بعض المنابر الإعلامية، أو في بعض المواقع، وساعدهم على ذلك تراكض كثير من الناس في هذا الباب؟! وأدنى نظرة في الواقع، تبين أن الأمر جلل، والله المستعان.

٤- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية:

في باب طلب العلم شرعيًا كان أم غير شرعي، وكذلك في طلب الرزق، فإن «كل من سلك طريقًا وعمل عملًا، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته، كما قال تعالى: ﴿وَأَتُوا أَبْوَابَ مَا مَنَعُوا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل

(١) إعلام الموقعين: (٣ / ٣٧٢).

وأقوم الطرق الموصلة إليه»^(١).

وما أجمل ما قاله قيس بن الخطيم:

إذا ما أتيت العزّ من غير بابهِ ضللت، وإن تقصد من الباب تهتد^(٢)

٥- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية: هو الحديث مع الناس.

فإن الآية ترشد إلى أن المؤمن عليه أن يسلك الطريقة المناسبة في الحديث، فيعرف الموضوع المناسب الذي يحسن طرقه، والوقت الملائم، ويعرف طبيعة الشخص أو الناس الذين يتحدث إليهم، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل مجال جدالاً، ولكل حادثة مقاماً.

وعلى هذا فإذا أراد الإنسان أن يخاطب شخصاً كبير المنزلة في العلم أو الشرف، فلا يليق أن يخاطبه بما يخاطب سائر الناس؛ والحكمة في هذا هي المدار، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

٦- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية:

ما أشار إليه ابن الجوزي في كتابه الممتع «صيد الخاطر» حيث يقول:

«شكالي رجل من بغضه لزوجته ثم قال: ما أقدر على فراقها لأمر: منها كثرة دينها علي، وصبري قليل، ولا أكاد أسلم من فلتات لساني في الشكوى، وفي كلمات تعلم بغضي لها.

فقلت له: هذا لا ينفع وإنما تؤتى البيوت من أبوابها، فينبغي أن تخلو بنفسك، فتعلم أنها إنما سلطت عليك بذنوبك، فتبالغ في الاعتذار والتوبة، فأما الضجر والأذى لها فما ينفع، كما قال الحسن البصري عن الحجاج بن يوسف: عقوبة من الله لكم، فلا

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص: ٩) للعلامة: السعدي رحمه الله.

(٢) جهرة الأمثال للعسكري: (٨٩).

تقابلوا عقوبته بالسيف، وقابلوها بالاستغفار.

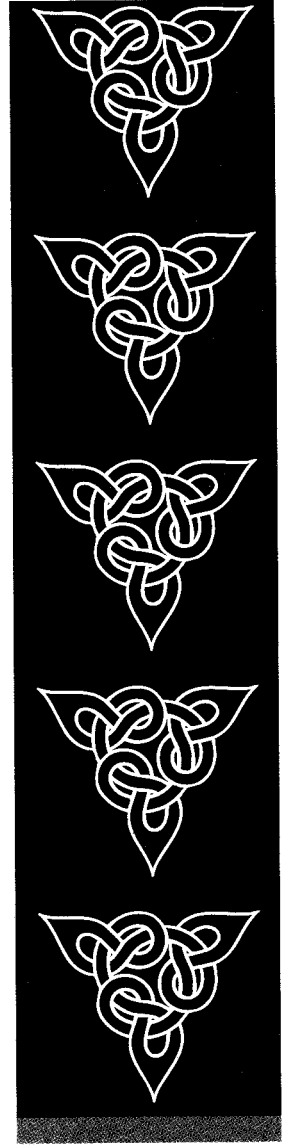
واعلم أنك في مقام مبتلى، ولك أجر بالصبر وعسى أن تكرهوا شيئاً، وهو خير لكم، فعامل الله سبحانه بالصبر على ما قضى، واسأله الفرج، فإذا جمعت بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب، والصبر على القضاء، وسؤال الفرج، حصلت ثلاثة فنون من العبادة تثاب على كل منها، ولا تُضَيِّع الزمان بشيء لا ينفع، ولا تحتل ظاناً منك أنك تدفع ما قدر... وأما أذاك للمرأة فلا وجه له؛ لأنها مسلطة فليكن شغلك بغير هذا.

وقد روي عن بعض السلف أن رجلاً شتمه فوضع خده على الأرض وقال:
اللهم اغفر لي الذنب الذي سَلَطْتَ هذا به علي»^(١) انتهى كلام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ.

والغرض الذي أردتُ منه ذكر هذه القصة: أن هذا الإمام الواعظ استخدم هذه القاعدة القرآنية ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ في علاج مشكلة هذا الرجل الاجتماعية، وما أكثر هذا النوع من المشاكل، لكن ما أقل من يستعمل قواعد القرآن، وهداياته في علاج مشاكل الناس الاجتماعية، إما تقصيراً في فهم هداياته، أو قصوراً في ذلك، والواجب علينا أن نطلق في إصلاح مشاكلنا كلها مهما تنوعت من كتاب ربنا، وسنة نبينا ﷺ، وأن نعتقد ذلك يقيناً؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ في كل شيء: في أمر العقائد، وأحكام الحلال والحرام، والقضايا الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، ولكن الشأن فينا نحن، وفي تقصيرنا في تطلب حل مشاكلنا من كتاب ربنا تعالى، نسأل الله تعالى أن يعيننا على فهم كتابه، والاهتداء بهديه، والاستنارة بنوره.



(١) صيد الخاطر (٣٩٩-٤٠٠) ط: دار الكتب العلمية.



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الرابعة والعشرون

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾

هذه القاعدة جاءت في ختام سورة العنكبوت، والتي افتتحت بقوله تعالى:

﴿الْعنكبوت ١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وكان ختام سورة العنكبوت بهذه القاعدة القرآنية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ هو جواب عن التساؤل الذي قد يطرحه المؤمن - وهو يقرأ صدر سورة العنكبوت، والتي تقرر حقيقة شرعية وسنة إلهية - في طريق الدعوة إلى الله تعالى، وذلك السؤال هو: ما المخرج من تلك الفتن التي حدثتنا عنها أول سورة العنكبوت؟! فيأتي الجواب في آخر السورة، في هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ فلا بد من الجهاد - بمعناه العام - ولا بد من الإخلاص، عندها تأتي الهداية، ويتحقق التوفيق بإذن الله.

ولا بد لكل من أراد أن يسلك طريقاً أن يتصور صعوباته؛ ليكون على بينة من أمره، وهكذا هو طريق الدعوة إلى الله، فلم ولن يكون مفروشاً بالورود والرياحين، بل هو طريق «تعب فيه آدم، ونوح لأجله نوح، ورمى في النار الخليل، وأضجع للذبح

إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين»^(١).

لأن «الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال، فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا! وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم، كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به، وهذا هو أصل الكلمة اللغوي، وله دلالة وظله وإيحاءه، وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب»^(٢).

«فيا من نصبت نفسك للدعوة، وأقمت نفسك مقام الرسل الدعاة الهداة تحمّل كل ما يلاقك من المحن بقلب ثابت، وجأش رابط، ولا تزعزعتك الكروب؛ فإنها مربية الرجال، ومهدّبة الأخلاق، ومكوّنة النفوس.

وإن رجلاً لم تعركه الحوادث، ولم تجرّبه البلايا لا يكون رجل إصلاح ولا داعي خَلْقٍ إلى حقٍّ؛ فوطّن النفس على تحمّل المكروه، وابدل كل ما تستطيع من قوة ومال يهدك الله طريقاً رشداً، ويصلح بك جماعات بل أمّا ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

وإذا تبينت صلة هذه القاعدة القرآنية المذكورة في آخر سورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ - بأول السورة، فإن دلالات هذه القاعدة في ميدان الدعوة كبيرة ومتسعة جداً، وهي تدل بوضوح على أن من رام الهداية والتوفيق

(١) الفوائد: (ص ٤٢).

(٢) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٧٢٠) ط: الشروق.

(٣) الكلمة للمنفلوطي، نقلاً عن «مقالات لكبار كتاب العربية» د. محمد الحمد وفقه الله (١/

- وهو يسير في طريق الدعوة- فليحقق ذينك الأصلين الكبيرين اللذين دلت عليهما هذه القاعدة:

١- أما الأصل الأول: فهو بذل الجهد والمجاهدة في الوصول إلى الغرض الذي ينشده الإنسان في طريقه إلى الله تعالى.

٢- والأصل الثاني هو: الإخلاص لله، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ فليس جهادهم من أجل نصره ذات، ولا جماعة على حساب أخرى، وليس من أجل لعاعة من الدنيا، أو ركض وراء كرسي أو منصب، بل هو جهادٌ في ذات الله تعالى. وإنما بُنِيَ على هذا الأصل -وهو الإخلاص- مع كونه شرطاً في كل عمل، فإن السر -والله أعلم- لأن من الدعاة من قد يدفعه القيام بالدعوة، أو بأي عمل نافع، الرغبة في الشهرة التي نالها الداعية الفلاني، أو يدفعه نيل ثراء ناله المتحدث الفلاني.. فجاء التنبيه على هذا الأصل الأصيل في كل عمل صالح.

وثمة سرٌّ آخر -والله أعلم- في التنبيه على هذا الأصل، وهو: أن الإنسان قد يبدأ مخلصاً، ثم لا يلبث أن تنطفئ حرارة الإخلاص في نفسه كلما لاح أمام ناظره شيء من حظوظ النفس، والأثرة، أو التطلع إلى جاه، والرغبة في العلو والافتخار، أو الانتصار.

«والعلل الناشئة عن فقدان الإخلاص كثيرة، وهي إذا استفحلت استأصلت الإيمان، وإذا قلت تركت به ثُلماً شتى، ينفذ منها الشيطان»^(١)، لذا ليس غريباً أن يأتي التوكيد على هذا الأصل الأصيل في هذا المقام العظيم: مقام الجهاد والمجاهدة.

وإذا تقرر أن السورة مكية - على القول الصحيح من أقوال المفسرين - وهو الذي لم تجب فيه بعدُ شعيرة الجهاد بمعناه الخاص -وهو قتال المشركين لإعلاء كلمة

(١) خلق المسلم للغزالي: (ص ٦٦).

الله- فإن ثمة معنى كبيرًا تشير إليه هذه القاعدة - ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ - وهو أن من أبلغ صور الجهاد: الصبر على الفتن بنوعها: فتن السراء وفتن الضراء، والتي أشارت أوائل سورة العنكبوت إلى شيء منها.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ دلت على شيء آخر، كما يقول ابن القيم رحمته: «وهو أن أكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد... - إلى أن قال رحمته: - ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنًا، فمن نُصِرَ عليها نُصِرَ على عدوه، ومن نصرت عليه نُصِرَ عليه عدوُّه»^(١).

وفي كلمات الأعلام من سلف هذه الأمة، والتابعين لهم بإحسان ما يوسع دلالة هذه القاعدة:

فهذا الجنيد رحمته يقول - في تعليقه على هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ -: «والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة؛ لنهديهم سبل الإخلاص».

ولأهل العلم نصيب من هذه القاعدة، يقول أحمد بن أبي الحواري: حدثني عباس بن أحمد - في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ -: «الذين يعملون بما يعلمون، نهديمهم إلى ما لا يعلمون».

وهذا الذي ذكره هذا العالم الجليل هو معنى ما روي في الأثر: من علم بما عمل، ورثه الله علم ما لم يعمل، وشاهد هذا في كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ

(١) الفوائد: (ص ٥٩).

تَقْوَاهُمْ ﴿ [محمد: ١٧].

وكان عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «جهلنا بما علمنا تركنا العمل بما علمنا ولو عملنا بما علمنا لفتح الله على قلوبنا غلق ما لا تهتدي إليه آمالنا»^(١).

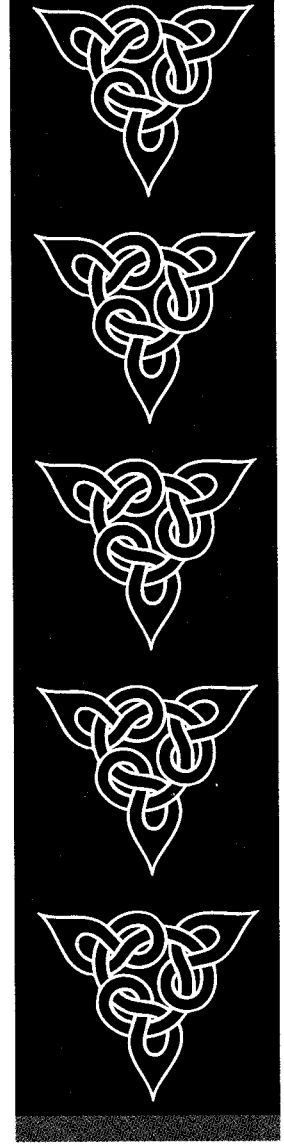
وفي واقع المسلمين أحوال تحتاج إلى استشعار معنى هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾:

فمن له والدان كبيران مريضان، بحاجة أن يستشعر هذه القاعدة. ومن سلك طريق طلب العلم، فطال عليه بعض الشيء بحاجة أن يتأمل معاني هذه القاعدة.

ومن قرغ جزءاً من وقته لتربية النشء والشباب، أو لتعليم أبناء وبنات المسلمين كتاب الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقد دبَّ إليه الفتور - هو بحاجة ماسة ليتدبر هذه القاعدة. وبالجملة: فكلُّ من نصب نفسه لعمل صالح، سواء كان قاصراً أم متعدياً، فعليه أن يتدبر هذه القاعدة كثيراً؛ فإنها بلسمٌ شافٍ في طريق السائرين إلى ربهم، ويوشك المؤمن أن ينسى كلَّ ما واجهه من تعب ونصب، إذا وضع قدمه على أول عتبة من عتبات الجنة، جعلني الله وإياكم - ووالدينا وذرياتنا - من أهلها، ومن الدعاة إلى دخولها.



(١) درء تعارض العقل والنقل: (٣٥٨/٤).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الخامسة والعشرون

﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

هذه قاعدة من القواعد التي تتصل بفقهاء السنن الإلهية في الأمم والمجتمعات. وقد تنوعت عبارات المفسرين في بيان المراد بهذه الآيات التي يرسلها ربنا تعالى، فمن قائل: هو الموت المتفشي الذي يكون بسبب وباء أو مرض، ومن قائل: هي معجزات الرسل جعلها الله تعالى تخويفاً للمكذابين، وثالث يقول: آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي.

وهذا الإمام ابن خزيمة رحمته الله ييوب على أحاديث الكسوف بقوله: باب ذكر الخبر الدال على أن كسوفها تخويف من الله لعباده، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾^(١).

وكل هذه العبارات - في تنوعها - تشير إلى أن الآيات لا يمكن حصرها في شيء واحد، وما ذكره السلف - رحمهم الله - إنما هو عبارة عن أمثلة لهذه الآيات، وليس مرادهم بذلك حصر الآيات في نوع واحد منها، وهذه هي عادة السلف في أمثال هذه المواضع عندما يفسرونها.

(١) صحيح ابن خزيمة: (٣٠٩/٢).

والمهم هنا أن يتأمل المؤمن والمؤمنة كثيرًا في الحكمة من إرسال هذه الآيات ألا وهي التخويف، أي: حتى يكون الإنسان خائفًا وجلًا من عقوبة قد تنزل به.

يقول قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في بيان معنى هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ -: «إن الله يخوف الناس بما شاء من آية لعلهم يعتبرون، أو يذكرون، أو يرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود، فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعذبكم فأعتبوه»^(١).

وروى ابن أبي شيبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في مصنفه من طريق صفية بنت أبي عبيد قالت: زلزلت الأرض على عهد عمر حتى اصطفقت السرر، فوافق ذلك عبد الله بن عمر وهو يصلي، فلم يدر، قال: فخطب عمر الناس وقال: لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم.

وهذا التوارد في كلمات السلف في بيان معنى هذه الآية يؤكد أن السبب الأكبر في إرسال الآيات: هو تخويف العباد، وترهيبهم مما يقع منهم من ذنوب ومعاصي، لعلهم يرجعون إلى ربهم الذي أرسل لهم هذه الآيات والنذر، وإن لم يرجعوا فإن هذه علامة قسوة في القلب - عيادًا بالله تعالى - كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾^(٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤].

وكما قال ربنا ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَرِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

(١) تفسير الطبري: (١٧/٤٧٨).

- فإن قلت: ما الجواب عما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال - لما سمع بخسف:-

كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً؟!

فالجواب: أن مراد ابن مسعود رضي الله عنه - كما بينه الإمام الطحاوي:- «أنا كنا نعدّها

بركة؛ لأننا نخاف بها فنزداد إيماناً وعملاً، فيكون ذلك لنا بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً

ولا تعملون معها عملاً يكون لكم به بركة، ولم يكن ما قال عبد الله رضي الله عنه عندنا مخالفاً

لما جاء به كتاب الله صلى الله عليه وسلم من قول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي: تخويفاً

لكم بها لكي تزدادوا عملاً وإيماناً؛ فيعود ذلك لكم بركة»^(١).

ومع وضوح هذا المعنى الذي دلت عليه هذه القاعدة القرآنية، ومع ظهوره، إلا

أن من المؤسف جداً أن يقرأ الإنسان أو يسمع بعض كُتّاب الصحف، أو المتحدثين

على بعض المنابر الإعلامية ممن يسخرون أو يهوّنون من هذه المعاني الشرعية الظاهرة!

ويريدون أن يختصروا الأسباب في وقوع الزلازل أو الفيضانات، أو الأعاصير -

ونحوها من الآيات العظام- في أسباب مادية محضة، وهذا غلط عظيم!

ونحن لا ننكر أن لزلزلة الأرض أسباباً جيولوجية معروفة، وللفيضانات

أسبابها، وللأعاصير أسبابها المادية، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: من الذي أمر

الأرض أن تتحرك وتضطرب؟ ومن الذي أذن للماء أن يزيد عن قدره المعتاد في بعض

المناطق؟ ومن الذي أمر الرياح أن تتحرك بتلك السرعة العظيمة؟ أليس هو الله؟!!

أليس الذي أرسلها يريد من عباده أن يتضرعوا إليه، ويستكِينوا له لعله يصرف عنهم

هذه الآيات؟!!

ولا أدري! ألم يتأمل هؤلاء دلالة هذه القاعدة من الناحية اللغوية؟ فإنها جاءت

(١) انظر: شرح مشكل الآثار (٦/٩).

بأسلوب الحصر: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فهي في قوة الحصر الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وهي في قوة الحصر الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] ونحوها من الآيات.

ثم ماذا يصنع هؤلاء الذين يهونون من شأن هذه الآيات - شعروا أم لم يشعروا، قصدوا أم لم يقصدوا - بمثل تلك التفسيرات المادية الباردة، ماذا يصنعون بما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح، قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» قالت: وإذا تخيلت السماء - وهي سحابة فيها رعد وبرق يخيل إليه أنها ماطرة - تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُري عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته؟ فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيْنِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾^(١).

ولا أدري كيف يجيب هؤلاء عن قوله تعالى في حق قوم نوح: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؟! يقول ابن كثير رحمته الله في بيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ﴾: أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار^(٢).

(١) البخاري ح (٤٥٥١)، مسلم ح (٨٩٩) واللفظ والدعاء لمسلم.

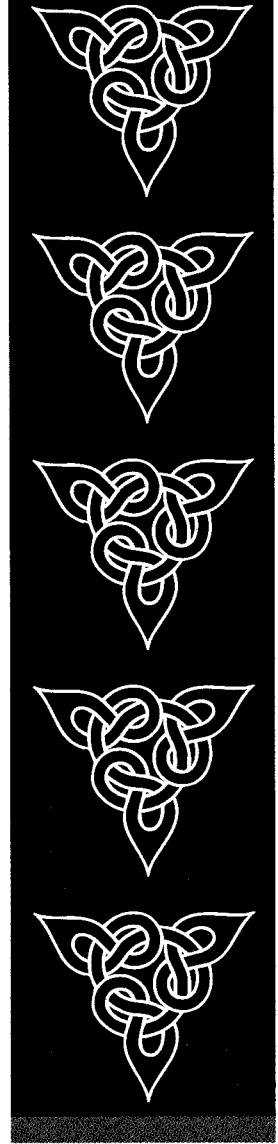
(٢) تفسير ابن كثير: (٢٣٨/٨) ط: دار طيبة.

وأما ما يورده بعض الناس من قولهم:

هناك بلاد أشد معصية من تلك البلاد التي أصابها ذلك الزلزال، ويوجد دول أشد فجورًا من تلك التي ضربها ذاك الإعصار، فهذه الإيرادات لا ينبغي أن تورد أصلًا؛ لأنها كالاغراض على حكمة الله تعالى في أفعاله وقضائه وقدره، فإن ربنا يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، والله يقضي بالحق، وربنا لا يُسأل عما يفعل، وله عِلْمُ الحكمة البالغة، والعلم التام، ومن وراء الابتلاءات حكم وأسرار تعجز عقولنا عن الإحاطة بها، فضلًا عن إدراكها.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الاعتبار والادكار، والاتعاظ بما نوعظ به، ونعوذ بالله من قسوة القلب التي تحول دون الفهم عن الله وعن رسوله.

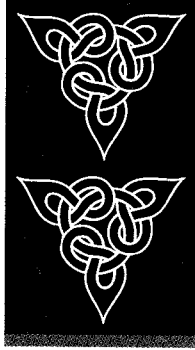




قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة السادسة والعشرون

﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة الصلة بواقع الناس، وازدادت الحاجة إلى التنويه بها في هذا العصر الذي اتسعت فيه وسائل نقل الأخبار.

وهذه القاعدة القرآنية الكريمة جاءت ضمن سياق الآداب العظيمة التي أدب الله بها عباده في سورة الحجرات، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

ولهذه الآية الكريمة سبب نزول توارد المفسرون على ذكره، وخلاصته أن الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه - سيد بني المصطلق - لما أسلم اتفق مع النبي صلى الله عليه وسلم أن يبعث له - في وقت اتفقا عليه - جابياً يأخذ منه زكاة بني المصطلق، فخرج رسول رسول صلى الله عليه وسلم لكنه خاف فرجع في منتصف الطريق، فاستغرب الحارث بن ضرار تأخر رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي الوقت ذاته لما رجع الرسول إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله! إن الحارث منعني الزكاة، وأراد قتلي، فغضب الرسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث إلى الحارث، فالتقى البعث الذين بعثهم الرسول صلى الله عليه وسلم مع الحارث بن ضرار في الطريق، فقال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك! قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بعث إليك الوليد

بن عقبة، فزعم أنك منعتك الزكاة وأردت قتله! قال: لا والذي بعث محمدًا بالحق، ما رأيته بته ولا أتاني!! فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي»؟! قال: لا والذي بعثك بالحق، ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول الله ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ﷻ ورسوله، قال فنزلت الحجرات: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَ كُرْفَاسِقُ بِنِيَا فَتَيِّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ انتهى الحديث مختصرًا، وقد رواه الإمام أحمد بسند لا بأس به، ويعضده الإجماع الذي حكاه ابن عبد البر على أنها نزلت في هذه القصة^(١).

وجاء في قراءة سَبْعِيَّة: ﴿فتثبتوا﴾ وهذه القراءة تزيد الأمر وضوحًا؛ فهي تأمر عموم المؤمنين حين يسمعون خبرًا أن يتحققوا بأمرين:

الأول: التثبت من صحة الخبر.

الثاني: التبين من حقيقته.

فإن قلت: فهل بينهما فرق؟

فالجواب: نعم؛ لأنه قد يثبت الخبر، ولكن لا يُدرى ما وجهه!

ولعلنا نوضح ذلك بقصة وقعت فصولها في عهد النبي ﷺ، وذلك حين خرج

النبي ﷺ من مسجده ليوصل زوجته صفية رضي الله عنها إلى بيتها، فرآه رجلان فأسرعا المسير، فقال: «على رسلكما إنها صفية»^(٢).

(١) قال ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/١٥٥٣) عند ترجمة الوليد بن عقبة: ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن - فيما علمت - أن قوله ﷺ: ﴿إِن جَاءَ كُرْفَاسِقُ بِنِيَا﴾ نزلت في الوليد بن عقبة وذلك أنه بعثه رسول الله.

(٢) البخاري ح (٣١٠٧)، ومسلم ح (٢١٧٥).

فلو نقل ناقل أنه رأى النبي ﷺ يمشي مع امرأة في سواد الليل لكان صادقاً، لكنه لم يتبين حقيقة الأمر، وهذا هو التبين.

وهذا مثال قد يواجهنا يومياً: فقد يرى أحدنا شخصاً دخل بيته والناس متجهون إلى المساجد لأداء صلاتهم.

فلو قيل: إن فلاناً دخل بيته والصلاة قد أقيمت، لكان ذلك القول صواباً، لكن هل تبين سبب ذلك؟ وما يدريه؟! فقد يكون الرجل لتوّه قدم من سفر، وقد جمع جمع تقديم فلم تجب عليه الصلاة أصلاً، أو لغير ذلك من الأعذار! وهذا مثال آخر قد يواجهنا في شهر رمضان مثلاً:

قد يرى أحدنا شخصاً يشرب في نهار رمضان ماءً أو عصيراً، أو يأكل طعاماً في النهار، فلو نقل ناقل أنه رأى فلاناً من الناس يأكل أو يشرب لكان صادقاً، ولكن هل تبين حقيقة الأمر؟ قد يكون الرجل مسافراً وأفطر أول النهار فاستمر في فطره - على قول طائفة من أهل العلم في إباحة ذلك - وقد يكون مريضاً، وقد يكون ناسياً،... إلى آخر تلك الأعذار.

وفي هذه القاعدة القرآنية دلالات أخرى، منها:

١- أن خبر العدل مقبول غير مردود، اللهم إلا إن لاحت قرائن تدل على وهمه وعدم ضبطه فإنه يُرد.

٢- «أنه سبحانه لم يأمر بردّ خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملةً، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر»^(١).

(١) مدارج السالكين: (١/٣٦٠).

٣- ومنها: أنها تضمنت ذم التسرع في إذاعة الأخبار التي يخشى من إذاعتها، ولقد عاب ربنا تبارك وتعالى هذا الصنف من الناس، كما في قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُمْ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]^(١).

٤- أن في تعليل هذا الأدب بقوله: ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ ما يوحي بخطورة التعجل في تلقي الأخبار عن كل أحد، خصوصاً إذا ترتب على تصديق الخبر طعن في أحد، أو بهت له.

إذا تبين هذا المعنى، فإن من المؤسف أن يجد المسلم خرقاً واضحاً من قبل كثير من المسلمين لهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، وازداد الأمر واتسع مع وسائل الاتصال المعاصرة كأجهزة الجوال والإنترنت وغيرها من الوسائل!

وأعظم من يكذب عليه من الناس في هذه الوسائل هو رسول الله ﷺ، فكم نسبت إليه أحاديث وقصص لا تصح عنه! بل بعضها كذب عليه، لا يصح أن ينسب لأحد الناس فضلاً عن شخصه الشريف ﷺ!

ويلى هذا الأمر في الخطورة: التسرع في النقل عن العلماء، خصوصاً العلماء الذين ينتظر الناس كلمتهم، ويتبعون أقوالهم، وكلُّ هذا محرم لا يجوز، وإذا كنا أمرنا في هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ أن نتحرى ونثبت من الأخبار عموماً؛ فإنها في حق النبي ﷺ وحق ورثته أشد وأشد.

ومثل ذلك يقال: في النقل عما يصدر عن ولاة أمور المسلمين، وعن خواص

(١) ينظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن (٩٨).

المسلمين ممن يكون لنقل الكلام عنهم له أثره، فالواجب الثبوت والتبين، قبل أن يندم الإنسان ولات ساعة مندم.

ولا يقتصر تطبيق هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْهُ﴾ على ما سبق ذكره، بل هي قاعدة يحتاجها الزوجان، والآباء مع أبنائهم، والأبناء مع آبائهم.

ولله كم من بيت تقوضت أركانه بسبب الإخلال بهذه القاعدة القرآنية!

هذه رسالة قد تصل إلى جوال أحد الزوجين، فإن كانت من نصيب جوال الزوجة، واطلع الزوج عليها، سارع إلى الطلاق قبل أن يتثبت من حقيقة هذه الرسالة التي قد تكون رسالة طائشة جادة أو هازلة جاءت من مغرض أو على سبيل الخطأ!

وقل مثل ذلك: في حق رسالة طائشة جادة أو هازلة تصل إلى جوال الزوج، فتكتشفها الزوجة، فتتهم زوجها بخيانة أو غيرها، فتبادر إلى طلب الطلاق قبل أن تتثبت من حقيقة الحال!

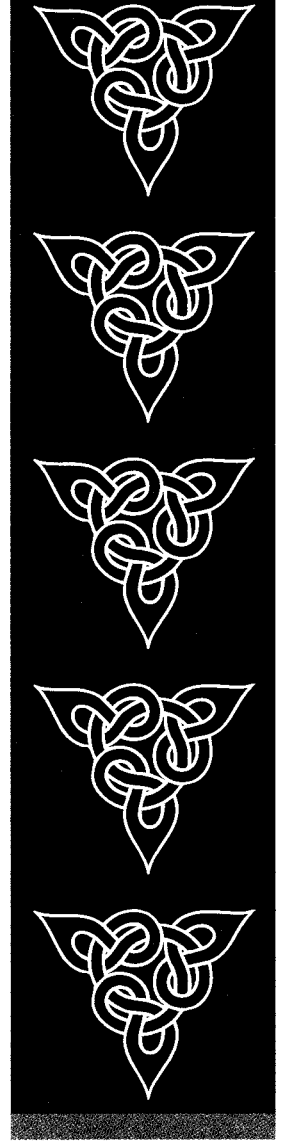
ولو أن الزوجين أعمالا هذه القاعدة القرآنية: ﴿فَتَبَيَّنْهُ﴾ لما حصل هذا كله.

وإذا انتقلت إلى ميدان الصحافة أو غيرها من المنابر الإعلامية؛ وجدت عجباً من خرق سياج هذا الأدب.. فكم من تحقيقات صحفية بنيت على خبر إما أصله كذب، أو ضخم وقُحِّم حتى صُور للقراء على أن الأمر بتلك الضخامة والهول، وليس الأمر كما قيل!

والواجب على كل مؤمن معظم لكلام ربه أن يتقي ربه، وأن يتمثل هذا الأدب القرآني الذي أرشدت إليه هذه القاعدة القرآنية الكريمة: ﴿فَتَبَيَّنْهُ﴾.

جعلنا الله وإياكم من المتأدبين بأدب القرآن العاملين به.

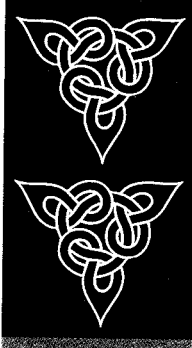




قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة السابعة والعشرون

﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة القدر؛ لعظيم أثرها في حياة العبد، وقوة صلتها بتلك المضغة التي بين النبي ﷺ وأن صلاحها صلاح لبقية الجسد، وفسادها فساد له.

التزكية تطلق ويراد بها معنيان:

المعنى الأول: التطهير، ومنه قوله تعالى عن يحيى: ﴿وَزَكُوهُ وَكَانَ تَقِيًّا﴾ فإن الله زكاه وطهر قلبه وفؤاده، وهذا تطهير معنوي، ويطلق على التطهير الحسي، يقال: زكيت الثوب إذا طهرته.

والمعنى الثاني: هو الزيادة، يقال زكى المال يزكوا إذا نمى.

وكلا المعنيين اللغويين مقصودان في الشرع؛ لأن تزكية النفس شاملة للأمرين: تطهيرها وتحليلتها من الأدران والأوساخ الحسية والمعنوية، وتنميتها وتحليلتها بالأوصاف الحميدة والفاضلة، فالزكاة - باختصار - تدور على أمرين: التخلية، والتحلية.

والمقصود بالتخلية: أي تطهير القلب من أدران الذنوب والمعاصي، والمقصود بالتحلية: أي تحلية النفس بمكارم الأخلاق، وطيب الشمائل، وهما عمليتان تسيران

جنبًا إلى جنب، فالمؤمن مطالب «بالتنقي من العيوب: كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، ومطالب بالتحلي بالأخلاق الجميلة: من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق؛ فإن تركيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء»^(١).

وعلى هذا المعنى جاءت الآيات القرآنية بالأمر بتزكية النفس وتهذيبها، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) و﴿ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾، وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١) و﴿قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾، وكما في هذه القاعدة القرآنية التي نحن بصدددها: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾.

وهذه الآية جاءت في سورة فاطر ضمن السياق التالي: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) *إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ* (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يَجْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٥-١٨].

قال العلامة ابن عاشور: «وجملة ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ تذييل جار مجرى المثل، وذكر التذييل عقب المذيل يؤذن بأن ما تضمنه المذيل داخل في التذييل بادئ ذي بدء مثل دخول سبب العام في عمومه من أول وهلة دون أن يُخص العام به، فالمعنى: أن الذين خَشُوا رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ هم مَنْ تَزَكَّى فانتفعوا بتزكيتهم، فالمعنى: إنما ينتفع بالندارة الذين يخشون ربهم بالغيب فأولئك تزكوا بها ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه.

(١) تفسير السعدي: (ص ٦٨٧).

والمقصود من القصر في قوله: ﴿فَاتَّمَايَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أن قبولهم النذارة كان لفائدة أنفسهم، فيه تعريض بأن الذين لم يعبوا بنذارته تركوا تزكية أنفسهم بها، فكان تركهم ضراً على أنفسهم^(١).

إن من تأمل نصوص القرآن وجد عناية عظيمة بمسألة تزكية النفوس:

فهذا خليل الرحمن حينما دعا بأن يبعث من ذريته رسولاً، ذكر من جملة التعليقات: تزكية الناس الذين سيدعوهم، فقال ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وربنا تعالى يذكر عباده بمنتته عليهم، حين استجاب دعوة خليله إبراهيم، وأن من أعظم وظائفه هي تزكية نفوسهم، فقال ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ولما دعا نبي الله موسى فرعون اختصر له دعوته في جملتين: ﴿هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى﴾

﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْسَىٰ ﴿[النازعات: ١٨ - ١٩].

ومن تأمل سورة الشمس، أدرك عظيم هذه الغاية، وخطورة هذه العبادة الجليلة، فإن الله تعالى أقسم أحد عشر قسماً متتابعاً على أن فلاح النفس لا يكون إلا بتزكيتها! ولا يوجد في القرآن نظير لهذا - أعني تتابع أحد عشر قسماً على مُقسِّمٍ واحد - وهو بلا ريب دليل واضح، وبرهان ساطع على خطورة هذا الموضوع.

(١) التحرير والتنوير: (١٢ / ٤٣).

إن منطوق هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ يدل بوضوح أن أعظم أثر لهذه التزكية هو أثرها على نفس المتزكي، ومفهومها يتضمن تهديداً: أنك إن لم تتزك يا عبد الله، فإن أعظم متضرر بإهمال التزكية هو أنت.

ولئن كانت هذه القاعدة تعني كل مسلم يسمعها، فإن حظ الداعية وطالب العلم منها أعظم وأوفر؛ لأن الأنظار إليه أسرع، والخطأ منه أوقع، والنقد عليه أشد، ودعوته يجب أن تكون بحاله قبل مقاله.

ولعظيم منزلة تزكية النفس في الدين، كان الأئمة والعلماء المصنفون في العقائد يؤكدون على هذا الأمر بعبارات مختلفة، منها ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله جملة من الصفات السلوكية والأخلاقية لأهل السنة، ومن ذلك قوله: «يأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»^(١)... ويأمرون بمعالى الأخلاق وينهون عن سفاسفها»^(٢).

وإنما نص أئمة الدين على ذلك؛ لأن هناك تلازماً وثيقاً بين السلوك والاعتقاد: فالسلوك الظاهر مرتبط بالاعتقاد الباطن، فأى انحراف في الأخلاق إنما هو من نقص الإيمان الباطن، قال ابن تيمية رحمته الله: «إذا نقصت الأعمال الظاهرة الواجبة، كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب، أن تُعدم الأعمال الظاهرة الواجبة»^(٣).

ويقول الشاطبي رحمته الله: «الأعمال الظاهرة في الشرع دليل على ما في الباطن، فإذا

(١) الترمذي ح (١١٦٢)، وغيره، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى: (١٥٨-١٥٩).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى: (٦١٦، ٦٢١، ٥٨٢، ٧).

كان الظاهرُ منخرمًا أو مستقيمًا حُكِمَ على الباطنِ بذلك»^(١).

فالسُّلوكُ والاعتقادُ متلازمان، كذلك فإن من الأخلاقِ والسلوكِ ما هو من شُعبِ الإيمان.

ولهذا: لما ظن بعض الناس - ومنهم بعض طلاب العلم - أن أمر التزكية سهلٌ أو يسيرٌ أو من شأنِ الوعاظِ فحسب! يقال ذلك إما بلسانِ الحال أو بلسانِ المقال؛ ووجدت صورًا كثيرة من التناقضات والفصامِ النكد بين العلم والعمل!

إن سؤالا يتبادر إلى الذهن ونحن نتحدث عن هذه القاعدة القرآنية: كيف نزكي نفوسنا؟ والجواب عن هذا يطول جدًّا، لكنني أشير باختصار إلى أهم وسائل تزكية النفس، فمن ذلك:

١- توحيد الله تعالى، وقوة التعلق به.

٢- ملازمة قراءة القرآن، وتدبره.

٣- كثرة الذكر عمومًا.

٤- المحافظة على الصلاة المفروضة، وقيام الليل ولو قليلاً.

٥- لزوم محاسبة النفس بين الفينة والأخرى.

٦- حضور الآخرة في قلب العبد.

٧- تذكُّر الموت، وزيارة القبور.

٨- قراءة سير الصالحين.

وفي مقابل هذا: فإن العاقل من يتنبه لسد المنافذ التي قد تُفسد عليه أثر تلك الوسائل؛ لأن القلب الذي يتلقى الوسائل والعوائق موضع واحد لا يمكن انفصاله.

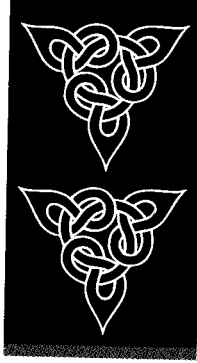
(١) الموافقات: (١/٢٣٣).

إذن: لا يكفي أن يأتي الإنسان بالوسائل، بل لا بد من الانتباه إلى العوائق، مثل:
النظر إلى المحرمات، أو سماع المحرمات، أو إطلاق اللسان فيما لا يعني -فضلاً عما
حرم الله تعالى-.

اللهم إنا نسألك وندعوك بما دعاك به نبيك محمد ﷺ: «اللهم آت نفوسنا تقواها،
وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع،
ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»^(١).



(١) صحيح مسلم ح (٢٧٢٢).



القاعدة الثامنة والعشرون

﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة الصلة بواقع الناس، وازدادت الحاجة إلى التنويه بها في هذا العصر الذي اتسعت فيه وسائل نقل الأخبار.

وهذه القاعدة القرآنية الكريمة تكررت ثلاث مرات في كتاب الله ﷻ، كلها في قصة شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

ومن المعلوم أن من جملة الأمور التي وعظ بها شعيبٌ قومه: مسألة التطفيف في الكيل والميزان، حيث كان هذا فاشياً فيهم، ومنتشراً بينهم.

وهذا مثال - من جملة أمثلة كثيرة - تدل على شمول دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لجميع مناحي الحياة، وأنهم كما يدعون إلى أصل الأصول - وهو التوحيد - فهم يدعون إلى تصحيح جميع المخالفات الشرعية، مهما ظنّ بعض الناس أنها مخالفات هينة؛ إذ لا يتحقق كمال العبودية لله تعالى إلا بأن تكون أمور الدين والدنيا خاضعةً لسلطان الشرع.

وأنت إذا تأملت هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾

وجدتها جاءت بعد عموم النهي عن نقص المكيال والميزان، فهو عموم بعد خصوص؛

ليشمل جميع ما يمكن بخسه من القليل والكثير، والجليل والحقير.

قال العلامة الطاهر ابن عاشور رحمته الله: «وما جاء في هذا التشريع هو أصل من أصول رواج المعاملة بين الأمة؛ لأنّ المعاملات تعتمد الثقة المتبادلة بين الأمة، وإنّما تحصل بشيوع الأمانة فيها، فإذا حصل ذلك نشط الناس للتعامل فالمنتج يزداد إنتاجاً وعرضاً في الأسواق، والطالب من تاجر أو مستهلك يقبل على الأسواق آمناً لا يخشى غبناً ولا خديعة ولا خلافة، فتتوفر السلع في الأمة، وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجياتها وتحسينياتها؛ فيقوم نماء المدينة والحضارة على أساس متين ويعيش الناس في رخاء وتحاب وتآخ، وبضد ذلك يختل حال الأمة بمقدار تفشي ضد ذلك»^(١).

وقال بعض المفسرين - مبيناً سعة مدلول هذه القاعدة -:

«وهو عامّ في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم، وفي كل ملك أن لا يغصب عليه مالكة ولا يتحيف منه، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً»^(٢).

إذا تبين سعة مدلول هذه القاعدة، وأن من أخص ما يدخل فيها: بخس الحقوق المالية؛ فإن دلالتها تتسع لتشمل كلّ حق حسي أو معنوي ثبت لأحد من الناس.

أما الحقوق الحسية فكثيرة، منها: ما سبقت الإشارة إليه - كالحق الثابت للإنسان كالبيت والأرض والكتاب والشهادة الدراسية - ونحو ذلك.

وأما الحقوق المعنوية، فأكثر من أن تحصر، ولكن يمكن القول: إن هذه القاعدة القرآنية كما هي قاعدة في أبواب المعاملات، فهي بعمومها قاعدة من قواعد الإنصاف مع الغير.

والقرآن مليء بتقرير قاعدة الإنصاف، وعدم بخس الناس حقوقهم، تأمل

(١) التحرير والتنوير: (٥ / ٤٥١).

(٢) تفسير الكشاف: (٣ / ٣٣٧).

-مثلاً- قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] فتصور! ربك يأمرك أن تنصف عدوك، وألا يملك بغضه على غمط حقه، أفتظن أن ديناً يأمرك بالإنصاف مع عدوك، لا يأمرك بالإنصاف مع أخيك المسلم؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ -معلقاً على هذه الآية-: «فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم، فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيذان؟! فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالماً له»^(١).

وفي واقع المسلمين ما يندى له الجبين من بخس للحقوق، وإجحاف وقلة الإنصاف، حتى أدى ذلك إلى قطيعة وتدابير، وصدق المتنبي يوم قال:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

وهذا إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ، يعلن شكواه قديماً من هذه الآفة، فيقول: «ليس في الناس شيء أقل من الإنصاف».

علّق ابن رشد على هذه الكلمة فقال: «قال مالك هذا لما اختبره من أخلاق الناس، وفائدة الإخبار به التنبيه على الذم له؛ لينتهي الناس عنه فيعرف لكل ذي حق حقه»^(٢).

وقلب صفحات التعامل في واقعنا:

يختلف أحدنا مع شخص آخر من أصدقائه، أو مع أحد من هل الفضل والخير، فإذا غضب عليه أطاح به، ونسي جميع حسناته، وجميع فضائله، وإذا تكلم عنه تكلم

(١) الاستقامة: (١ / ٣٨).

(٢) البيان والتحصيل: (١٨ / ٣٠٦).

عليه بما لا يتكلم به أشد الناس عداوة، والعياذ بالله!

وقُلْ مثل ذلك: في تعاملنا مع زلة العالم، أو خطأ الداعية، الذين عرف عنهم جميعاً تلمس الخير، والرغبة في الوصول إلى الحق، ولكن لم يوفق في هذه المرة أو تلك، فتجد بعض الناس ينسى أو ينسف تاريخه وبلاءه وجهاده ونفعه للإسلام وأهله، بسبب خطأ لم يحتمله ذلك المتكلم أو الناقد، مع أنه قد يكون معذوراً فيه!

ولنفترض أنه غير معذور، فما هكذا تورد الإبل، وما هكذا يريينا القرآن! بل إن هذه القاعدة القرآنية التي نحن بصدد الحديث عنها تؤكد ضرورة الإنصاف، وعدم بخس الناس حقوقهم.

وثمة صورةٌ أخرى -تتكرر يومياً تقريباً- يغيب فيها الإنصاف، وهي أن بعض الكتاب والمتحدثين حينما ينتقد جهازاً حكومياً، أو مسئولاً عن أحد الوزارات، يحصل منه إجحاف وبخس للجوانب المشرقة في هذا الجهاز أو ذاك، ويبدأ الكاتب أو المتحدث - بسبب النفسية التي دخل بها - لا يتحدث إلا من زاوية الأخطاء، ناسياً أو متناسياً النظر من زاوية الصواب والحسنات الكثيرة التي وُفق لها ذاك المرفق الحكومي، أو ذلك الشخص المسئول!

وما هكذا يربي القرآن أهله، بل القرآن يرييهم على هذا المعنى العظيم الذي دلّت عليه هذه القاعدة المحكمة: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

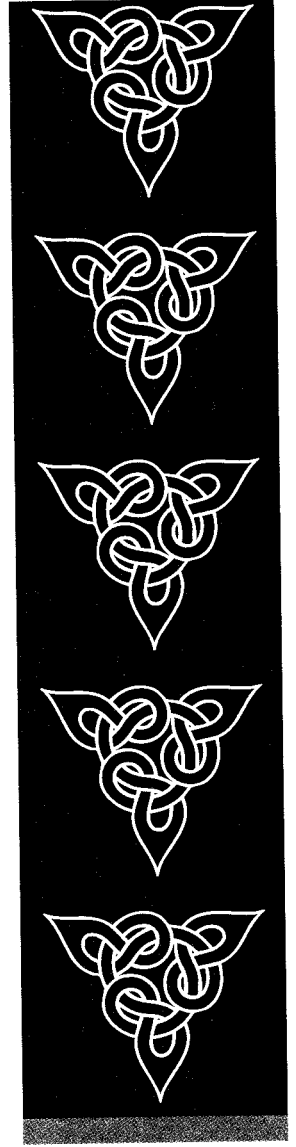
وتلوح هنا صورة مؤلمة في مجتمعنا، تقع من بعض الكفلاء الذين يبخسون حقوق خدمهم أو عمالهم، فيؤخرون رواتبهم، وربما حرموهم من إجازتهم المستحقة لهم، أو ضربوهم بغير حق، في سلسلة مؤلمة من أنواع الظلم والبخس! أفلا يتقي الله هؤلاء؟! ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (٤) ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥) ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦] ألا يخشون أن يُسلطَ عليهم - بسبب ظلمهم لمن تحت أيديهم

ويخسهم حقوق خدمهم وعمالهم - من يظلمهم ويخسهم حقوقهم؟! ألا يخشون
من عقوبات دنيوية - قبل الآخروية - تصيهم بما صنعوا؟!!

يقع البخس - أحياناً - في تقييم الكتب أو المقالات على النحو الذي أشرنا إليه
أنفأ، ولعل من أسباب غلبة البخس على بعض النقاد في هذه المقامات، أن الناقد يقرأ
بنية تصيد الأخطاء والعيوب، لا بقصد التقييم المنصف، وإبراز الصواب من الخطأ،
عندها يتضخم الخطأ، ويغيب الصواب، والله المستعان.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإنصاف من أنفسنا، والإنصاف لغيرنا، وأن يجعلنا
من المتأدبين بأدب القرآن العاملين به.





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة التاسعة والعشرون

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة الصلة بواقع الناس، وازدادت الحاجة إلى التنويه بها في هذا العصر الذي اتسعت فيه وسائل نقل الأخبار، وكثر فيها تكالب الأعداء بصنفيهم: المعلن والخفي.

ولكي تفهم هذه القاعدة جيداً، فلا بد من ذكر السياق الذي وردت فيه من سورة النساء، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مَن الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِلِسَانِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٤ - ٤٦].

وهذا - كما هو ظاهر - : «ذم لمن ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾، وفي ضمنه تحذير عباده عن الاغترار بهم، والوقوع في أشراكهم، فأخبر أنهم في أنفسهم ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ﴾ أي: يحبونها محبة عظيمة، ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير في طلب ما يحبه؛ فيؤثرون الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، والشقاء على السعادة،

ومع هذا ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ ... فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص، باذلون جهدهم في ذلك.

ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين وناصرهم، بيّن لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال، ولهذا قال: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: يتولى أحوال عباده ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينصرهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم، فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر، ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم وإيثارهم الباطل على الحق فقال: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: اليهود وهم علماء الضلال منهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ...﴾^(١) إلخ تلك الجرائم التي تلطخوا بها.

هؤلاء العلماء الضلال من أهل الكتاب صنف من أصناف الأعداء الذين حذرنا الله منهم، وإذا كان الله ﷻ يخبرنا هذا الخبر الصادق في هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ فحري بنا أن نتأمل جيدًا فيمن وصفهم ربنا بأنهم أعداء لنا، فليس أصدق من الله قِيلًا، ولا أصدق من الله حديثًا.

وعلى رأس أولئك الأعداء:

١ - عدو الله إبليس، الذي لم يأت تحذير من عدو كما جاء من التحذير منه، فكم في القرآن من وصفه بأنه عدو مبین؟ بل إن من أبلغ الآيات وضوحًا في بيان حقيقته وما يجب أن يكون موقفنا منه، هو قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]!

وقد جاء التعجب الصريح، والذم القبيح لمن قلب عداوة إبليس إلى ولاية، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ

(١) تفسير السعدي: (ص ١٨٠-١٨١).

عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفْتَتَخِذُونَهُ، وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ [الكهف: ٥٠]!

٢- الكفار المحاربون لنا، ومن كان في حكمهم ممن يريد تبديل ديننا، أو طمس معالم شريعتنا، قال تعالى - في سياق آيات صلاة الخوف من سورة النساء -: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٠١].

قال أهل العلم: «والمعنى أن العداوة الحاصلة بينكم وبين الكافرين قديمة والآن قد أظهرتم خلافهم في الدين وازدادت عداوتهم وبسبب شدة العداوة أقدموا على محاربتكم وقصد إتلافكم إن قدروا فإن طالَّت صلواتكم فربها وجدوا الفرصة في قتلكم»^(١).

وفي سورة الممتحنة ما يجلي هذا النوع من الأعداء، يقول ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيْنَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَشْفِقُكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَسْنَانُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ١ - ٢].

فهذا النوع من الكفار حرم الله علينا مودتهم وموالاتهم، وعلل القرآن هذا بقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الخ: الآيات].

ومن كمال الشريعة أنها فرقت بين أنواع الكفار، فقال الله تعالى في نفس سورة الممتحنة - التي حذرنا ربنا فيها من موالاته الصنف السابق -: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾

(١) ينظر: تفسير الرازي (١١ / ١٩).

إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلْتُمُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ^٤
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٨﴾ [المتحنة: ٨ - ٩].

٣- والصنف الثالث الذين نص القرآن على عداوتهم، بل وشدتهم: هم المنافقون، الذين يظهرن الإيمان ويبطنون الكفر، وتتجلى شدة عداوة هذا الصنف في أمور:

أولاً: أنه لم يوصف في القرآن كله من فاتحته إلى خاتمته شخص أو فئة بأنه «العدو» معرّفًا بـ (أل) إلا المنافقون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ حُشْبٌ مَسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنَالَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مَوْتٌ وَأَن يُكْفَرُوا﴾ [المنافقون: ٤].

ثانياً: لم يأت تفصيل في القرآن والسنة لصفات طائفة أو مذهب كما جاء في حق المنافقين، وتأمل أوائل سورة البقرة يكشف لك هذا المعنى بوضوح.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين وكشف أسرارهم في القرآن وجلّى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر.

وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين والكفار والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية؛ لكثرتهم، وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً؛ لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة.

يخرجون عداوته في كل قالب، يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد!

فله كم من معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخرّبوه! وكم من علم له قد طمسوه! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه! وكم

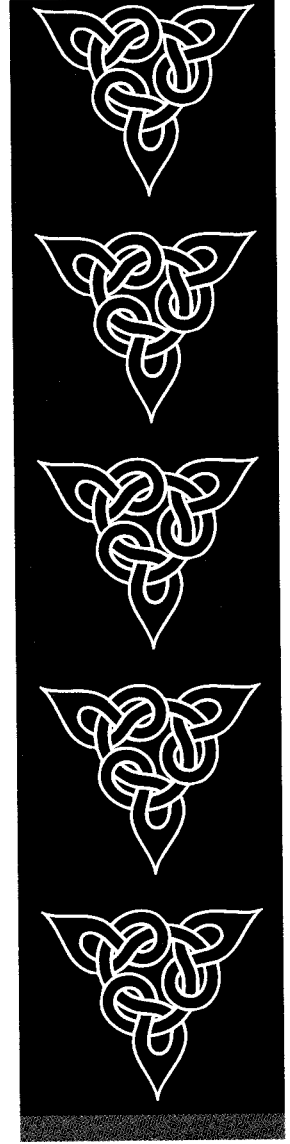
ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها! وكم عمّوا عيون موارد به بأرائهم ليدفنوها ويقطعوها! فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون! ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»^(١).

إذا تبين هذا، اتضح لنا أهمية تأمل هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾، وأن لا نتخذنا عن معرفة حقائق أعدائنا ظروف استثنائية، أو أحوال خاصة، فإن الذي أخبرنا بهؤلاء الأعداء هو الله الذي خلقهم وخلقنا، ويعلم ما تكنه صدور العالمين أجمعين، ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؟!

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.



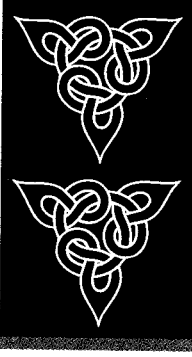
(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٤٧).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة

الثلاثون

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية، وقاعدة إيمانية، تمتد جذورها في قلوب الموحدين، في غابر الزمان وحاضره، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومعنى هذه القاعدة ظاهر بين، فإنها تدل على أن من توكل على ربه ومولاه في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وفعل ما أمر به من الأسباب، مع كمال الثقة بتسهيل ذلك، وتيسيره ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به^(١).

إن هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ جاءت في سياق الحديث عن آيات الطلاق في سورة الطلاق، لبيان جملة من المبررات التي تنتظر من طبق شرع الله في أمر الطلاق، فقال ﷺ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

(١) ينظر: تفسير السعدي (٨٦٩).

وأما مناسبة مجيء هذا المعنى بعد ذكر هذه الأحكام المتعلقة بالطلاق، فلعل السر - والله أعلم - هو تضمينها للتحذير والتطمين!

أما التحذير: فهو متجه لكل واحد من الزوجين اللذين قد تسول له نفسه مجاوزة حدود الله تعالى في أمر الطلاق، سواء فيما يتعلق بالعدة، أو النفقة، أو غير ذلك، خصوصاً وأن النفوس حال الطلاق قد تكون مشحونة، وغير منضبطة في تصرفاتها غالباً، وقد تتصرف بما تمليه حالة الغضب، بلا تجرد ولا إنصاف!

وأما التطمين: فهي لمن صدق مع الله في تطبيق شرع ربه في أمر الطلاق، وأنه وإن كيد به أو له، فإن الله معه، وناصره، وحافظ حقه، ودافع كيد من يريد به كيداً، والله أعلم بمراده.

ومع أن هذه القاعدة وردت في سياق آيات الطلاق - كما أسلفت - إلا أن معناها أعم وأشمل من أن يُختصر في هذا الموضوع، وآيات القرآن الكريم طافحة بالحديث عن التوكل، وفضله، والثناء على أهله، وأثره على حياة العبد.

وقبل الإشارة المائلة إلى ذلك: يحسن التذكير بأن النصوص دلّت على أن من كمال التوكل فعل الأسباب، وهذا بين ظاهر، لكن ينبّه عليه؛ لأن بعض الناس قد يظن - خطأً - أن التوكل يعني تعطيل الأسباب! وهذا غلط بين، ومن تأمل قصة موسى عليه السلام لما واجه البحر، وقصة مريم عليها السلام لما ولدت، وغيرهم من الأولياء والصالحين، يجد أنهم جميعاً أمروا بفعل أدنى سبب، فموسى أمر بضرب الحجر، ومريم أمرت بهز الجذع، وما أحسن ما قيل:

«الالتفاتُ إلى الأسباب بالكلية شركٌ منافٍ للتوحيد، وإنكار أن تكون أسباباً بالكلية قدح في الشرع والحكمة، والإعراض عنها - مع العلم بكونها أسباباً - نقصان في العقل، وتنزيلها منازلها ومدافعة بعضها ببعض، وتسليط بعضها على بعض، هو

محض العبودية والمعرفة وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة»^(١).

إنَّ التَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﷻ مَطْلُوبٌ فِي كُلِّ شَأْنٍ الْحَيَاةِ، بِيَدِ أَنْ هُنَاكَ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٌ وَرَدَ فِيهَا الْحِصْ عَلَى التَّوَكَّلِ وَالْأَمْرُ بِهِ لِلْمُصْطَفَى ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ! وَرِسَائِلُ الْقُرْآنِ تَقُولُ:

«١- إِنْ طَلَبْتُمْ النَّصْرَ وَالْفَرَجَ فَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ: ﴿إِنْ يَضُرُّكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ط وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَايْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

٢- إِذَا أَعْرَضْتَ عَنْ أَعْدَائِكَ فَلْيَكُنْ رَفِيقَكَ التَّوَكُّلُ: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

٣- إِذَا أَعْرَضَ عَنْكَ الْخَلْقُ فَتَوَكَّلْ عَلَى رَبِّكَ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩].

٤- إِذَا طَلَبْتَ الصَّلْحَ وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ قَوْمٍ لَا تَتَوَسَّلُ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالتَّوَكُّلِ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

٥- إِذَا وَصَلَتْ قَوَافِلُ الْقَضَاءِ فَاسْتَقْبَلْهَا بِالتَّوَكُّلِ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَايْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

٦- وَإِذَا نَصَبْتَ الْأَعْدَاءَ حِبَالَاتِ الْمَكْرِ فَادْخُلِي أَنْتِ فِي أَرْضِ التَّوَكُّلِ: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

٧- وَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ مَرْجِعَ الْكُلِّ إِلَى اللَّهِ وَتَقْدِيرَ الْكُلِّ فِيهَا لِلَّهِ؛ فَوَطِّنْ نَفْسَكَ عَلَى

(١) مدارج السالكين: (١/ ٢٤٤) بتصرف.

فرش التوكل: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

٨- وإذا علمت أن الله هو الواحد على الحقيقة، فلا يكن اتكالك إلا عليه: ﴿قُلْ

هُورَبِّي لِآلِهَةٍ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ [الرعد: ٣٠].

٩- وإذا كانت الهداية من الله، فاستقبلها بالشكر والتوكل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا

نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

١٠- وإذا خشيت بأس أعداء الله، والشيطان والغدار فلا تلتجئ إلا إلى باب

الله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

١١- وإذا أردت أن يكون الله وكيلك في كل حال، فتمسك بالتوكل في كل

حال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

١٢- وإذا أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك فانزل في مقام التوكل:

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢].

١٣- وإن شئت أن تنال محبة الله فانزل أولا في مقام التوكل: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

١٤- وإذا أردت أن يكون الله لك، وتكون لله خالصا فعليك بالتوكل: ﴿وَمَنْ

يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] (١).

وقبل أن نختم حديثنا عن هذه القاعدة القرآنية: أود أن أنبه إلى ما ذكره العلامة

ابن القيم رحمته من أن كثيرا من المتوكلين يكون مغبونا في توكله!

(١) جميع ما تقدم من ١ - ١٤ من كلام الإمام اللغوي المفسر الفيروز آبادي رحمته في كتابه:

«بصائر ذوي التمييز»: (٢/٣١٣-٣١٥) باختصار يسير.

وبيان ذلك - كما يقول -: أنك ترى بعض الناس يصرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله، مع أنه يمكنه نيلها بأيسر شيء، وفي المقابل ينسى أو يغفل عن تفرغ قلبه للتوكل في زيادة الإيثار، والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيراً، فهذا توكل العاجز القاصر المهمة، كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيثار ومصالح المسلمين^(١).

وهنا ملحوظ مهم يستفاد من كلامه رَحِمَهُ اللهُ: وهو أن الواحد منا - في حال نشاطه وقوة إيمانه - قد يقع منه نسيان وغفلة عن التوكل على الله؛ اعتماداً على ما في القلب من قوة ونشاط، وهذا غلط ينبغي التنبيه إليه، والحذر منه، ومن تأمل في أدعية النبي ﷺ وجدته دائماً الافتقار إلى ربه، ضارعاً إلى ربه أن لا يكفه إلى نفسه طرفة عين، حتى ربي أمته على هذا المعنى في شيء قد يظنه البعض بسيطاً أو سهلاً، وهو أن يقولوا: «لا حول ولا قوة إلا بالله» عند سماع المؤذن في الحيعلتين!^(٢).

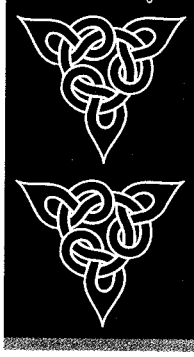
(١) ينظر: مدارج السالكين: (٢/ ٢٢٥) بتصرف.

(٢) أخرجه الشيخان: البخاري ح (٥٨٨) ومسلم ح (٣٨٥)، ولم أشأ أن أستشهد بالحديث الذي رواه أبو داود وابن حبان وغيرهما: من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قال لأبيه ﷺ: يا أبا إني أسمعك تدعو كلَّ عداة: «اللَّهُمَّ عافني في بدني، اللَّهُمَّ عافني في سمعي، اللَّهُمَّ عافني في بصري، لا إله إلا أنت»، تُعيدُها ثلاثاً حين تُصبح، وثلاثاً حين تُمسي؟ فقال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يدعو بهنَّ، فأنا أُحِبُّ أن أستنَّ بسنته. قال عبَّاسٌ فيه: وَتَقُولُ: «اللَّهُمَّ إني أعودُ بك من الكفرِ والفقرِ، اللَّهُمَّ إني أعودُ بك من عذابِ القبرِ، لا إله إلا أنت»، تعيدها ثلاثاً حين تُصبح، وثلاثاً حين تُمسي، فتدعو بهنَّ، فأحِبُّ أن أستنَّ بسنته. قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «دَعَوَاتُ المَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحِمَتِكَ أَرْجُو، فلا تكلني إلى نفسي طَرْفَةَ عينٍ، وأصلح لي شأني كلَّهُ، لا إله إلا أنت»؛ لأن إسناده ضعيف، وينظر في تحريجه: مسند أبي داود الطيالسي (٢/ ٢٠٠) ح (٩٠٩، ٩١٠) والله أعلم.

وقد أجمع العلماء على أن التوفيق: ألا يكل الله العبدَ إلى نفسه، وأن الخذلان كل الخذلان: أن يخلي بينه وبين نفسه!

اللهم إنا نبرأ من كل حول وقوة إلا من حولك وقوتك، ونعوذ بك أن نوكل إلى أنفسنا طرفة.





القاعدة الحادية والثلاثون

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

هذه قاعدة قرآنية وإيمانية، وثيقة الصلة بواقع الناس الاجتماعي، بل وبأخص تلك العلاقات الاجتماعية، تلکم هي القاعدة القرآنية التي دل عليها قول الله تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت ضمن سياق توجيه رباني عظيم، يقول الله تعالى فيه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ومما يعين على فهم هذه القاعدة، أن نذكر بسبب نزول هذه الآية الكريمة، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوّجوها، وإن شاءوا لم يزوّجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك ^(١).

يقول العلامة ابن العربي المالكي:

«وحقيقة: (عشر) في اللغة العربية الكمال والتمام، ومنه: العشيرة، فإنه بذلك

(١) البخاري (٤٣٠٣).

كامل أمرهم، وصح استبدادهم عن غيرهم، وعشرةٌ تمام العقد في العدد، فأمر الله سبحانه الأزواج إذا عقدوا على النساء أن يكون أدمّة ما بينهم وصحبتهم على التمام والكمال، فإنه أهدأ للنفس، وأقر للعين، وأهنأ للعيش، وهذا واجب على الزوج، ومن سقوط العشرة تنشأ المخالعة، وبها يقع الشقاق، فيصير الزوج في شق، وهو سبب الخلع^(١).

ويقول العلامة الجصاص الحنفي رَحِمَهُ اللهُ مَعْلَقًا على هذه القاعدة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾:

هو «أمر للأزواج بعشرة نسائهم بالمعروف، ومن المعروف: أن يوفى بها حقها من المهر، والنفقة، والقسم، وترك أذاها بالكلام الغليظ، والإعراض عنها والميل إلى غيرها، وترك العبوس والقطوب في وجهها بغير ذنب»^(٢).

إن من تأمل وتدبر دلالات هذه القاعدة العظيمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أدرك أن هذا القرآن هو حقًا كلام الله ﷻ، وبيان ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن هذه القاعدة رقم قصر كلماتها - وهي كما ترى - كلمتان، اشتملت على معانٍ عظيمة، يطول شرحها، وما حديثنا عنها هنا إلا إضاءة وإشارة فحسب.

الوجه الثاني: أن الله تعالى ردّ أمر المعاشرة إلى العرف، ولم يحدده بشيء معين؛ لاختلاف الأعراف والعادات بين البلدان كما هو معروف وظاهر، و لاختلاف مكانة الأزواج من الناحية المالية والاجتماعية، إلى غير ذلك من صور التفاوت التي هي من سنن الله في خلقه.

(١) أحكام القرآن: (٣٦٣/٢) لابن العربي، بتصرف يسير.

(٢) أحكام القرآن: (٤٧/٣) للجصاص.

وليست هذه هي القضية الوحيدة التي يردُّ الشرعُ فيها أمور التعامل إلى العرف، بل جاء ذلك في مواضع كثيرة، من ألصقها بما نحن بصدد الحديث عنه، قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فكما أن القاعدة التي نحن بصدددها: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ تأمر الأزواج بمعاشرة أزواجهن بالمعروف، فإن هذه الآية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] تأمر كلا الطرفين بذلك.

ويقول: ﴿الطَّلُوقُ مَرَّتَيْنٍ فَإِمْسَاكُهُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُهُ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ويقول جل شأنه: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وفي شأن النفقة على الموضع والمرضع يقول الله ﷻ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] إذ ليست نفقة الغني كنفقة الفقير، ولا نفقة الموسر كالمعسر.

ولعظيم موقع هذه المعاني التي دلت عليها هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أكد النبي ﷺ هذه الحقوق في أعظم مجمع عرفته الدنيا في ذلك الوقت؛ حين خطب الناس في يوم عرفة فقال: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»^(١).

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً.

والمقصود التنبيه على عظيم موقع هذه القاعدة الشرعية، والتي يتألم المؤمن من كثرة ما يرى من هتك حرمتها، وعدم مراعاة لحدودها! فترى بعض الرجال لا يحسن

(١) مسلم (١٢١٨).

إلا حفظ وترديد الآيات والحقوق التي تخصه، ولا يتحدث عن النصوص التي تؤكد حقوق زوجته، فويل للمطففين.

وفي المقابل فإن على الزوجة أن تتقي الله ﷻ في زوجها، وأن تقوم بحقوقه قدر الطاقة، وأن لا يحملها تقصير زوجها في حقها على مقابلة ذلك بالتقصير في حقه، وعليها أن تصبر وتحسب.

وليتدبر كل من الزوجين ما قصه الله تعالى في سورة الطلاق من أحكام وتوجيهات عظيمة، فإن الله تعالى - لما ذكر أحكامًا متنوعة في تلك السورة - عقب على كل حكم بذكر فوائد التقوى التي هي سبب كل خير، فقال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطلاق: ٤]، وقال تقديس اسمه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝٥﴾ [الطلاق: ٥]؛ ولعل السر في تتابع هذه التعقيبات: أن أحوال الطلاق والفراق - مع وجود الحمل والإرضاع أو بقاء العدة - قد تحمل أحد الطرفين على التقصير والبغي، ونحو ذلك من التجاوزات، فجاءت هذه التعقيبات الإلهية لتبشر المتقين، ولتحذير المجانفين للتقوى، بأن أضداد هذه الوعود الإلهية ستحصل إن أنتم فرطتم في تطبيق شرع الله، ويوضح هذا المعنى ختم السورة بهذه الآية المخوفة: ﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرِيْبَةٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ۚ فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيْدًا وَعَذَّبْنَهَا عَذَابًا نُكْرًا ۝٨﴾ فذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيْدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا...﴾ [الطلاق: ٨ - ١٠].

لقد كان سلف هذه الأمة يفقهون حقًا معاني هذه النصوص العظيمة، ومن ذلك هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، فهذا حبر الأمة

وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما، يقول: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وما أحب أن أستنطف - أستوفي - جميع حقي عليها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾»^(١).

وقال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلي: أتيت محمد ابن الحنفية فخرج إلي في ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية - وهو نوع نفيس من الطيب - فقلت: ما هذا؟ قال: إن هذه الملحفة ألفتها علي امرأتي ودهنتني بالطيب، وإنهن يشتهين منّا ما نشتهيه منهن^(٢).

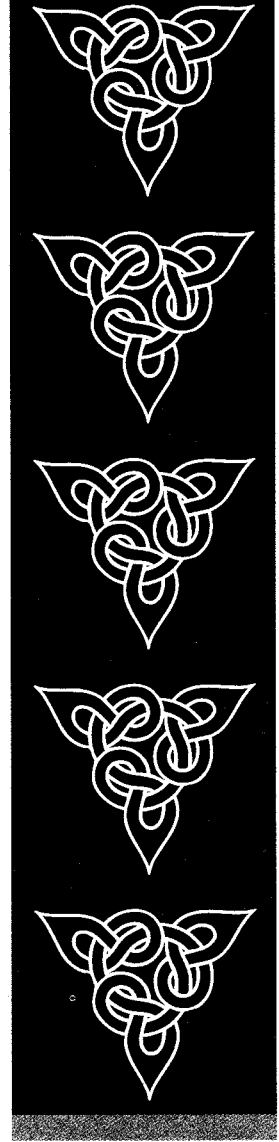
وبعد: هذه هي نظرة الإسلام العميقة للعلاقة الزوجية، اختصرتها هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وكذلك: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فهي علاقة قائمة على المعاشرة بالمعروف، وعلى الصبر على ما قد يبدر من الطرفين من تقصير، فإن كانت العلاقة غير قابلة للاستمرار فيأتي الأمر بالتسريح بالمعروف - أيضًا - الذي يحفظ حق الكرامة لكلا الطرفين؛ كلُّ هذا يجعل المؤمن يفخر ويمجد الله على هدايته وانتمائه لهذه الشريعة العظيمة الكاملة من كل وجه، وينظر بعين المقت لتلك الأقدام الدنسة، والدعوات الخبيثة التي تجرئ المرأة - إذ أرأت من زوجها ما تكره - وتوحي للرجل - إذ رأى من زوجته ما يكره - أن ينحرف قلبه عن مساره الشرعي ليقيم علاقة محرمة مع هذه أو ذاك!!

اللهم كما هديتنا لهذه الشريعة فارزقنا العمل بها، والشبات عليها حتى نلتاق.



(١) مصنف ابن أبي شيبة: (١٠/٢١٠) ح (١٩٦٠٨).

(٢) ذكرها القرطبي في تفسيره: (٦/١٦٠).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الثانية والثلاثون

﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية إيمانية، وثيقة الصلة بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم بالذات، وهي تعيش هذه التغيرات المتسارعة، والتي خالها البعض خارجةً عن سنن الله تعالى!! وليس الأمر كذلك.

وهذه القاعدة الكريمة جاءت في سياق تهديد الكفار الذين قابلوا الدعوة إلى الإسلام بالتكذيب والجحود، والاستهزاء والسخرية، قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَنِّ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا فَهِيَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٨].

فقوله ﷻ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ...﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ والمعنى: أن هؤلاء الكفار يقولون: «لو كان محمد صادقاً في وعيده لعُجِّلَ لنا وعيده، فكانوا يسألونه التعجيل بنزول العذاب استهزاء، كما حكي الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ

فَأَمَطَرْنَا عَلَيْكَ حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أَنْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾، وفي قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فذكر ذلك في هذه الآية بمناسبة قوله: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ الآية، وحكي: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ بصيغة المضارع؛ للإشارة إلى تكريرهم ذلك؛ تجديداً منهم للاستهزاء وتوركا على المسلمين^(١).

ثم جاء التعقيب على هذه المقالة الآثمة، بهذه القاعدة التي تسكب اليقين والطمأنينة في نفس النبي ﷺ ونفوس أتباعه من المؤمنين المضطهدين، الذين امتلأت أذانهم من استهزاء هؤلاء الكفار، فقال الله - وهو أصدق من وعد وأصدق من وقى -

﴿لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾.

وإذا تقرر أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن هذه القاعدة القرآنية: ﴿لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لا تختص بهذا المعنى الذي وردت الآية في سياقه - وهو تعذيب الكفار - بل هي عامة في كل ما وعد الله به؛ إذ لا مكره لربنا جل وعلا، ولا راد لأمره ومشيئته، ولكن الشأن في تحقق العباد بفعل الأسباب المتعلقة بما وعد الله به.

كما أن هذه القاعدة القرآنية: ﴿لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ دلت على معنى يُقَرَّرُ بعض اللغويين خلافه، وهو أنه اشتهر عند كثيرين أن الوعد خاص بالخير، والوعد متعلق بالشر، وينشدون في هذا البيتين المشهورين:

ولا يرهب ابن العم والجار سطوتي ولا أنتني عن سطوة المتهدد
فإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدتي

وهذه القاعدة التي نحن بصددنا تخالف هذا الإطلاق، يقول العلامة الشنقيطي - بعد أن ذكر عدة شواهد تؤكد خطأ هذا الإطلاق - : «ومن الآيات الموضحة لذلك

(١) التحرير والتنوير: (١٧/٢١٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِنَ ذَلِكُمْ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢] فإنه قال في هذه الآية في النار: ﴿وَعَدَّهَا اللَّهُ﴾ بصيغة الثلاثي الذي مصدره الوعد، ولم يقل: أو وعدها، وما ذكر في هذه الآية، من أن ما وعد به الكفار من العذاب واقع لا محالة، وأنه لا يخلف وعده بذلك، جاء مبيناً في غير هذا الموضع... - ثم ذكر جملة من الشواهد، ثم قال:- وبالتحقيق الذي ذكرنا: تعلم أن الوعد يطلق في الخير والشر كما بينا^(١).

إذا تقرر عموم هذه القاعدة في الخير والشر، فإنها - بلا ريب - من أعظم ما يجدد الفأل في نفوس أهل الإسلام، في الثبات على دينهم ومنهجهم الحق، بل وتزيدهم يقيناً بما عليه أهل الكفر والملل الباطلة من ضلال وانحراف، وبيان هذا: أن المؤمن لا يزال يرى - إما بعين البصر أو البصيرة - صدق ما وعد به أوليائه في الدنيا، كيف لا وهو يقرأ نماذج مشرقة في كتاب الله ﷻ!

ألسنا نقرأ قول ربنا في سورة آل عمران في سياق الحديث عن غزوة أحد:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: إِذْ تَحُسُّونَهُم بِأِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؟

أين نحن عن فواتح سورة الروم التي يقول الله تعالى فيها: ﴿الْمَعْرُ ١ غَلِبَتْ

الرُّومُ ٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣ فِي بِيضِ سِنِينَ ٤

لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ

مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٥ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ١ - ٧].

وهذه الآيات من سورة الروم، تشير إلى سبب كبير في ضعف اليقين تجاه الوعود

الربانية، ألا وهو: التعلق بالدنيا، والركون إليها، ولهذا فإنك لو تأملت لوجدت أن

(١) أضواء البيان: (٥/٢٧٦).

أضعف الناس يقيناً بموعد الله هم أهل الدنيا، الراكنين إليها، وأقواهم يقيناً هم العلماء الربانيون، وأهل الآخرة، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

ولا يشكل على هذا ما يمر على القارئ من آيات قد يفهم منها أن فيها نوعاً من التردد في تصديق وعد الله، أو الشك في ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ وَالنَّصْرَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا وَإِنَّهُمْ بِرُؤْسِهِمْ لَكَارِهُِونَ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وكقوله ﷺ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]، فإن هذه الآيات إنما تحكي حالة عارضة تمر بالإنسان - بسبب ضعفه حيناً، وبسبب استعجاله أحياناً - وليست حالة دائمة، وإذا كان الشك في موعد الله لا يصح أن ينسب إلى آحاد المؤمنين، فهو من الأنبياء والمرسلين أبعد وأبعد، ولكن - ولحكمة بالغة - جاءت هذه الآيات لتطمئن المؤمنين من هذه الأمة أن حالات اليأس التي قد تعرض للعبد مجرد عرض بسبب شدة وطأة أهل الباطل، أو تسلط الكفار، فإنها لا تؤثر على إيمانه، ولا تقدح في صدقه وتصديقه؛ ولهذا - والله تعالى أعلم - يأتي مثل هذا التثبيت في بعض الأحوال التي تعترض نفوس أهل الإيمان فترة نزول الوحي، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِيَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٧].

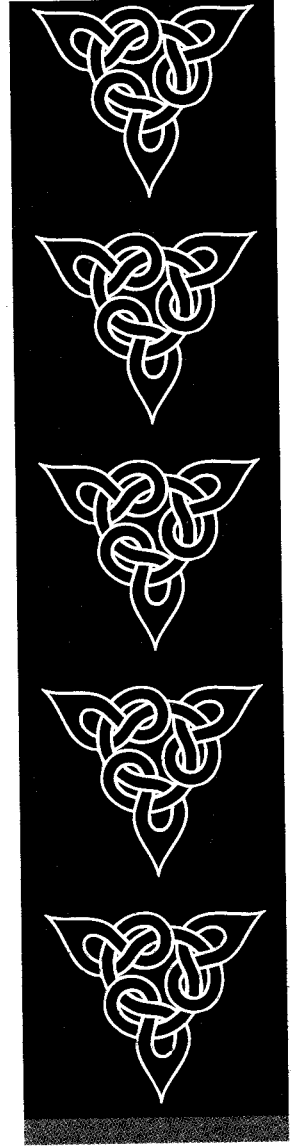
والمؤمن ليس من شأنه أن يقترح أجلاً لإهلاك الكفار، أو موعداً لنصر الإسلام، أو غير ذلك من الوعود التي يقرأها في النصوص الشرعية، ولكن من شأنه أن يسعى

في نصرة دينه بما يستطيع، وأن لا يظل ينتظر مضي السنن؛ فإن الله لم يتعبدنا بهذا، وعليه أن يفتش في مقدار تحققه بالشروط التي ربطت بها تلك الوعود، فإذا قرأ -مثلاً- قول الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] فعليه هنا أن يفتش عن أسباب النصر التي أمر الله بها: هل تحققت فيه فرداً أو في الأمة على سبيل المجموع؛ ليدرك الجواب على هذا السؤال: لماذا لا تنتصر الأمة على أعدائها؟!

ولو ذهب الإنسان إلى تعداد الآيات الموضحة لهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لطلال به المقام، ولكن حسبنا ما ذكر.

ولعلنا نختم هذه القاعدة بهذه اللطيفة المتصلة بها: ذلك أن هذه القاعدة تضمنت تمدح الله بهذا، وثناءه على نفسه، ويتضح لك هذا المعنى إذا قرأت ما حكاه الله تعالى عن إبليس -وهو يخطب في حزبه وأوليائه في جهنم- حيث يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ فسبحان من تمدح بالكمال وهو أهل له، وسبحان من وعد فأوفى، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]؟

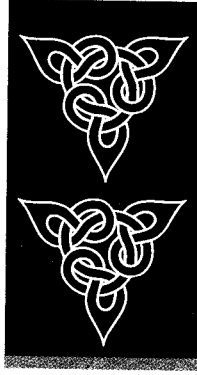




قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة

الثالثة

والثلاثون

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾

هذه قاعدة قرآنية، وضوابط شرعية في مسألة حدث ولا زال يحدث فيها الخلل؛ بسبب القصور أو التقصير في تلمس الهدى القرآني في تطبيق تلك القاعدة القرآنية. وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في أثناء قصة قارون، الذي غره ماله، وغرته نفسه الأمانة بالسوء، فقال - لما قيل له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] فقال قوله المستكبر -: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] نعوذ بالله من الخذلان.

والشاهد: أن هذه القاعدة هي ميزان عظيم في التعامل مع المال، الذي هو مما استخلف الله العباد عليه، ولهذا سيسألهم يوم القيامة عنه سؤالين: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ كما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه (١).

إن من أعظم مزايا هذا الدين ومحاسنه، أنه دين يدعو إلى التوازن في كل شيء،

(١) الترمذي (٢٤١٧) وإسناده حسن، وفي الباب عن ابن مسعود رضي الله عنه وفي سنده ضعف.

من غير إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء - في أمر الدين أو الدنيا- وهذا ما تقرره هذه القاعدة بوضوح وجلاء: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَاءَ أَتَيْتَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، ولو تأملنا هذه الآية لوجدنا ترتيب الكلام فيها كأنه عقد نُظِمَ كأحسن ما يكون النُّظْم، فهي قد اشتملت على أربعة وصايا عظيمة، أحوج الناس إليها - في هذا المقام - هم أرباب الأموال، فلتتأملها جميعاً:

الأولى: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَاءَ أَتَيْتَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ فإن الآخرة هي المستقبل الذي يجب على كل عاقل أن يسعى للنجاة فيها، وأن يجعل حاضره من الدنيا تمهيداً لها، وأن يجعل سعيه في حياته غراساً ليوم الحصاد.

وقارون قد حصل عنده من وسائل الغرس في الآخرة ما ليس عند أكثر الناس، فأمره الله أن يعمل فيها بأعمال يرجو فيها ما عند الله، وأن يتصدق ولا يقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات.

وأما الوصية الثانية: فهي ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾:

«والنهي في ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ﴾ على سبيل الإباحة، فالنسيان هنا كناية عن الترك، والمعنى: لا نلومك على أن تأخذ نصيبك من الدنيا - أي الذي لا يأتي على نصيب الآخرة -، وهذا احتراس في الموعظة خشية نفور الموعوظ من موعظة الواعظ؛ لأنهم لما قالوا لقارون: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَاءَ أَتَيْتَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أو هموا أن يترك حظوظ الدنيا فلا يستعمل ماله إلا في القربات، قال قتادة: نصيب الدنيا هو الحلال كله!

وبذلك تكون هذه الآية مثلاً لاستعمال صيغة النهي بمعنى الإباحة، و﴿مِنْ﴾

للتبويض، والمراد بالدنيا نعيمها، فالمعنى: نصيبك الذي هو بعض نعيم الدنيا^(١).

(١) التحرير والتنوير: (٢٠ / ١٠٨) بتصرف واختصار.

وههنا سؤال قد يطرحه بعض الناس: وهو أن الإنسان جُبِلَ فطرةً على حب المال، والتعلق بشيء مما لا بد له منه في هذه الدنيا، فكيف أمر أن لا ينسى نصيبه، وهو أمرٌ شبه المستحيل، بل المتوقع أن يقال: ولا تنس نصيبك من الآخرة؟!

فالجواب -والله تعالى أعلم بمراده-: أن هذه الآية جاءت لضبط التوازن، كما أسلفنا في التعامل مع زينة الدنيا، ومن ذلك: المال، فقد يسمع أحد التجار أو الأثرياء مثل هذه الموعدة فيظن أن القصد أن يتخلى عن كل شيء من نعيم الدنيا ولو كان مباحًا، فيقال له: وإن أمرت بأن يكون جل همك الآخرة، فلسنا نطلب منك ترك ما أباح الله تعالى، بل المطلوب العدل، وإعطاء كل ذي حق حقه.

ولهذا كان من بديع تفسير الإمام مالك لهذه الآية أن قال: هو الأكل والشرب من غير إسراف، فهو يشير بهذا إلى ما ذكرناه آنفًا، والعلم عند الله.

ولقد وقع في عهد النبي ﷺ من بعض الصحابة رضي الله عنهم خلل في فهم حقيقة الزهد والتعبد، حين سألوا عن عبادة النبي ﷺ فكأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر! وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

وبهذا المنهج المتوازن المبني على الكتاب والسنة كان أئمة الإسلام، وعلماء الملة يردون على ما أحدثه بعض الزهاد والعُباد من ألوان من التزهّد التي تجافي هذا الهدى

(١) البخاري (٤٧٧٦).

النبي العظيم^(١).

وذكر بعض أهل العلم ملمحاً لطيفاً في توجيه معنى قوله: ﴿وَلَا تَسْكَنْ نِصْبَكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾ وهو أن الله ﷻ «أراد أن يجعل الدنيا شيئاً هيناً مُعْرَضاً للنسيان والإهمال، فهو يُذَكِّرنا بها، ويحُثُّنا على أن نأخذ منها بنصيب، فأنا لا أقول لك: لا تنس الشيء الفلاني إلا إذا كنتُ أعلم أنه عُرضة للنسيان، وهذا جانب من جوانب الوسطية والاعتدال في الإسلام»، والله أعلم بمراده^(٢).

أما الوصية الثالثة: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، وهذا يتفق تماماً مع العقل والشرع، قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؟
«والإحسان داخل في عموم ابتغاء الدار الآخرة ولكنه ذكر هنا ليبنى عليه الاحتجاج بقوله ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، والكاف للتشبيه، أي: كإحسان الله إليك»^(٣).

وهذه الآية فيها من التعليل والحض ما هو ظاهر، وهي كقول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] فكما تحب أن يعفو الله عنك، فاعف عن عباده، وهنا: كما تحب أن يحسن إليك ربك، ويدوم إحسانه، فلا تقطع إحسانك عن خلقه، وإلا فالله غني عن العالمين.

ورابع هذه الوصايا في هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَا تَبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

(١) ومن أكثر من رأيتهم يردون على هؤلاء: ابن الجوزي في عدد من كتبه، وابن تيمية، وابن

القيم، وغيرهم رحمة الله على الجميع.

(٢) أشار إليه الشيخ الشعراوي رحمه الله في تفسيره.

(٣) التحرير والتنوير: (٢٠ / ١٠٨).

«وعطف ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ للتحذير من خلط الإحسان بالفساد فإن الفساد ضد الإحسان، فالأمر بالإحسان يقتضي النهي عن الفساد، وإنما نص عليه؛ لأنه لما تعددت موارد الإحسان والإساءة فقد يغيب عن الذهن أن الإساءة إلى شيء مع الإحسان إلى أشياء يعتبر غير إحسان!

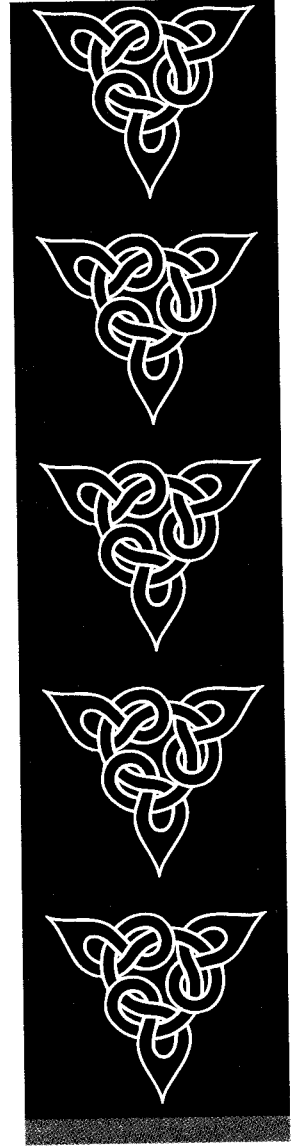
وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ علة للنهي عن الإفساد؛ لأن العمل الذي لا يحبه الله لا يجوز لعباده عمله»^(١).

وبعد هذا التطواف السريع في ظلال هذه القاعدة القرآنية الجليلة: يتبين لنا بوضوح أن هذا القرآن - كما قال منزله ﷻ -: ﴿يَهْدِي لِيَّ هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وأنه ما من قضية يحتاجها الناس إلا وحكمها في كتاب الله، كما قال الإمام الشافعي، ولكن أين المتدبرون، والناهلون من هذا المعين الذي لا ينضب؟!

اللهم إنا نسألك القصد في الفقر والغنى، ونسألك نعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ونسألك الرضاء بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ونسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين.



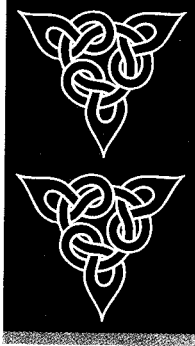
(١) التحرير والتنوير: (٢٠ / ١٠٩) بتصرف واختصار.



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الرابعة والثلاثون

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية عقديّة، نزلت قبل أربعة عشر قرناً، ولا تزال معانيها تتجدد لأهل الإسلام في كل زمان.

ولا يخفى أن هذه القاعدة المحكمة جاءت في سورة البقرة، تلك السورة التي تحدثت بتفصيل عن حقيقة أهل الكتاب، واليهود بشكل أخص - لكونهم يسكنون المدينة-.

ونزول هذه الآية الكريمة - كما أشار إليه جمع من المفسرين - جاء عقب مرحلة من محاولات النبي ﷺ لتأليف اليهود، لعلهم يستجيبون، وينقادون لدين الإسلام، فجاء هذا الخبر القاطع لكل محاولات التأليف التي كان النبي ﷺ يمارسها معهم.

يقول شيخ المفسرين ابن جرير الطبري:

«وليست اليهود - يا محمد - ولا النصرارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق؛ فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك هو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم، ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم؛ لأن اليهودية ضد النصرانية،

والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك، إلا أن تكون يهوديًا نصرانيًا، وذلك مما لا يكون منك أبدًا؛ لأنك شخص واحد، ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة، وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل، وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزم هدى الله الذي لجميع الخلق إلى الألفة عليه سبيل»^(١).

فتأمل ما تضمنته تمة هذه القاعدة من وعيد عظيم لمن اتبع أهواءهم، ولن هذا الوعيد العظيم؟! لمحمد ﷺ! مع أنه لا يمكن أن يقع منه شيء من ذلك بعصمة الله له، قال تعالى في تمة هذه القاعدة المحكمة: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وتأمل كيف قسّم الله تعالى الأمر - في هذا الأصل العظيم - إلى قسمين: هدىً وهوىً، فالهدى هو هدى الله، وليس وراء ذلك إلا اتباع الهوى: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، يقول ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ فِي تِمَّةِ تَعْلِيْقِهِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ:

«يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ﴾، يا محمد، هوى هؤلاء اليهود والنصارى - فيما يرضيهم عنك - من تهود وتنصر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم - من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتضت عليك من نبتهم في هذه السورة ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعني بذلك: ليس لك يا محمد من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرك من الله، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته، ويمنعك من ذلك، إن أحل بك ذلك ربك»^(٢).

(١) تفسير الطبري: (٢/٤٨٤).

(٢) تفسير الطبري: (٢/٤٨٤).

فإذا كان هذا الكلام موجهاً للنبي ﷺ، فمن الناس بعده؟!

وهذه القاعدة المحكمة قالها الذي يعلم السرّ وأخفى، والذي لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه، لا حاضرًا ولا مستقبلًا، فالذي قال هذا الكلام، هو الذي قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: ١٤]؟!

وقد أحسن العلامة السيد محمد رشيد رضا؛ حين لخص القواعد التي اشتملت عليها سورة البقرة، فجعل من جملة هذه القواعد: هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها فقال عن هذه الآية: إنها «آية للنبي ﷺ كاشفة عن حال أهل الملتين في عصره، ولا تزال مطردة في أمته من بعده، وقد اغتر زعماء بعض الشعوب الإسلامية؛ فحاولوا إرضاء بعض الدول بما دون اتباع ملتهم من الكفر - فلم يرضوا عنهم، ولو اتبعوا ملتهم لاشترطوا أن يتبعوهم في فهمها وصور العمل بها، حتى لا يبقى لهم أدنى استقلال في دينهم ولا في أنفسهم»^(١).

ومع وضوح هذا النص القرآني المحكم، فإنك لتتألم من تشكيك بعض المسلمين بهذه الحقيقة، وهذا التشكيك يأخذ صورًا شتى، تبدأ من التشكيك في كون هؤلاء كفارًا أصلًا! وتنتهي عند المطالبة بالتماهي والاندماج التام معهم، في مسح واضح لأصل من الأصول الكبار، ألا وهو الولاء والبراء!

ولم يفرق هؤلاء بين ما يصلح أن يؤخذ منهم، ويستفاد منه في أمور الدنيا، وبين اعتزاز المؤمن بدينه، وتمايزه بعقيده! وليس الحديث عن هذه الطوام التي لا يقولها عاقل قرأ التاريخ، فضلًا عن عقل عن الله ورسوله قولها.

وإن المؤمن - وهو يسمع أمثال هذه الكلمات الفجة - ليتساءل عن هؤلاء الكتاب

(١) تفسير المنار: (١/ ٩٥).

الذين يحملون أسماء إسلامية: ألم قول الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْبِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٢١٧﴾؟

وأين هم من قول الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴿البقرة: ١٠٩﴾!؟

ألم يتأملوا قوله ﷻ عن سائر الكفار: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿آل عمران: ١٤٩ - ١٥٠﴾!؟

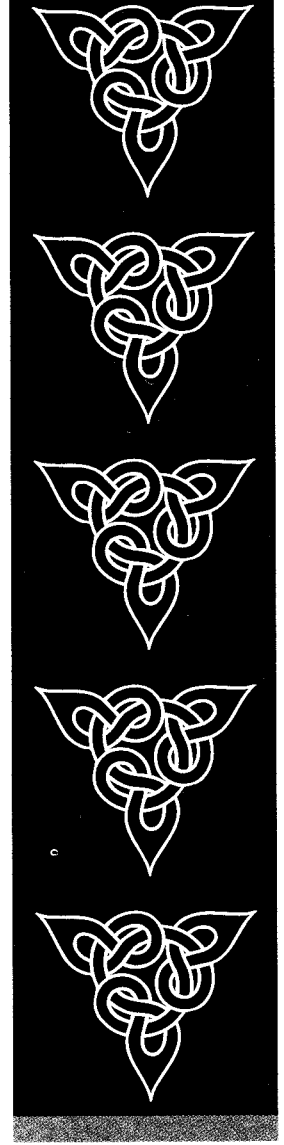
هذه شهادة من الله على أعدائنا بما يريدون منا، وما يحاولونه من صدنا عن ديننا، فهل بعد هذه الشهادة من شهادة؟ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد؟ إن هذه القاعدة المحكمة: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴿وما جاء في معناها من الآيات التي ذكرت بعضها خبراً، والخبر لا ينسخ، لأن نسخه يستلزم أن يكون المخبر بهذا كاذباً، وهذا لو كان في حق آحاد فضلاء الناس لكان من أعظم القدح فيه، فكيف إذا كان المتكلم به هو الله العليم الخبير؟!﴾

ولو أردنا أن نقلب صفحات التاريخ؛ لوجدنا الجواب الذي يزيد المؤمن يقيناً بهذه القاعدة المحكمة!، فمن الذي سمّ الشاة التي وجد النبي ﷺ أثرها حتى لقي ربه؟! ومن الذي قتل الفاروق ﷺ؟ ومن الذي سمّ جملة من الخلفاء المسلمين الذين كان لهم أثر في ضعف شوكة اليهود أو النصارى؟!

لقد غرَّ بعض هؤلاء المتحدثين - بما ذكرناه آنفًا - كونهم يتعاملون مع بعض الأفراد من اليهود والنصارى فلا يجدون منهم إلا تعاملًا جيدًا - كما يقولون - وهذا قد يقع، ولكنه لا يمكن أبدًا أن يكون قاضيًا على هذا الخبر المحكم من كلام ربنا، ذلك أن العلاقة الفردية قد يشوبها من المصالح، أو تكون حالات استثنائية، فإذا جدَّ الجدُّ، ظهرت أخلاقهم على الحقيقة، ومن له أدنى بصر أو بصيرة أدرك ما فعلته الحروب الصليبية التي غزت بلاد الشام قبل وبعد صلاح الدين! وما فعله إخوانهم وأبناؤهم في فلسطين وأفغانستان والعراق، وما حرب غزة الأخيرة إلا أكبر شاهد، ولا ينكره إلا من طمس الله بصيرته عيادًا بالله!

نسأل الله تعالى أن يثبتنا على دينه الذي ارتضاه لنا، وأن يعيذنا من الحور بعد الكور.





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الخامسة والثلاثون

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ...﴾

هذه قاعدة قرآنية إيمانية، لها صلة عظيمة بعبادة من أعظم العبادات، ألا وهي عبادة الدعاء.

وهذه القاعدة المتعلقة بالدعاء جاءت تعقيباً على جملة من آيات الصيام، فهلّم لنقف على شيء من هدايات هذه القاعدة القرآنية:

١- القرآن اشتمل على أربعة عشر سؤالاً، وكلها تبدأ بـ (يسألونك)، ثم يأتي الجواب بـ (قل) إلا في آية واحدة (فقل) في سورة طه، إلا هذا الموضع الوحيد، فإنه بدأ بهذه الجملة الشرطية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وجاء جواب الشرط من دون الفعل: قل، بل قال: ﴿فَأِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، فكأن هذا الفاصل مع قصره (قل) كأنه يطيل القرب بين الداعي وربه، فجاء الجواب بدون واسطة: ﴿فَأِنِّي قَرِيبٌ﴾ تنبيهاً على شدة قرب العبد من ربه في مقام الدعاء! وهو من أبلغ ما يكون في الجواب عن سبب النزول - لو صح - حينما سئل النبي ﷺ: «أقرب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟».

٢- تأمل في قوله: ﴿عِبَادِي﴾ فكم في هذا اللفظ من الرأفة بالعباد؛ حيث

أضافهم إلى نفسه العلية سبحانه وبحمده، فأين الداعون؟ وأين الطارقون لأبواب فضله؟!

٣- فإني قريب: ففيها إثبات قربه من عباده جل وعلا، وهو قرب خاص بمن يعبده ويدعوه، وهو- والله - من أعظم ما يدفع المؤمن للنشاط في دعاء مولاه.

٤- في قوله: ﴿أَجِيبُ﴾ ما يدل على قدرة الله وكهال سمعه سبحانه، وهذا ما لا يقدر عليه أي أحد إلا هو سبحانه!

إن أي ملك من ملوك الدنيا- والله المثل الأعلى- مهما أوتي من القوة والسلطان لا يمكنه أن ينفذ كل ما يطلب منه؛ لأنه مخلوق عاجز، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه المرض والموت، فضلاً عن غيره، فتبارك الله القوي العزيز، الرحيم الرحمن.

٤- مع قوله: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ ففيها إشارة إلى أن من شرط إجابة الدعاء أن يكون الداعي حاضر القلب حينما يدعو ربه، وصادقاً في دعوة مولاه، بحيث يكون مخلصاً مشعراً نفسه بالافتقار إلى ربه، ومشعراً نفسه بكرم الله، وجوده^(١).

٥- ومن هدايات هذه القاعدة ودلالاتها: أن الله تعالى يجيب دعوة الداع إذا دعاه؛ ولا يلزم من ذلك أن يجيب مسأله؛ لأنه تعالى قد يؤخر إجابة المسألة ليزداد الداعي تضرعاً إلى الله، وإلحاحاً في الدعاء؛ فيقوى بذلك إيمانه، ويزداد ثوابه؛ أو يدخره له يوم القيامة؛ أو يدفع عنه من السوء ما هو أعظم فائدة للداعي؛ وهذا هو السر- والله أعلم- في قوله تعالى: ﴿أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾^(٢).

٦- وتاج هذه اللطائف المتصلة بهذه القاعدة من قواعد العبادة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أنك تلحظ فيها سرّاً من أسرار

(١) ينظر فيما سبق: مفاتيح الغيب: (٥/ ٨٤)، وتفسير القرآن الكريم للعثيمين: (١/ ٣٤٥).

(٢) تفسير القرآن الكريم للعثيمين: (١/ ٣٤٥).

عظمة هذا الدين، وهو التوحيد، فهذا ربك -أيها المؤمن- وهو ملك الملوك، القهار الجبار، الذي لا يشبه مُلكه ملك، ولا سُلطانه سلطان - لا تحتاج إذا أردت دعاءه إلى مواعيد، ولا إلى أذونات، ولا شيء من ذلك، إنما هو رفع اليدين، مع قلب صادق، وتسأل حاجتك، كما قال بكر بن عبد الله المزني -أحد سادات التابعين-: «من مثلك يا ابن آدم! خلي بينك وبين المحراب تدخل منه إذا شئت على ربك، وليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان؟!»^(١)، فيا لها من نعمة لا يعرف قدرها إلا الموفق، وإلا الذي يرى ما وقع فيه كثير من جهال المسلمين من التوسل بالأولياء والصالحين، أو ظنهم أن الدعاء لا يقبل إلا من طريق الولي الفلاني أو السيد الفلاني!!

وإذا تبين وقع هذه القاعدة فإنك ستدرك أن الحرمان الحقيقي للعبد حينما يجرم طرق الباب، وأن تنسيه نفسه هذا السبيل العظيم! كما قال أبو حازم لأننا من أن أمنع الدعاء، أخوف مني من أن أمنع الإجابة^(٢).

ويقول ابن القيم رحمته الله: «وقد أجمع العارفون أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق، وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرغبة إليه، فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجاً دونه، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إني لا أحمل هم الإجابة، ولكنني أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه).

وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانتة، فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر همهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان

(١) حلية الأولياء: (٢/٢٢٩).

(٢) حلية الأولياء: (٣/٢٤١، ٧/٢٨٨).

ينزل عليهم على حسب ذلك،... وما أتى من أتى إلا من قبل إضاعة الشكر، وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر - بمشيئة الله وعونه - إلا بقيامه بالشكر، وصدق الافتقار والدعاء»^(١).

ومن المعاني المهمة التي ينبغي أن يستحضرها العبد - وهو في مقام الدعاء - ما أشار إليه الإمام أبو سليمان الخطابي رحمته الله - وهو يتحدث عن الحكمة من مشروعية الدعاء - فيقول: «وقد قضى الله سبحانه أن يكون العبد ممتحنًا ومستعملًا، ومعلقًا بين الرجاء والخوف - اللذين هما مدرجتا العبودية - ليستخرج منه بذلك الوظائف المضروبة عليه، التي هي سمة كل عبد، ونُصبة كل مروب مُدَبِّر»^(٢).

ومن هدايات هذه القاعدة - المتعلقة بسياقها - استحباب الدعاء عند الفطر في رمضان وغيره، وهذا ما يدل عليه ظاهر القرآن، وفعل السلف، وفي السنة المرفوعة أحاديث لا تخلو من مقال، ولكن ها أنت ترى ظاهر القرآن يعضدها، ووجه الدلالة من الآيات على هذا المعنى: أن الله تعالى ذكر هذه الآية - آية الدعاء - بُعِيدَ آيات الصيام وقبيل آية إباحتها الرفث في ليل الصيام، قال ابن كثير رحمته الله: «وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى اجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر»^(٣).

فما أجمل العبد وهو يظهر فقره وعبوديته بدعاء مولاه، والانكسار بين يدي خالقه ورازقه، ومَنْ ناصيته بيده!

وما أسعده حينما يهتبل أوقات الإجابة ليناجي ربه، ويسأله من واسع فضله في

(١) الفوائد: (١٨١).

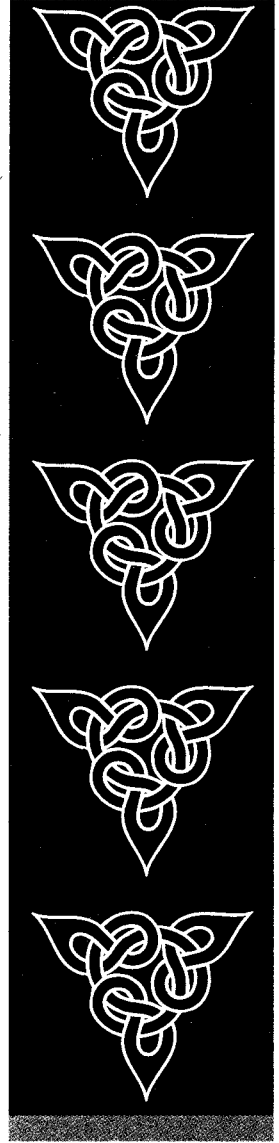
(٢) شأن الدعاء: (٩-١٠).

(٣) تفسير ابن كثير: (١/٢٧٣).

خيرى الدنيا والآخرة!

نسأل الله تعالى أن يرزقنا صدق اللجأ إليه، والانطراح بين يديه، وكمال التضرع له، وقوة التوكل عليه، وأن لا يخب رجاءنا فيه، ولا يردنا خائبين بسبب ذنوبنا وتقصيرنا.





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة السادسة والثلاثون

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

هذه قاعدة شرعية من أعظم القواعد الشرعية التي يفرع إليها العلماء في فتاواهم.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في سورة التغابن، وفي تدبر سياقها ما يحسن إيرادها هنا، خاصة وأن هذه القاعدة بدأت بالفاء التي يسميها بعض العلماء: الفاء الفصيحة، أو فاء التفريع، فما بعدها فرعٌ عما قبلها، ذلك أن الله جل وعلا قال قبل هذه القاعدة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوِّكُمْ قَبْلَ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤ - ١٥] ثم جاء التعقيب بعد هذا بقوله ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفْسِهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

«أي: إذا علمتم هذا، فاتقوا الله فيما يجب من التقوى في معاملة الأولاد والأزواج ومصاريف في الأموال، فلا يصدكم حب ذلك والشغل به عن الواجبات، ولا يخرجكم الغضب ونحوه عن حدِّ العدل المأمور به، ولا حُبِّ المال عن أداء حقوق الأموال

وعن طلبها من وجوه الحلال، فالأمر بالتقوى شامل للتحذير المتقدم وللترغيب في العفو كما تقدم ولما عدا ذلك... ولما كانت التقوى - في شأن المذكورات وغيرها - قد يعرض لصاحبها التقصير في إقامتها حرصاً على إرضاء شهوة النفس - في كثير من أحوال تلك الأشياء - زيد تأكيد الأمر بالتقوى بقوله: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، و﴿مَا﴾ مصدرية ظرفية، أي مدة استطاعتكم؛ ليعم الأزمان كلها، ويعم الأحوال تبعاً لعموم الأزمان ويعم الاستطاعات، فلا يتخلوا عن التقوى في شيء من الأزمان، وجعلت الأزمان ظرفاً للاستطاعة لثلا يقصر وبالتفريط في شيء يستطيعونه فيما أمروا بالتقوى في شأنه ما لم يخرج عن حد الاستطاعة إلى حد المشقة، فليس في قوله: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ تخفيف ولا تشديد، ولكنه عدل وإنصاف، ففيه ما عليهم وفيه ما لهم^(١).

وبعد هذا العرض المجمع لمعنى القاعدة، يتبين أن هذا القدر من التقوى هو الواجب على العبد فعله - وهو تقوى الله ما استطاع -، أما التقوى التي يستحقها الله تعالى، فهي التي جاءت في قوله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وهي التي فسرها جمع من السلف بقوله: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر^(٢)، وبهذا الجمع يتبين أنه لا يصح قول من قال: إن هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ناسخة لآية آل عمران: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾.

إن هذه القاعدة القرآنية المحكمة تدل بوضوح على أن كل واجب عجز عنه المكلف، فإنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض الأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة

(١) التحرير والتنوير (٢٨/٢٥٨) باختصار يسير.

(٢) ينظر: تفسير السعدي (١٤١).

ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(١).

فدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يمكن حصره كما يقول غير واحد من أهل العلم^(٢).

ولعلنا نأخذ بعض الأمثلة التي تجلي هذا القاعدة:

١- أول هذه الأمثلة التي يحسن التمثيل بها هو ذلك الموقف الذي جعل النبي ﷺ يقول كلمته الجامعة الآنف الذكر: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»: فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس! قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟! فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: نعم لوجبت! ولما استطعتم!» ثم قال: «ذروني ما تركتكم! فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه».

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة أنه: «إذا اجتمعت مصالح ومفاسد، فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فعلنا ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى فيها؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وإن تعذر الدرء والتحصيل فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة ولا نبالي بفوات المصلحة، قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ حرمها لأن مفسدتها أكبر من منفعتها»^(٣).

(١) البخاري ح (٦٨٥٨)، ومسلم ح (١٣٣٧).

(٢) تفسير السعدي: (١٤١).

(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: (١١٠/١).

٣- أن الواجب عند إرادة الصلاة: التطهر بالماء، فإن عدم أو تعذر استعماله، فإن الإنسان ينتقل إلى التيمم كما هو معلوم.

٤- أن صلاة الفريضة الأصل فيها أن يؤديها المصلي قائماً، فإن عجز صلى جالساً، وإلا صلى قاعداً، كما دلّ على ذلك عمران بن حصين رضي الله عنه، ويدخل في ذلك جميع شروط الصلاة وأركانها وواجباتها.

٥- وفي الصيام يجب على المسلم أن يمسك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فإن كان الصيام يشق عليه أفطر وانتقل إلى الإطعام.

٦- وفي الحج؛ فإن مبنى هذا الركن كـلّه على هذا الأصل العظيم: الاستطاعة، كما قال ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وكما سبق في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٧- ومن فروع هذه القاعدة في مناسك الحج: أن من لم يجد مكاناً في منى أو مزدلفة سكن حيث تسر له، ومثله فيمن عجز عن الرمي لأي سبب معتبر شرعاً، ولعل الحج من أكثر أركان الإسلام فروعاً تطبيقيةً لهذه القاعدة العظيمة.

٨- ومن تطبيقات هذه القاعدة العظيمة في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن المكلف يجب عليه أنه ينكر باليد إذا قدر عليه، فإن عجز باللسان، وإلا فبالقلب كما دل على ذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه المخرج في الصحيح^(١).

٩- وفي باب النفقات: فإن من عليه نفقة واجبة، وعجز عن جميعها، بدأ بزوجته فرقيقه، فالولد، فالوالدين، فالأقرب ثم الأقرب، وكذلك زكاة الفطر.

١٠- ومن تطبيقات هذه القاعدة العظيمة: مسائل الولايات والوظائف الدينية

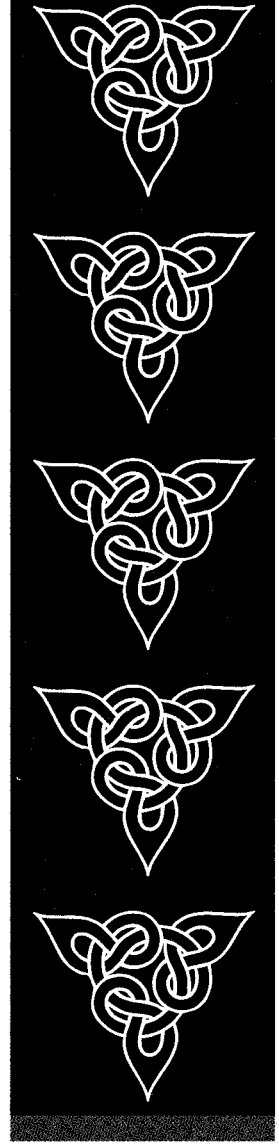
(١) صحيح مسلم (٤٩).

والدنيوية كُلُّها - صغارُها وكبارُها - داخلة تحت هذه القاعدة العظيمة، فكل ولاية يجب فيها تولية الأصلح الذي يحصل بتوليته مقصود الولاية، فإن تعذرت كلها، وجب فيها تولية الأمثل فالأمثل، وقد سبق حديث مفصّل عند الكلام على قاعدة: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [الفصص: ٢٦] ^(١).

وبما سبق من أمثلة يتجلى لنا عظيم موقع هذه القاعدة من هذا الشرع المطهر، الذي مبناه على اليسر والسعة، فنسأل الله تعالى الذي هدانا لهذا الدين القويم، أن يثبتنا عليه حتى نلقاه، وأن يرزقنا الفقه في دينه، والبصيرة فيه.



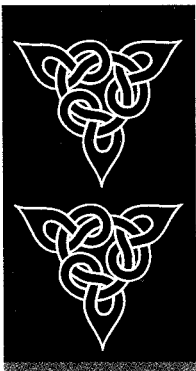
(١) وهي القاعدة السابعة عشرة.



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة السابعة والثلاثون

﴿ فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة تضم كلمات جامعة، وتمثل أصلاً من أصول الوصايا القرآنية.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في سورة هود، تلك السورة العظيمة التي بين الله فيها سبيل الحق والباطل، ثم ذكر فيها مصير هؤلاء وأولئك، ونبأذج تاريخية من واقع الرسل مع أقوامهم، ثم ختمت تلك القصص كلها بقول الله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَىٰ نَفْضُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهِمُّمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴿١٠١﴾ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَتَابَعٍ... ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿ وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠٢﴾ فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١٠١ - ١١٢].

وقد بقيت مع هذه السورة برهة من الزمن، أتأمل فيها، وأبحث عن مقصودها؛ فبدأ لي -والله أعلم- أنها كلها تدور على آية واحدة، يمكن أن نسميها: العمود الفقري -إن صح التعبير- لهذه السورة العظيمة، وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ ﴾

بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ
 إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ [هود: ١٢]، وأن ما قبلها وبعدها إلى نهاية
 هذه السورة إنما يعود إلى هذه الآية، والله أعلم، وقد فصلت ذلك في موضع آخر.

والمأمل في هذه السورة العظيمة يلحظ فيها بجلاء كثرة الخطاب للنبي ﷺ سواء
 بضمير الخطاب في عشرات المواضع - وهو أكثرها - أو بغير ضمير الخطاب، ومنها:
 هذا الموضع الذي نحن بصدد الحديث عنه في هذه القاعدة المحكمة: ﴿فَأَسْتَقِيمَ كَمَا
 أُمِرْتُمْ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ولنا مع هذه القاعدة عدة
 وقفات:

الوقفة الأولى:

ما حقيقة الاستقامة؟ وما سر هذا الأمر الصريح له ولأتباعه بلزوم الاستقامة؟
 أما حقيقة الاستقامة، فإن كلمات السلف من الصحابة ومن بعدهم تدور على
 معنى واحد في الجملة، ألا وهو أن الاستقامة: «هي سلوك الصراط المستقيم، وهو
 الدين القيم من غير تعريج عنه يميناً ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها،
 الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال
 الدين كلها»^(١).

وأما عن سر هذا الأمر الصريح للنبي ﷺ ولصحابته بالاستقامة، فإن الجواب
 عن هذا يطول جداً، لكن من أجل ما يوضح ذلك: أن يعلم المؤمن أن أعظم غرض
 يريده الشيطان من بني آدم هو إضلالهم عن طريق الاستقامة، ألم يقل عدو الله: ﴿فِيمَا
 آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]؟! ولهذا أمرنا أن نكرر في اليوم
 واللييلة ١٧ مرة على أقل تقدير قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]،

(١) جامع العلوم والحكم: شرح الحديث (٢١) حديث سفيان بن عبد الله.

فاللهم اهدنا الصراط المستقيم، وثبتنا عليه يا رب العالمين.

الوقفه الثانية مع هذه القاعدة:

فهذا الأمر للنبي ﷺ بالاستقامة هو أمرٌ بالثبات على الاستقامة، ولغيره أمرٌ بها وبالثبات عليها، يقول ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ: «أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْإِسْتِقَامَةِ - وَهُوَ عَلَيْهَا - إِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ بِالِدَوَامِ وَالثَّبُوتِ، وَهَذَا كَمَا تَأْمُرُ إِنْسَانًا بِالْمَشْيِ وَالْأَكْلِ وَنَحْوِهِ، وَهُوَ مُلْتَبَسٌ بِهِ»^(١)، ويوضح كلام ابن عطية هذا ما سبقت الإشارة من تكرار الدعاء في الفاتحة بـ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

ويوضح هذا أن القرآن الكريم مليء بالأمر بهذا الأصل العظيم أو الثناء على أهله في مواضع متنوعة، وبأكثر من أسلوب، ومن ذلك:

١- ما جاء في سورة الشورى - التي تحدثت عن الشرائع السابقة واتفاقها في جملة من الأصول - فقال ﷺ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ إلى أن قال: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ...﴾ [الشورى: ١٣ - ١٥].

٢- ومن ذلك أيضًا: أن الله تعالى أمر بهذا الأصل غير واحد من الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - فقد قال لموسى وهاورن: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، بل لقد امتنَّ الله بهذا الأصل على جميع الأنبياء والمرسلين، فإنه ﷺ لما ذكر عددًا كبيرًا من الرسل في سورة الأنعام قال: ﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿ [الأنعام: ٨٧، ٨٨].

(١) المحرر الوجيز: (٣ / ٢٢٥).

٣- وفي صدر سورة فصلت ملحظ مهم في ترسيخ معنى هذه القاعدة، فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ الْوَحْيُ وَإِنَّمَا الْإِنسَانُ لِرَبِّهِ فَاغْتَابُوا لِحَنَاهُ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَأَسْتَعِزُّوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ الآيات [فصلت: ٦]، وفي نفس السورة يبشر الله عباده المستقيمين على دينه بأعظم بشارة تتمناها نفس: فقال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

واستعراض الآيات الواردة في الاستقامة نصًّا أو معنى ليس مقصودًا لنا هنا، وإنما الغرض التنبيه على ذلك.

الوقفه الثالثة، مع هذه القاعدة:

إن من تأمل هذا الأمر الإلهي للنبي ﷺ تبين له عظم وخطورة هذا الأمر - أعني الاستقامة والثبات على الدين - كيف، وهما اللتان أقضتا مضاجع الصالحين؟!

روى البيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا علي السري يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام! فقلت: يا رسول الله! روي عنك أنك قلت: «شبيتي هود»؟ فقال: «نعم» فقلت له: ما الذي شبيك منها؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟! فقال: «لا، ولكن قوله: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ﴾»^(١).

وهذه الرؤيا - كما لا يخفى - هي كغيرها لا يعتمد عليها في الأحكام الشرعية، ولا في تصحيح أو تضعيف الأحاديث، ومنها: الحديث المشهور: «شبيتي هود وأخواتها»^(٢) فإنه حديث مضطرب الإسناد، كما بين ذلك جمع من الحفاظ: كالترمذي

(١) شعب الإيمان: (٤/٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي وغيره ح (٣٢٩٧)، وينظر: العلل لابن أبي حاتم رقم (١٨٢٦)، ولصديقنا د. سعيد الرقيب الغامدي بحث مفصل في بيان طرق وعلل هذا الحديث منشور على موقع ملتقى أهل الحديث.

والدارقطني وابن حجر رحمهم الله جميعًا، وإنما الغرض هنا الاستئناس بهذه الرؤيا على عظيم موقع هذا الأمر الإلهي من نفس النبي ﷺ.

الوقفه الرابعة مع هذه القاعدة:

أن الإنسان مهما بلغ من التقوى والإيمان، فهو بحاجة ماسة إلى التذكير بما يُثبته، ويزيد استقامته، ولو كان مستغنياً عن ذلك؛ لكان نبينا ﷺ أولى الناس بهذا، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبدًا بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه ويرفع به درجته»^(١).

الوقفه الخامسة مع هذه القاعدة:

أن يعلم المؤمن أن أعظم مدارج الاستقامة هي استقامة القلب، فإن استقامته ستؤثر على بقية الجوارح - ولا بد - قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «فأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد، كما فسر أبو بكر الصديق وغيره قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلب - على معرفة الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه ودعائه، والتوكل عليه، والإعراض عما سواه - استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك، استقامت جنوده ورعاياه»^(٢)،... وأعظم ما يُراعى استقامته - بعد القلب من الجوارح - : اللسان؛ فإنه ترجمان القلب والمعبر عنه»^(٣)، «ومن استقام على هذا الصراط حصل له سعادة الدنيا والآخرة، واستقام

(١) مجموع الفتاوى: (١١ / ٢٩٨).

(٢) كما في الحديث المتفق عليه: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

(٣) جامع العلوم والحكم: شرح الحديث (٢١) حديث سفيان بن عبد الله.

سيره على الصراط يوم القيامة، ومن خرج عنه فهو إما مغضوب عليه، وهو من يعرف طريق الهدى ولا يتبعه كاليهود، أو ضال عن طريق الهدى كالنصارى ونحوهم من المشركين»^(١).

نسأل الله تعالى أن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يجعلنا ممن استقام ظاهره وباطنه على ما يحبه ويرضاه، وأن يثبتنا على الإسلام والسنة حتى نلقاه.



(١) فتح الباري لابن رجب: (٤/ ٥٠٠).



القاعدة الثامنة والثلاثون

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧)
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية، وكلها من جامعة، تضمنتها هذه القاعدة التي تمثل أصلاً من أصول العدل، والجزاء والحساب^(١).

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في سورة الزلزلة التي تتحدث عن شيء من أهوال ذلك اليوم العظيم، الذين تشيب لهوله الولدان، فتختم السورة بهذه القاعدة - التي نحن بصدد الحديث عنها - وتأتي مصدرة بفاء التفریع، فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ تفریعاً على قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّ جَزَاءَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ليتيقن المحسنون بكمال رحمة الله، والمسيئون بكمال عدله ﷻ!

إن من أعظم ما يجلي كون هذه الآية من جوامع المعاني، ومن قواعد القرآن المحكمة، أن النبي ﷺ لما ذكر أقسام الخيل وأنها ثلاثة، وفصل ذلك بتفصيل طويل، ثم سئل ﷺ عن الحُمُر - وهي جمع حمار - فقال: «ما أنزل عليّ في الحُمُر شيء إلا

(١) ينظر: القواعد الحسان للسعدي (١٤١)، والتحرير والتنوير (٤٣٦/٣٠) حيث قال: «وهذه الآية معدودة من جوامع الكلم».

هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (١).

ومعنى جوابه ﷺ: «أنها آية منفردة في عموم الخير والشر ولا أعلم آية أعم منها؛ لأنها تعم كل خير وكل شر» (٢).

وعلى هذا الفهم العام لهذه الآية الكريمة، سار الصحابة رضي الله عنهم في فهمهم الذي تعلموه من النبي ﷺ، ومن ذلك:

* أن عائشة جاءها سائل فسأل! فأمرت له بتمرة، فقال لها قائل: يا أم المؤمنين إنكم لتصدقون بالتمرة؟! قالت: نعم والله! إن الخلق كثير ولا يشبعه إلا الله، أو ليس فيها مثاقيل ذر كثيرة؟!

* وعن عائشة رضي الله عنها أن سائلاً جاءها، فقالت لجارتها: أطعميه! فوجدت تمرة، فقالت: أعطيه إياها، فإن فيها مثاقيل ذر إن تُقُبِّلَتْ!

* وروي أن عمر رضي الله عنه أتاه مسكين -وفي يده عنقود من عنب- فناوله منه حبة وقال: فيه مثاقيل ذر كثيرة!

وقد روي نحو هذا عن أبي ذر، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أجمعين (٣).

وإذا كان هذا المعنى في باب احتساب النفقة، فثمة معنى آخر يتفطن له أرباب القلوب الحية، وهو: الخوف من تبعة السيئات، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن الحارث ابن سويد: أنه قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ حتى بلغ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾

(١) البخاري (٢٢٤٢)، ومسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة.

(٢) التمهيد (٢١٩/٤).

(٣) ينظر في هذه الآثار كلها: الدر المنثور: (٥٩٣/١٥).

قال: إن هذا الإحصاء شديد^(١).

وفي السنة الصحيحة من الأمثال والقصص ما يبين بجلاء معنى هذه القاعدة العظيمة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ولعلي أكتفي في هذا المقام بهذين الحديثين اللذين لن تتضح الصورة إلا بهما جميعاً:

أما الحديث الأول فهو قوله ﷺ: «بيننا كلب يطيف بركية - بئر - قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها - خفها - فاستقت له به، فسقته إياه فغفر لها به»^(٢).

وأما الحديث الآخر: فهو الحديث المتفق عليه، الذي يجبر فيه النبي ﷺ عن امرأة دخلت النار في هرة، ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت هزلاً^(٣).

وقد عقب الإمام الكبير محمد بن شهاب الزهري - بعد ما روى حديث الهرة - : «ذلك لثلاث يتكل رجل، ولا يبأس رجل»^(٤)، وهذا هو الشاهد الذي ينبغي أن نتأمله ههنا: فتأمل - أيها المؤمن - كيف جاء هذان الحديثان ليفسرا لنا عملياً هذه القاعدة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿فتلك المرأة التي لم يذكرها النبي ﷺ بأنها عابدة! أو صائمة! بل لم يذكرها إلا بالبغاء! ومع هذا فقد نفعها هذا العمل! وأي عمل هو؟ إنه سقي حيوان من

(١) الدرالمشور: (٥٩١/١٥).

(٢) مسلم (٢٢٤٥).

(٣) البخاري (٣١٤٠)، ومسلم (٢٦١٩) واللفظ له.

(٤) شرح النووي على مسلم (٧٢ / ١٧).

أنجس الحيوانات (الكلب)! ولكن الرب الرحيم الكريم لا تضيع عنده حسنة، بل كما قال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وفي الحديث الثاني: لم يذكر النبي ﷺ سبباً أدخلها النار غير حبسها لحيوان صغير لا يؤبه له!

كل هذا ليتحقق المؤمن معنى هذه القاعدة المحكمة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، وبه يتبين دقة كلام الإمام الزهري: حين علق على هذا الحديث بقوله الأنف الذكر: «ذلك لثلاث يتكل رجل، ولا يياس رجل».

إن من أعظم توفيق الله تعالى لعبده أن يعظم الله، ومن أظهر صور تعظيم الرب جل وعلا: تعظيم أمره ونهيه، وإجلال الله ﷻ وتوقيره، فلا يحقرن صغيرة من الذنوب مهما صغر الذنب في عينه؛ لأن الذي عصي هو الله ﷻ، كما قال بلال بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر مَنْ عصيت»^(١).

وتأمل مقولة الإمام الجليل عون بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما قرأ قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوبِلْنَا مَا لِي هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]: «ضج - والله - القوم من الصغار قبل الكبار»^(٢)، فمن كان قلبه حياً تأثر بأي معصية، كالثوب الأبيض الذي يؤثر فيه أي دنس، وإلا فإن العبد إذا لم يجد للذنوب أثراً - وإن كانت من الصغائر - فليتفقد قلبه، فإنه على شفا خطر! ولا بن الجوزي رَضِيَ اللَّهُ

(١) الزهد للإمام أحمد: (٣٨٤).

(٢) التمهيد (٢/٨٤).

كلمات نفيسة في هذا الموضوع في كتابه: «صيد الخاطر».

ولهذا لما قالت عائشة للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا! - تعنى قصيرة - فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بهاء البحر لمزجته». رواه أبو داود والترمذي وصححه^(١).

وأما عدم زهد المؤمن في أي عمل صالح - وإن ظنّه صغيراً - فلأنه لا يدري ما العمل الذي يدخله الجنة؟! قال ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»^(٢).

ولما سأل أبو برزة رضي الله عنه نبينا ﷺ فقال: يا نبي الله! علمني شيئاً أنتفع به! قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»^(٣).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة»^(٤).

فتأمل - يا عبد الله - كم يحتقر كثير من الناس أمثال هذه الأعمال اليسيرة!

كم نمر في يومنا بغصن؟ أو بحجر؟ أو زجاجة منكسرة؟ فربما تكاسلنا عن إزالتها كسلًا في أمثال هذه الأعمال التي هي من أسباب دخول الجنة، وأرشد إليها بعض أصحابه!

(١) أبو داود ح (٤٨٧٧)، الترمذي ح (٢٥٠٢)، قال محققوا المسند ح (٢٥٥٦٠): إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) مسلم ح (٢٦٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) مسلم ح (٢٦١٨).

(٤) مسلم ح (١٩١٤).

ولو أردتَ أن تفتش في حياتنا اليومية لو جدت فيها عشرات الأمثلة من الأعمال
اليسيرة، التي لو جمعت لشكلت سيلاً من الحسنات، دمة يتم مسحها، أو جوعة
فقير تسدها، أو مساعدة عاجز، أو ابتسامة في وجه مسلم، في عدد من الأعمال لا
يمكن حصرها، فما أحرانا أن نكون سباقيين إلى كل خير، وإن دق في أعيننا، متذكرين
هذه القاعدة العظيمة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

نسأل الله تعالى أن يضاعف لنا الحسنات، وأن يتجاوز عن السيئات، وأن ييسر
لنا الخير، ويعيذنا من موارد الشر.





القاعدة التاسعة والثلاثون

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾

هذه قاعدة قرآنية، وكلمة جامعة، هي قاعدة من قواعد تربية النفس، وتوجيه علاقتها مع الله ﷻ^(١).

وهذه القاعدة بدئت بالفاء - التي تسمى بفاء التفريع - المرتبطة بالجملة الشرطية، يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ١ - ٨].

وغني عن التفصيل أن هذه السورة العظيمة - سورة الشرح - «احتوت على ذكرِ عنايةِ الله تعالى لرسوله بلطف الله له، وإزالةِ الغمِّ والحرجِ عنه، وتيسيرِ ما عسر عليه، وتشريفِ قدره؛ لِيُنْفَسَ عنه؛ فمضمونها شبيهٌ بأنه حجةٌ على مضمون سورة الضحى؛ تشبيهاً له بتذكيره سالفِ عنايته به، وإنارةِ سبيلِ الحق، وترفعِ الدرجة؛ ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض يعلمه النبي ﷺ^(٢).

(١) قال العلامة النحرير الطاهر ابن عاشور: «وهذه الآية من جوامع الكلم القرآنية لما احتوت عليه من كثرة المعاني» التحرير والتنوير: (٣٠/٣٦٨).

(٢) التحرير والتنوير: (٣٠/٣٥٩).

فإذا اتضح تبين موقع هذه القاعدة التي نتحدث عنها: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ والتي يأمر الله فيها نبيه ﷺ إذا انتهى من طاعة أو عملٍ ما أن ينصب ويبدأ في عمل أو طاعة أخرى، وأن يرغب إلى ربه في الدعاء والعبادة، والتضرع والتبتل، لأن حياة المسلم الحق كلها لله، فليس فيها مجال لسفاسف الأمور، بل إن الله الذي تبيحه الشريعة لأصناف من الناس كالنساء والصبيان، أو في بعض الأوقات كالأعياد والأفراح؛ فإن من أعظم مقاصد ذلك أن يستجم الإنسان - والاستجمام للجد مرة ثانية من الشغل النافع - وأن يعيش العبودية لله في جميع أحواله، فهو يعيشها في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، وفي الحضر والسفر، وفي الضحك والبكاء، ليمثل حقاً قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، متأسيًا - قدر الطاقة - بالثلة المباركة من أنبياء الله ورسله الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال ابن القيم رحمه الله: «وأما الرغبة في الله، وإرادة وجهه، والشوق إلى لقائه، فهي رأس مال العبد، وملاك أمره، وقوام حياته الطيبة، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه، وقرّة عينه، ولذلك خلق، وبه أمر، وبذلك أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولا صلاح للقلب ولا نعيم إلا بأن تكون رغبته إلى الله ﷻ وحده، فيكون هو وحده مرغوبه ومطلوبه ومراده، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧ - ٨]»^(١).

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه القاعدة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾

معنى عظيم، وهو أصل من الأصول التي تدل على أن الإسلام يكره من أبنائه أن يكونوا فارغين من أي عمل ديني أو دنيوي! وبهذا نظقت الآثار عن السلف الصالح رحمهم الله:

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: إني لأمقت أن أرى الرجل فارغاً لا في عمل دنيا ولا آخرة^(١)، وسبب مقت ابن مسعود رضي الله عنه لهذا النوع من الناس؛ لأن «قعود الرجل فارغاً من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعينه في دينه أو دنياه من سفه الرأي، وسخافة العقل، واستيلاء الغفلة»^(٢).

ولقد دلّ القرآن على أن هذا النوع من الناس الفارغين - وإن شئت فسمهم البطالين - ليسوا أهلاً لطاعة أو امرهم، بل تنبغي مجابنتهم؛ لئلا يعدوا بطبعهم الرديء، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، يقول العلامة السعدي رحمته الله: «ودلت الآية، على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماماً للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مرضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إماماً»^(٣).

ومن هدايات هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ أنها تربي في المؤمن سرعة إنجاز الأمور - ما استطاع إلى ذلك سبيلاً - وعدم إحالة إنجازها إلى وقت الفراغ، فإن ذلك من الأساليب التي يخدع بها بعض الناس

(١) المعجم الكبير: (١٠٢/٩).

(٢) الكشف: (٧٧٧/٤).

(٣) تفسير السعدي (ص ٤٧٥).

نفسه، ويبرر بها عجزه، وإن من عجز عن امتلاك يومه فهو عن امتلاك غده أعجز!
 قال بعض الصالحين: «كان الصديقون يستحيون من الله أن يكونوا اليوم على
 مثل حالهم بالأمس» علق ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: على هذا فقال: «يشير إلى أنهم كانوا لا
 يرضون كل يوم إلا بالزيادة من عمل الخير، ويستحيون من فقد ذلك ويعدونه
 خسراناً»^(١)، ومن جميل ما قيل في هذا المعنى ذينك البيتين السائرين:

إذا هجع النُّوَامُ أسبلتُ عَبْرِي وَأُنشِدْتُ بَيْتًا فَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ الشَّعْرِ
 أليس من الخسران أن لياليًا تمر بلا شيءٍ وتُحَسَبُ مِنْ عَمْرِي

ومن الحكم السائرة: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد! وهي حكمة صحيحة يشهد
 القرآن بصحتها، وقد روي عن الإمام أحمد أنه قال: إن التأخير له آفات! وصدق
 رَحِمَهُ اللهُ، والشواهد على هذا كثيرة:

- فمن الناس من يكون عليه التزامات شرعية بينه وبين الله، كقضاء الصيام، أو
 أداء فرض الحج -مثلاً- فتراه يسوّف ويماطل، حتى يتضايق عليه الوقت في الصيام،
 أو يفجأه الموت قبل أن يحج! ولئن كان هذا قبيحًا ومذمومًا في حقوق الله؛ فهو في
 حقوق الخلق -المبنية على المشاحة- أشد وأعظم، وكم ندم من كانت عليهم ديون
 حين تساهلوا في تسديدها وهي قليلة، فتراكمت عليهم؛ فعجزوا عنها، وصاروا بين
 ملاحقة الغرماء، والركض وراء الناس وإراقة ماء الوجه للاستدانة من جديد، أو
 للأخذ من الزكاة!! فهل من معتبر!؟

- ومن آثار مخالفة هذه القاعدة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾: أن بعض
 الناس لا يهتبل ولا يستغل الفرص التي تسنح في طلب العلم وتحصيله، فإذا انفرط

(١) لطائف المعارف (ص ٣٢١).

عليه العمر، وتقضى الزمن؛ ندم على أنه لم يكن قد حصل شيئاً من العلم ينفعه في حياته وبعد مماته!

وقل مثل ذلك: في تفريط كثير من الناس - وخصوصاً الشباب والفتيات - في التوبة، والإنابة، والرغبة إلى الله، بحجة أنهم إذا كبروا تابوا، وهذا لعمر الله من تلبس إبليس!

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولا قيتَ بعد الموت من قد تزودا

ندمتَ على أن لا تكون كمثلهِ وأنت لم ترصد بما كان أرصدَا

وقوله تعالى - في هذه القاعدة التي هي مدار حديثنا -: ﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ

رَبِّكَ فَانصَبْ﴾ أبلغ، وأعظم حادٍ إلى العمل، والجد في استثمار الزمن قبل الندم.





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الأربعون

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾

هذه قاعدة قرآنية، وكلمة جامعة، وهي من أعظم قواعد الشرائع السماوية كلها، والتي لا يشذ عنها شيء.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة من أعظم القواعد الشرعية، التي يدخل تحتها من الفروع ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتتفق عليها جميع الشرائع السماوية؛ ذلك أن الشرائع كلها من لدن حكيم عليم: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.

ومرّد معرفة العدل من الجور إلى أدلة الشريعة المطهرة، ونصوصها المفصلة.

يقول الإمام أبو محمد ابن حزم: «العدل حصن يلجأ إليه كل خائف، وذلك أنك ترى الظالم وغير الظالم إذا رأى من يريد ظلمه، دعا إلى العدل وأنكر الظلم حيثئذ وذمه، ولا ترى أحدًا يذم العدل، فمن كان العدل في طبعه؛ فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين»^(١).

وقال العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «والعدل مما تواطأت على حسنه

(١) الأخلاق والسير (١٦٢).

الشرائع الإلهية، والعقول الحكيمة، وتمدّح بادعاء القيام به عظماء الأمم، وسجلوا تمدّحهم على نقوش الهياكل من كلدانية، ومصرية، وهندية.

وحسن العدل بمعزل عن هوى يغلب عليها في قضية خاصة، أو في مبدأ خاص تنتفع فيه بما يخالف العدل بدافع إحدى القوتين: الشاهية والغاضبة»^(١).

ويقول ابن تيمية: «إن جماع الحسنات: العدل، وجماع السيئات: الظلم»^(٢).

وقال الماوردي: «إنّ ممّا تصلح به حال الدنيا قاعدة العدل الشامل، الذي يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمّر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النسل، ويأمن به السلطان، وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنّه ليس يقف على حدّ، ولا ينتهي إلى غاية، ولكلّ جزء منه قسط من الفساد حتّى يستكمل»^(٣).

إن هذا المعنى الشرعي العظيم - وهو العدل - الذين نتفياً ظلال الحديث عنه من وحي هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ هو معنى تعشقه النفوس الكريمة، والفطر السوية، والله! كم كان تحقيقه سبباً في خيرات عظيمة، ومنح كثيرة؟! والعكس صحيح، وكم كان تحقيق هذا العدل سبباً في إسلام أناس ما حثهم على الإسلام إلا تحقيق هذا الأصل الكبير: العدل، وإليكم هذا الموقف الذي يبين شيئاً من آثار العدل في نفوس الخصوم قبل الأصدقاء:

روى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» من طريق الشعبي قال:

وجد علي بن أبي طالب درعه عند رجل نصراني، فأقبل به إلى شريح

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: ص (١٨٦).

(٢) مجموع الفتاوى: (١/٨٦).

(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي: (١٤١).

يخاصمه^(١) قال: فجاء علي حتى جلس إلى جنب شريح، فقال له علي: يا شريح! لو كان خصمي مسلماً ما جلست إلا معه، ولكنه نصراني! وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم وإياهم في طريق فاضطروهم إلى مضايقه^(٢)، وصغروا بهم كما صغر الله تعالى بهم، من غير أن تطغوا»، ثم قال علي: هذا الدرع درعي، لم أبع ولم أهب! فقال شريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين! هل من بيّنة؟ قال: فضحك علي وقال: أصاب شريح! ما لي بيّنة، ففضى بها للنصراني!

قال: فمشى خُطىّ ثم رجع، فقال النصراني: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء! أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الدرع والله درعك، يا أمير المؤمنين، أتبعثُ الجيش - وأنت منطلق إلى صفين - فخرجتُ من بعيرك الأورق، فقال: أما إذا أسلمت فهي لك، وحمله على فرس، فقال الشعبي: فأخبرني من رآه: يقاتل الخوارج مع علي يوم النهروان^(٣).

فتأمل يا عبد الله! كيف أثر هذا الموقف العجيب من الرجل الأول في الدولة آنذاك في إسلامه، بل والانضمام إلى جيوشه التي تقاتل الخوارج المارقين، وليست هذه فضيلة إقامة العدل في مثل هذه المواقف، بل إن الإمام العادل أحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وفي الموقف مَلْحَظٌ آخر: ألا وهو أن هذا القاضي لم يكن ليجرؤ على مثل هذا

(١) شريح القاضي: أحد أشهر القضاة في عهد أمير المؤمنين علي ﷺ.

(٢) هذا قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو في صحيح ابن حبان (٥٠١).

(٣) تاريخ دمشق: (٤٢ / ٤٨٧)، البداية والنهاية: (٨ / ٤).

الحكم لولا أنه وجد ما يسنده ويقوي جانبه في إصدار مثل هذا الحكم على خليفة المسلمين آنذاك، من الخليفة نفسه، ومتى شعر القاضي أنه لا يستطيع أن يحكم بالعدل الذي يراه، فعلى القضاء السلام.

وهذا الموقف -أيضاً- يبرز جانباً من جوانب عظمة هذا الدين في العدل مع الخصوم والأعداء، فلم يمنع شريحاً كون الخصم نصرانياً أن يقضي له، وهذا تطبيق عملي لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وتمتد ظلال هذه القاعدة العظيمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ لتشمل جميع شؤون الحياة، فمن ذلك:

- العدل مع الزوجات: وهذا من الأمور المحكمات في باب العلاقة الزوجية، وهو أظهر من أن يفصل فيه، إلا أن الذي يؤكد عليه: هو تذكير الإخوة المعددين، بأن يتقوا الله في العدل بين زوجاتهم، وأن يحذروا من آثار عدمه السيئة في الحياة قبل الممات: وذلك فيما يقع بين الأولاد غير الأشقاء من نزاعات وخلافات، حتى يكونوا شهادة للآخرين، وأما في الآخرة فهو أعظم وأشد، وعليهم أن يتأملوا سيرة النبي ﷺ مع زوجاته التسع، ففيها الغناء والعبرة.

ومن صور تطبيقات هذه القاعدة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾:

- العدل مع الأولاد: فعلى الوالدين أن يعدلوا بينهم، وأن يتجنبوا تفضيل بعضهم على بعض، سواء في الأمور المعنوية كالحب والحنان والعطف ونحو ذلك، أو في الأمور المادية كالهدايا والهبات، ونحوها.

- العدل والإنصاف في إصدار الأقوال، وتقييم الآخرين: قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوِّمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنَّ

يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرَضُوا
فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿النساء: ١٣٥﴾، وقال ﷺ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَأَعِدُّوا﴾
[الأنعام: ١٥٢].

وهذا باب واسع جدًا، يدخل فيه الكلام على الأفراد، والجماعات، والفرق،
والكتب والمقالات، وغير ذلك.

وما أجزل ما قاله ابن القيم في نونيته:

وَمَحَلٌّ بِالْإِنصَافِ أَفخَرُ حِلَّةٍ زِينَتُهَا الْأَعْطَافُ وَالكَتِفَانِ

وَتَعَرَّضَ مِنْ ثَوْبَيْنِ مَنْ يَلْبَسُهُمَا يَلْقَى الرَّدَى بِمَذْمَةٍ وَهَوَانِ

ثَوْبٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمَرْكَبُ فَوْقَهُ ثَوْبُ التَّعَصُّبِ بَسَّتِ الثَّوْبَانِ

ومن صور العدل التي دلَّت عليها هذه القاعدة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾:

- العدل في العبادة: بحيث لا يتجاوز بها صاحبها العدل، ويتعدى الحد، ولا

يقصّر في أدائها على الوجه الشرعي.

- العدل في النفقات: قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا

كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال ﷺ: ﴿ثَنِيًّا عَلَىٰ عِبَادِ الرَّحْمَنِ:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:

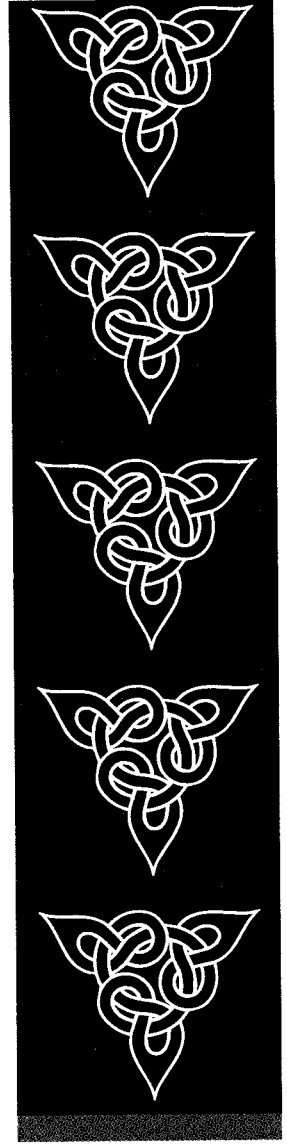
٦٧]، وكان من أدعية النبي ﷺ العظيمة: «وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى»^(١).

وبالجملة: فمن تأمل أوامر الله تعالى وجدها وسطًا بين خلقين ذميين: تفريط

وإفراط، وهذا هو معنى هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾.



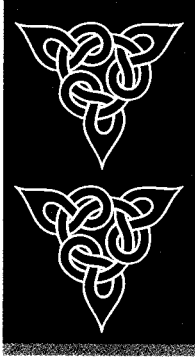
(١) سنن النسائي (٣/٥٤) ح (١٣٠٥)، وصححه ابن حبان ح (١٩٧١).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الحادية والأربعون

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ
أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة لها أثرها الإيماني والتربوي لمن عقلها وتدبرها.
وهذه القاعدة القرآنية المحكمة تكررت بلفظ قريب في عدد من المواضع، كما
تكرر معناها في مواضع أخرى.

فمن نظائرها اللفظية المقاربة قول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ
مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:
165]، وقال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾ [النساء:
79]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ... ﴾ [القصص: 47].
وأما الآيات التي وردت في تقرير هذا المعنى فكثيرة جدا، ومن ذلك قوله سبحانه:
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي
الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص: 59]، وكقوله ﷻ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: 41]،
وقال جل وعلا: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ

لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿[آل عمران: ١٨١ - ١٨٢] في ثلاث مواضع من كتاب الله ﷺ. ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - ملخصاً ما دلت عليه هذه الآيات الكريمة بتلخيص العالم المتتبع المستقرئ لنصوص القرآن الكريم -: «والقرآن يبين في غير موضع: أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب»^(١).

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآيات الكريمة دلت عليه أيضاً نصوص من الوحي الآخر، ألا وهو السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ - في الحديث القدسي العظيم - الذي يرويه عن ربه تعالى قال الله ﷻ: «إنما هي أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»^(٢).

وفي صحيح البخاري من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن تقول اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت...» الحديث^(٣).

وفي الصحيحين: لما سأل أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النَّبِيَّ ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته، قال له عليه الصلاة والسلام: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر

(١) مجموع الفتاوى: (١٤/٤٢٤).

(٢) صحيح مسلم ح (٢٥٧٧).

(٣) البخاري ح (٦٣٠٦).

الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١).

فتأمل في هذه الأحاديث جيداً! فَمَنْ هو السائل؟ وَمَنْ هو المجيب؟ أما السائل فهو أبو بكر، الصديق الأكبر الذي شهد له النبي ﷺ بالجنة في مواضع متعددة، وأما المجيب فهو الرسول الناصح المشفق صلوات الله وسلامه عليه! ومع هذا يطلب منه عليه الصلاة والسلام أن يعترف بذنوبه، وظلمه الكبير والكثير، ويسأل ربه مغفرة ذلك والعفو عنه، والسؤال هنا: مَنْ الناس بعد أبي بكر ﷺ؟

إذا تقررت هذه الحقيقة الشرعية - وهي أن الذنوب سببٌ للعقوبات العامة والخاصة - فحري بالعاقل أن يبدأ بنفسه، فيفتش عن مناطق الزلل فيه، وأن يسأل ربه أن يهديه لمعرفة ذلك، فإن من الناس من يستمرئ الذنب تلو الذنب، والمعصية تلو المعصية، ولا يتنبه لذلك! بل قد لا يبالي! ولربما استحسن ذلك - عياداً بالله - فتتابع العقوبات عليه وهو لا يشعر، فتكون مصيبته حيثئذٍ مضاعفة!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - وهو يتحدث عن الأمور التي تورث العبد الصبر وتعينه عليه ليلعب مرتبة الإمامة في الدين - قال: «أن يشهد ذنوبه، وأن الله إنما سلط الناس عليه بسبب ذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾، فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه؛ اشتعل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطهم عليه بسببها عن ذنبهم ولومهم، والوقية فيهم، وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار، فاعلم أن مصيبته مصيبة حقيقية، وإذا تاب واستغفر، وقال: هذا بذنوبي، صارت في حقه نعمة، قال علي ﷺ كلمة من جواهر الكلام: «لا يرجون عبدٌ إلا ربه ولا يخافن عبد إلا ذنبه»، وروي عنه وعن غيره: «ما نزل بلاء إلا بذنب ولا

(١) البخاري ح (٨٣٤)، مسلم ح (٢٧٠٥).

رفع إلا بتوبة»^(١).

ويقول تلميذه ابن القيم -رحمة الله عليه- وهو يوضح شيئاً من دلالات هذه القاعدة القرآنية المحكمة:

«وهل في الدنيا والآخرة شرور وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!
فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم، والبهجة والسرور إلى دار
الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء؟ وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره
وباطنه؟ فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع،
وبُدِّلَ بالقرب بعداً، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قبحاً، وبالجنة ناراً تلظى، وبالأيمان
كفرًا، وبموالات الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتفديس
والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، ولباس الإيثار لباس
الكفر والفسوق والعصيان؟ فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط،
وحلّ عليه غضب الرب تعالى، فأهواه ومقتته أكبر المقت...

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم؟ حتى علا الماء فوق رأس الجبال، وما الذي
سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض، كأنهم أعجاز
نخل خاوية؟ ودمرت ما مرَّ عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم؟ حتى
صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة، حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم،
وماتوا عن آخرهم؟

(١) قاعدة في الصبر - طبعته ضمن رسائله التي حققها عزيز شمس -: (١/١٦٩).

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلامهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها؟ فأهلكم جميعاً ثم أتبعهم حجارة من سجيل السماء، أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحب العذاب كالظلل؟ فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلتظي؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميراً؟... إلى أن قال:- قال الإمام أحمد رحمته الله: حدثنا الوليد بن مسلم، ثنا صفوان بن عمر، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفيير، عن أبيه قال: لما فتحت قبرص، فرَّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي! فقلت: يا أبا الدرداء! ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير! ما أهون الخلق على الله تعالى إذا أضاعوا أمره؟! بينما هي أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك، تركوا أمر الله؛ فصاروا إلى ما ترى! ^(١).

والذي استطرد كثيراً في بيان آثار الذنوب والمعاصي السيئة على الفرد والمجتمع في كتابه النافع الجواب الكافي وذكر كلاماً نفيساً يحسن الرجوع إليه والاستفادة منه. وليُعلم أنه ينبغي أن ندرك أن العقوبات حينما تذكر، فلا يصح حصرها في العقوبات الحسية أو العقوبات الجماعية - التي أشار ابن القيم إلى شيء منها - كإلهم

(١) الجواب الكافي: (٢٦-٢٧).

والغرق والصيحة، أو السجن والعذاب الحسي، ونحو ذلك، فهذه لا شك أنها أنواع من العقوبات، ولكن ثمة أنواع من العقوبات قد تكون أشد وأعظم، وهي تلك العقوبات التي تتسلط على القلب، فيضرب بالغفلة وقسوته، حتى إن جبال الدنيا لو تناطحت أمامه ما اعتبر ولا اتعظ - عياداً بالله - بل يظن المسكين، أو تظن أمة من الأمم - وهي ترى النعم تتابع وتزداد مع استمرارها في البعد عن شرع الله - تظن أن ذلك علامة على رضى الله ﷻ عنها، وهذه لعمر الله من أعظم العقوبات التي يتبلى بها العبد وتبلى بها أمة من الأمم.

تدبر جيداً قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤] فنعوذ بالله أن نكون من أهل هذه الآية، ونسأله بمنه وكرمه أن يتوب علينا وأن يبصرنا بمواطن الزلل منا، وأن لا يضربنا بقسوة القلب، وأن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا إن ربي سميع مجيب الدعاء.





القاعدة الثانية والأربعون

﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، وثيقة الصلة بواقع الناس؛ إذ لا ينفك أحدٌ عنها لكثرة تلبسهم بها، فكان التذكير بها وبما دلّت عليه أمرًا مهمًّا، إنها القاعدة القرآنية التي دل عليها قول الله تعالى: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت ضمن سياق الحديث عن كفارة اليمين في سورة المائدة، قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

ومعنى هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾: هو حفظها عن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: حفظها عن الحلف بالله كاذبًا.

والأمر الثاني: حفظها عن كثرة الحلف والأيمان.

والأمر الثالث: حفظها عن الحنث فيها إذا حلف الإنسان، اللهم إلا إذا كان

الحنث خيراً، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه سبباً في ترك ذلك الخير الذي حلف على تركه^(١)، وبيان هذه الأمور فيما يلي:

أما حفظ الأيمان عن الحلف الكاذب:

فإن الحلف الكاذب من أكبر الكبائر، وتلك هي اليمين الغموس - التي تغمس صاحبها في الإثم - يقول النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟! قال: «الإشراك بالله»، قال: ثم ماذا؟ قال: «ثم عقوق الوالدين»، قال ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس» قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يقتطع مال امرئ مسلم هو فيها كاذب»^(٢).

وقد بَوَّبَ البخاري رحمته الله على هذا الحديث فقال: باب اليمين الغموس، ولا نَنَحِّدُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذَوُّقُوا الشُّوْءَ يَمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ دَخَلًا: مَكْرًا وَخِيَانَةً.

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: «ومناسبة ذكر هذه الآية لليمين الغموس: ورود الوعيد على من حلف كاذباً متعمداً»^(٣).

وإنك لتعجب - مع وضوح هذا الأمر بحفظ اليمين، والتحذير من اليمين الكاذبة - أن يتجرأ بعض الناس على الأيمان الكاذبة، من أجل لعاعة من الدنيا، أو من أجل دفع مضرة عن نفسه بسبب كذبه أو تحاييله!

ألم يعلم هؤلاء أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة؟!

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٥٦٢/١٠)، وتفسير القرطبي: (٢٨٥/٦)، وتفسير السعدي (٢٤٢).

(٢) البخاري ح (٦٥٢٢).

(٣) فتح الباري: (١١/٥٥٦).

ألم يسمع هؤلاء حديث النبي ﷺ الذي يرتجف له القلب: «من حلف على يمين صبرٍ يقطع بها مال امرئٍ مسلمٍ - هو فيها فاجر - لقي الله وهو عليه غضبان»^(١) ويمين الصبر - كما قال العلماء -: هي التي يجبس الحالف نفسه عليها، وتسمى هذه اليمين الغموس^(٢).

وأما حفظها عن كثرة الحلف والأيمان:

يقول تعالى: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾: فهو الإقلال من الحلف، وقد ذم الله تعالى من أكثر الحلف بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، وقال في هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

والعرب كانوا يمدحون الإنسان بالإقلال من الحلف، كما قال كثير:

قليل الأايا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت

والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان:

١- أن من حلف في كل قليل وكثير بالله، انطلق لسانه بذلك ولا يبقى لليمين في قلبه وقع، فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض الأصلي في اليمين.

٢- كلما كان الإنسان أكثر تعظيماً لله تعالى كان أكمل في العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجل وأعلى عنده من أن يستشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية^(٣).

٣- أنه يقلل ثقة الإنسان بنفسه، وثقة الناس به، فهو يشعر بأنه لا يصدق

(١) مسلم ح (٢٢٠).

(٢) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٦٠/٢).

(٣) ينظر: تفسير الرازي (٦٠/٦).

فيحلف، ولهذا وصفه الله تعالى بالمهين^(١).

لذا ينبغي للآباء والأمهات والمربين أن يتبهاوا لهذا الخلل الذي يقع فيه بعض الناس، وأن يربوا من تحت أيديهم على تعظيم الله ﷻ، ومن صور ذلك: نهيبهم عن كثرة الأيمان بلا حاجة.

والملاحظ: أنه لو فُتس في أكبر أسباب فشو هذه الظاهرة لوجد أنه من قِبَل الأبوين والمربين، وهذا يفضي إلى عدم تعظيم اسم الله واحترامه وهيبته.

ومن اللطائف المتعلقة بهذا المعنى: أن النبي ﷺ الذي امتدت دعوته ثلاثة وعشرين عامًا، لم يحفظ عنه أنه حلف إلا في بضع وثمانين موضعًا!

فماذا سيكون جواب بعض الناس الذين لو أحصيت أيمانهم في سنة واحدة لوجدتها بالعشرات، ولغير حاجة ملحة، فرحم الله عبدًا حفظ يمينه، ووقر ربه، وعظم اسمه، ولم يحلف إلا عند الحاجة!

وأما حفظها عن الحنث في الأيمان:

فإن الواجب على المؤمن إذا حلف على شيء من أمور الخير أو من المباحات أن يتقي الله ويبر يمينه؛ لأن هذا من تعظيم المحلوف به وتوقيره - وهو الله ﷻ -.

ويستثنى من ذلك: إذا كان الحنث ومخالفة اليمين خيرًا من الاستمرار فيه، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، وأن لا تكون يمينه سببًا في ترك ذلك الخير الذي حلف على تركه.

ومعنى الحنث هنا: مخالفة المحلوف عليه.

ومثال ذلك: أن يحلف على أن لا يأكل النوع الفلاني من الطعام، أو لا يدخل

(١) ينظر: تفسير المنار (٢/ ٢٩١).

البيت الفلاني، فإن الأفضل هنا أن لا يستمر في يمينه، خاصة إن ترجحت المصلحة في الحنث، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أعتَمَ^(١) رجل عند النبي ﷺ ثم رجع إلى أهله، فوجد الصبية قد ناموا، فأتاه أهله بطعامه، فحلف لا يأكل من أجل صبيته، ثم بدا له فأكل، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأتها وليكفر عن يمينه»^(٢).

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني - والله - إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير، وتحملتُها»^(٣)، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

والمقصود أن نتأمل هذه القاعدة القرآنية جيداً: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بأن نحفظها عن الحلف بالله كاذباً، وأن نحفظها عن كثرة الحلف والأيمان من غير حاجة، وأن نحفظها عن الحنث فيها إلا إذا كان الحنث خيراً من المضي فيها.

وكلُّ ما مضى يجعلنا ندرك أن الشرع الحكيم أولى موضوع الأيمان أهمية بالغة، ويبيّن أحكامها تمام البيان، من أجل أن يعرف المسلم حدود هذه العبادة، وأحكامها، وما يجب وما يحرم وما يستحب، وأن ذلك كله إنما شرع ووضح تعظيماً لله جل وعلا، وليحفظ العبد يمينه من العبث بها، أو التقليل من شأنها، رزقنا الله وإياكم معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وتعظيمها على الوجه الذي يحبه ويرضاه، وأن يمنحنا الفقه في دينه، والبصيرة فيه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.



(١) أي: تأخر عنده إلى عتمة الليل، وهي شدة ظلمته.

(٢) مسلم ح (١٦٥٠).

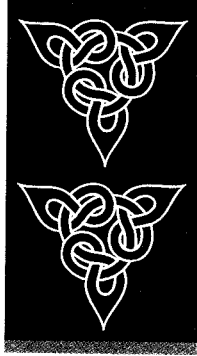
(٣) البخاري ح (٦٣٤٢)، ومسلم ح (١٦٤٩).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الثالثة والأربعون

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

هذه القاعدة القرآنية المحكمة - في باب الأخلاق - لها صلة قوية بتربية القلب وتزكياته، كما أن لها صلة بعلاقة الإنسان بغيره من الناس^(١).

وهذه القاعدة وردت في كتاب الله في موضعين:

الأول: في سياق الثناء على الأنصار رضوان الله عليهم في سورة الحشر، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

الثاني: في سورة التباين في سياق الحديث عن فتنة الأموال والأولاد والأزواج، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ تَقْرِيضًا اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التباين: ١٤ - ١٧].

(١) وقد أشار إلى كونها قاعدة كلية شيخنا العثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي فتاوى نور على الدرب.

ومعنى هذه القاعدة باختصار لا يتضح إلا ببيان معنى الشح:

فالشح - في مادته اللغوية - «الأصل فيه: المنع، ثم يكون منعاً مع حرص، ومن ذلك الشُّحُّ: وهو البُخل مع حرص، ويقال: تَشَاحَّ الرَّجُلَانِ عَلَى الأَمْرِ: إذا أراد كُلُّ واحدٍ منهما الفوزَ به ومنَعَهُ من صاحبه»^(١).

ولما كان الشُّحُّ غريزةً في النفس أضافه الله إلى النفس ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ وهذا لا يعني أنه لا يمكن الخلاص منه، بل الخلاص منه يسير على من يسره الله عليه، ولكن الخلاص التام منه بأنواعه كلها الحسية والمعنوية، لا يوفق له إلا المفلحون، ولهذا رؤي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو يطوف بالبيت ويقول: «رب قني شح نفسي! رب قني شح نفسي!» لا يزيد على ذلك، فقيل له في هذا؟ فقال: «إذا وقيت شح نفسي لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل»^(٢).

وهذا من عمق فهم السلف - والصحابة منهم خصوصاً - لمعاني كلام الله تعالى.

وقد قال جمع من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾: هو ألا يأخذ شيئاً مما نهاه الله عنه، ولا يمنع شيئاً أمره الله بأدائه، فالشح يأمر بخلاف أمر الله ورسوله، فإن الله ينهى عن الظلم ويأمر بالإحسان، والشح يأمر بالظلم وينهى عن الإحسان^(٣).

ويقول ابن تيمية: «الشح - الذي هو شدة حرص النفس - يوجب البخل بمنع ما هو عليه؛ والظلم بأخذ مال الغير، ويوجب قطيعة الرحم، ويوجب الحسد»^(٤).

(١) معجم مقاييس اللغة: (٣/١٧٨).

(٢) تاريخ دمشق: (٣٥/٢٩٤).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/٥٨٩).

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٨/١٤٤).

وقال في موضع آخر: «والشح يكون في الرجل مع الحرص وقوة الرغبة في المال، وبغضٍ للغير وظلمٍ له، كما قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ ﴿ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُوْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٨ - ١٩] فشحهم على المؤمنين وعلى الخير يتضمن كراهيته وبغضه، وبغض الخير يأمر بالشر، وبغض الإنسان يأمر بظلمه وقطيعة كالحسد؛ فإن الحاسد يأمر حاسده^(١) بظلم المحسود وقطيعة كابي آدم وإخوة يوسف^(٢) ا.هـ.

ولعلك لاحظت ارتباط هذه القاعدة - في سورة الحشر والتغابن - بموضوع المال! لأنه - والله أعلم - هو أظهر ما يتضح فيه خلق الشح، وإن كان الشح لا ينحصر بالمال.

ومن الأمثلة التطبيقية التي توضح معنى هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها:

١ - ما وضحته آية الحشر، من المنقبة العظيمة التي مدح الله بها الأنصار الذين فتحوا بيوتهم وصدورهم لإخوانهم من المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين، رغم قلة ذات يد كثير منهم، وحسبك بهذه المدحة الإلهية، من العليم الخبير - الذي يعلم ما تكنه النفوس -: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فتأمل هذه الأعمال القلبية التي كشفها ربنا عنهم، وهي كلها تدل على سلامتهم

(١) هكذا! ولعل صوابها: فإن الحسد يأمر صاحبه.

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/٥٩٠).

من شح نفوسهم:

أ- أما العمل الأول ﴿مُحِبُّونَ﴾ إذ من شأن القبائل أن يتحرجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم.

ب- وأما العمل الثاني: ففي قوله: ﴿وَلَا يَحِدُونُ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ لأنها لو كانت موجودة لأدركوها في نفوسهم.

ج- أما العمل الثالث: فهو الإيثار، وهو: ترجيح شيء على غيره بمكرمة أو منفعة، والمعنى: يُؤثرون على أنفسهم في ذلك اختياراً منهم، والخصاصة: شدة الاحتياج^(١).

فهل تريد نموذجاً لم تسمع الدنيا بمثله!؟

تدبر في هذا الموقف الذي رواه لنا الإمام البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال: قدم علينا عبد الرحمن بن عوف، وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، وكان كثير المال، فقال سعد: قد عَلِمْتَ الأنصارُ أني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فأطلقها، حتى إذا حلت تزوجتها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك، دلني على السوق!^(٢).

فتأمل هذا السخاء النادر، والإيثار العظيم!

والله لو كان الموقف يحكي تنازله عن جزء يسير من ماله لكان شهامةً ونبلاً، فكيف وهو يتنازل عن شطر ماله! بل ويعرض عليه فراق إحدى زوجتيه!! أي نفوس هذه!؟

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (١٥/٧٢-٧٥).

(٢) البخاري ح (٣٥٧٠).

أين المطلعون على أخبار الأمم؛ ليأتونا بأمثال هؤلاء الرجال تلاميذ مدرسة

محمد ﷺ!؟

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُقْلِحُونَ﴾ ما ذكره الله تعالى في حال خوف المرأة من نشوز زوجها وترفعه عنها وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن - والحال هذه - أن يصلحا بينها صلحا بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها، فهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، ثم ذكر المانع بقوله: ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾ أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك بطبيعتها، والمعنى: أنه ينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به بالسماحة، وهو بذل الحق الذي عليك؛ والاعتناع ببعض الحق الذي لك، فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن سهّل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومُعَامِلِهِ، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر^(١).

٣- ومن تطبيقات هذه القاعدة: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُقْلِحُونَ﴾ ما أثنى الله به على أهل الإيثار، من الأنصار ومن وافقهم في هذا الخلق العظيم، الذي اعتبره ابن القيم: أحد مدارج السالكين إلى عبودية رب العالمين، فجعل منزلة الإيثار من جملة هذه المنازل.

فما الإيثار؟! الإيثار ضد الشح، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح: حريص على ما ليس بيده فإذا حصل بيده شيء شح عليه، وبخل بإخراجه،

(١) تفسير السعدي: (٢٠٦).

فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل.

ولنختم حديثنا بهذا الموقف الذي يدل على عظمة نفوس الصحابة:

فهو لقيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه، وقد كان من الأجواد المعروفين، حتى إنه مرض مرة فاستبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين! فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حِلٍّ، فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه لكثرة من عاده! ^(١).

فله تلك النفوس الكبيرة، والأخلاق العظيمة! وأكثر في الناس من أمثالهم.



(١) مدارج السالكين: (٢/٢٩١).



القاعدة الرابعة والأربعون

﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

هذه من أعظم القواعد التي تعين على تعبيد القلب لرب العالمين، وتربيته على التسليم والانقياد.

وهذه القاعدة تدل دلالة واضحة - كما يقول أبو نعيم، في بيان شيء من خصائصه ﷺ -: «أن الله تعالى فرض طاعته على العالم فرضاً مطلقاً لا شرط فيه، ولا استثناء، فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ وإن الله تعالى أوجب على الناس التأسى به قولاً وفعلاً مطلقاً بلا استثناء، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ واستثنى في التأسى بخليفه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى أن قال: ﴿الْأَقْوَلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾^(١).

ولقد دأب العلماء على الاستدلال بهذه القاعدة في جميع أبواب العلم والدين:

فالمصنفون في العقائد يجعلونها أصلاً في باب التسليم والانقياد للنصوص الشرعية، وإن خفي معناها، أو عسر فهمها على المكلف، قال الإمام أحمد: إذا لم نقر بما جاء عن النبي ﷺ رددنا على الله أمره، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ

(١) نقله السيوطي في الخصائص الكبرى: (٢٩٧/٢).

وَمَاتِهِنَّ عَنْهُ فَأَنْتَهُنَّ ﴿١﴾

وفي أبواب الفقه: يعمد كثير من المفتين من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم إلى النزع بهذه القاعدة في إيجاب شيء أو تحريمه، وإن شئت فقل: في الأمر بشيء أو النهي عنه، وإليك هذه القصة التي رواها الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، فإنه حينما حدث وقال: لعن الله الواشيات والمستوشيات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله! قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب! - وكانت تقرأ القرآن - فأتته فقالت: ما حديث بلغني عنك؟ أنك لعنت الواشيات والمستوشيات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله؟ فقال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في كتاب الله؟! فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته! فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدته! قال الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَاءَ أُمَّتِكُمْ أَلَسْتُمْ فَخَذُوهُ وَمَاتِهِنَّ عَنْهُ فَأَنْتَهُنَّ﴾!

فقالت المرأة: فيني أرى شيئاً من هذا على امرأتك الآن! قال: اذهبي فانظري، قال: فدخلت على امرأة عبد الله فلم تر شيئاً! فجاءت إليه، فقالت: ما رأيت شيئاً! فقال ابن مسعود رضي الله عنه: أما لو كان ذلك لم نجتمعها ^(٢).

وهذا عبد الرحمن بن يزيد يرى محرماً عليه ثيابه، فنهر المحرم، فقال: «ائتني بآية من كتاب الله صلى الله عليه وسلم بنزع ثيابي!» فقرأ عليه: ﴿وَمَاءَ أُمَّتِكُمْ أَلَسْتُمْ فَخَذُوهُ وَمَاتِهِنَّ عَنْهُ فَأَنْتَهُنَّ﴾.

وهذه قصة أخرى - تؤكد وضوح هذا المعنى عند سلف الأمة رحمهم الله -:

يقول عبد الله بن محمد الفريابي: سمعت الشافعي ببيت المقدس يقول: سلوني عما

(١) الإبانة لابن بطنة: (٣/٥٩).

(٢) البخاري ح (٤٦٠٤)، مسلم ح (٢١٢٥).

شئتم أخبركم عن كتاب الله، وسنة رسوله! فقلت: إن هذا لجرئ! ما تقول أصلحك الله في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: نعم بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١).

ويقول محمد بن يزيد بن حكيم المستملي: رأيت الشافعي في المسجد الحرام، وقد جعلت له طنافس^(٢)، فجلس عليها، فأتاه رجل من أهل خراسان، فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في أكل فرخ الزنبور؟ فقال: حرام.

فقال: حرام؟! قال: نعم من كتاب الله، وسنة رسول الله، والمعقول، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣).

إن هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: لتدل بمفهومها على ضرورة حفظ السنة، حفظها من الضياع، وحفظها في الصدور، إذ لا يتأتى العمل بالسنة إلا بعد حفظها حسًا ومعنى، قال إسماعيل بن عبيد الله: ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما يحفظ القرآن لأن الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾^(٤).

وأما الحفظ المعنوي: فإن جهود أئمة الحديث من عهد الصحابة ﷺ ومن تلاهم من التابعين والأئمة لا تخفى على أدنى مطلع، وليس هذا مقام الحديث عن هذا الموضوع، وإنما المقصود: التنبيه على أن الحفظ الذي تحقق لسنة النبي ﷺ على أيدي هؤلاء قد قام به أئمة الإسلام خير قيام، فلم يبق على من بعدهم إلا حفظ ألفاظها،

(١) تاريخ دمشق: (٢٧١/٥١).

(٢) الطَّنْفَسَةُ والطَّنْفُسَةُ: التُّمْرَقَةُ فوق الرجل وجمعها طَنَّافِسٌ وقيل هي البساط الذي له حَمَلٌ رقيق. ينظر: لسان العرب: (١٢٧/٦).

(٣) سير أعلام النبلاء: (٨٨/١٠).

(٤) تاريخ دمشق: (٤٣٦/٨).

والتفقه في معانيها، والعمل بمقتضاها، إذ هذا هو المقصود الأعظم من ذلك كله.
إن في الآثار التي سقت بعضها، وتركت كثيراً منها، لدلالة على شمول الآية
لجميع الأوامر - سواء كانت واجبة أم مستحبة-، وشاملة لجميع النواهي - سواء
كانت محرمة أم مكروهة-.

ومن تأمل واقع الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - وجدهم أصحاب القِدْح
المُعَلَّى في تلقي الأوامر والنواهي بنفوسٍ مُسَلِّمة، وقلوبٍ مَحْبِة، ومستعدة للتنفيذ،
ولا تجد في قاموسهم تفتيشاً ولا تنقيباً: هل هذا النهي للتحريم أم للكره؟ ولا: هل
هذا الأمر للوجوب أم للاستحباب؟ بل ينفذون ويفعلون ما يقتضيه النص، فأخذوا
هذا الدين بقوة، فصار أثرهم في الناس عظيماً وكبيراً.

ولما طغى على الناس - في القرون المتأخرة - كثرة السؤال والتنقيب: هل هذا
الأمر واجب أم مستحب؟ وهل هذا مكروه أم محرم؟ صار أخذ كثير منهم لأوامر الله
ونواهيه ضعيفاً، فصار أثر التعبد لله هزياً، والانقياد عسيراً.

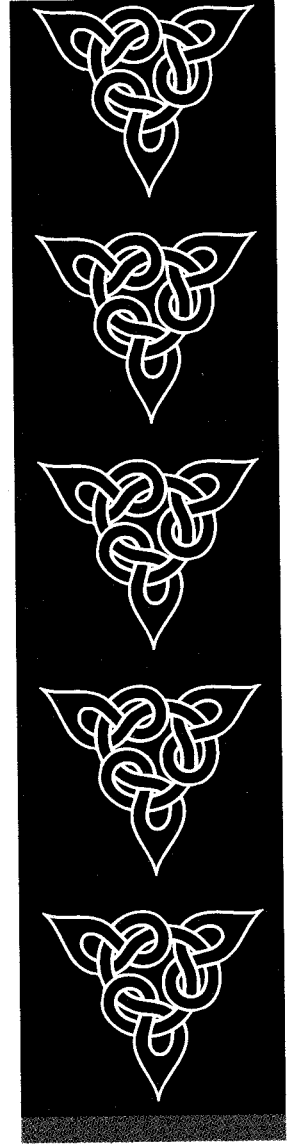
إنني لا أنكر انقسام الأوامر إلى واجب ومستحب، ولا أنكر انقسام النواهي إلى
محرم ومكروه، ولا يُنكر أن الإنسان قد يحتاج إلى تفصيل الحال - عند وقوع المخالفة -
ليتبين حكم الله، وما يجب عليه من كفارة ونحو ذلك، لكن الذي يؤسف عليه: أن
أكثر الذين يسألون عن هذا التقسيم، ليس مرادهم طلب العلم وتحرير المسائل، بل
التملص، والتنصل من الامتثال، وإلى هؤلاء يتوجه الحديث في هذه القاعدة القرآنية
المحكمة: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

إنني موقن أن من ربي نفسه على ترك كل ما ينهى عنه، وفعل كل ما يستطيعه
من الأوامر، من غير تنقيب عن حال هذا النهي أو ذاك الأمر، بل يبادر تعبدًا لله
تعالى بتعظيم الأمر والنهي؛ فإنه سيجد لذة عظيمة في قلبه، إنها لذة العيش في كنف

العبودية، وظل الاستكانة والاستجابة والخضوع لله رب العالمين.

ومن أعظم دلالات هذه القاعدة: أنها ترد على أولئك الذين يزعمون الاكتفاء بالقرآن فقط في تطبيق أحكام الشريعة، فهاهو القرآن ذاته يأمر باتباع الرسول ﷺ، ولن يكون ذلك إلا باتباع سنته، بل كيف يتأتى للإنسان أن يصلي، أو يزكي، أو يصوم، أو يحج بمجرد الاقتصار على القرآن!؟





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الخامسة والأربعون

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، يحتاجها كل مؤمن، وعلى وجه الخصوص من عزم على الإقبال على ربه، وقرع باب التوبة.

وهذه القاعدة هي جزء من آية كريمة في سورة هود، يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وهذه الآية الكريمة سبقت بجملة من الأوامر العظيمة للنبي ﷺ ولأمته، يحسن ذكرها ليتضح الربط بينها، يقول تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٣) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا أَمْسَكْتُمْ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿[هود: ١١٢ - ١١٣].

ومعنى الآية - التي تضمنت هذه القاعدة باختصار -: أن الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ - وهو خطاب للأمة كلها - بأن يقيموا الصلاة طرفي النهار، وساعات من الليل، ينصب فيها قدميه لله تعالى، ثم علل هذا الأمر فقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي يمحوها ويكفرها حتى كأنها لم تكن - على تفصيل سيأتي بعد قليل إن شاء الله - والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ﴾ وما بعده،

وقيل: إلى القرآن، ذكرى للذاكرين: أي موعظة للمتعتزين^(١).

وكما أن هذه القاعدة صرحت بهذا المعنى، وهو إذهاب الحسنات للسيئات، فقد جاء في السنة ما يوافق هذا اللفظ تقريباً، كما في الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه^(٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(٣).

إذا تبين معنى هذه القاعدة بإجمال، فليعلم أن إذهاب السيئات يشمل أمرين:

١- إذهاب وقوعها، وحبها في النفس، وكرهها، بحيث يصير انسياق النفس إلى ترك السيئات سهلاً وهيناً كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ أَلَا يَمَنُ وَرِيئُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ الْإِيمَانَ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها.

٢- ويشمل أيضاً محو إثمها إذا وقعت، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها، فضلاً من الله على عباده الصالحين^(٤).

ولقد بحث العلماء ههنا معنى السيئات التي تذهبها الحسنات، والذي يتحرر في الجمع بين أقوالهم أن يقال:

إن كانت الحسنة هي التوبة الصادقة، سواء من الشرك، أو من المعاصي، فإن حسنة التوحيد، والتوبة النصوح لا تبقي سيئة إلا محتها وأذبتها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

(١) ينظر: فتح القدير (٢/٦٧٨).

(٢) وفي بعض النسخ: صحيح، وقد استبعد هذا ابن رجب في تعليقه على هذا الحديث في «جامع العلوم والحكم» ح (١٨).

(٣) الترمذي ح (١٩٨٧)، وقد رجح الدارقطني إرساله، وانظر تعليق ابن رجب عليه في «الجامع» ح (١٨).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٧/٢٨٤).

لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْلَدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له - لما جاءه يبایعه على الإسلام والهجرة - : «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»^(١).

وإن كان المراد بالحسنات عموم الأعمال الصالحة كالصلاة والصيام، فإن القرآن والسنة دلالة صراحة على أن تكفير الحسنات للسيئات مشروط باجتناب الكبائر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»^(٢).

لقد جاء معنى هذه القاعدة الجليلة: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ في القرآن الكريم على صور منها:

١- في سياق الثناء على أهل الجنة قال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَّ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد:

[٢٢].

(١) مسلم ح (١٢١).

(٢) مسلم ح (٢٣٣).

قال ابن عباس رضي الله عنه - في بيان معناها-: يدفعون بالصالح من العمل السيئ من العمل.

علق البغوي على كلمة ابن عباس، فقال: وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(١).

٢- إثبات هذا المعنى في الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النِّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥].

٣- إثباته في سياق الحديث عن توبة العصاة، كما في آية الفرقان التي تلوتها قبل قليل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ...﴾ الآيات [الفرقان: ٦٨-٧١].

* من تطبيقات هذه القاعدة:

إن الأمثلة التطبيقية التي توضح وتؤكد معنى هذه القاعدة المحكمة: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ لكثيرة جدًا، لكن لعلنا نذكر بعضها تنبيهًا على باقيها، وأول ما نبدأ به من الأمثلة هو ما ذكره ربنا في الآية الكريمة التي تضمنتها هذه القاعدة، وهو:

١- إقامة الصلاة طرقي النهار - وهو مبتدأه ومنتهاه-، وساعات من الليل، ولا ريب أن أول ما يدخل في هذه الصلوات الخمس، كما يدخل فيها: بقية النوافل، كالسنن الرواتب، وقيام الليل.

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تدل على أن الصلوات المفروضات والنوافل من أعظم الحسنات الماحية للسيئات، فإن السنة صرّحت بهذا - كما تقدم - بشرط اجتناب الكبائر.

(١) تفسير البغوي: (٤/٣١٣).

فليبشر الذين يحافظون على صلواتهم فرضها ونفلها بأنهم من أعظم الناس حظاً من هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، ويا تعاسة وخسارة من فرطوا في فريضة الصلاة!!.

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة، ما رواه الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره؛ فأنزل الله ﴿وَأَقْرَبُ الصَّلَاةِ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟! قال: «بل لجميع أمتي كلهم»^(١).

٣- قصة توبة القاتل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً - وهي في الصحيحين - وهي قصة مشهورة جداً، والشاهد منها، أنه لما انطلق من أرض السوء إلى أرض الخير: «أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاه ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاوسه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»^(٢).

فإلى كل من أسرف على نفسه، وقنطه الشيطان من رحمة ربه، لا تيأسن ولا تقنطن، فهذا رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فلما صحّت توبته، رحمه ربه ومولاه، مع أنه لم يعمل خيراً قط من أعمال الجوارح سوى هجرته من بلد السوء إلى بلد الخير، أفلا تحرك فيك هذه القصة الرغبة في هجرة المعاصي، والإقبال على من لا سعادة ولا أنس إلا بالإقبال عليه!؟

وتأمل في هذه الكلمة المعبرة، التي قال الحسن البصري: «استعينوا على السيئات

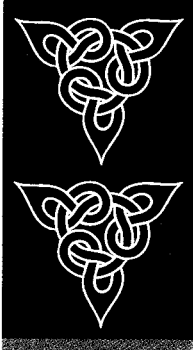
(١) البخاري ح (٥٠٣)، ومسلم ح (٢٧٦٣).

(٢) البخاري ح (٣٢٨٣)، ومسلم ح (٢٧٦٦).

القدييات بالحسنات الحديثات، وإنكم لن تجدوا شيئاً أذهب بسيئة قديمة من حسنة
حديثه، وأنا أجد تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(١).
اللهم ارزقنا حسناتٍ تذهب سيئاتنا، وتوبة تجلو أنوارها ظلمة الإساءة
والعصيان.



(١) تفسير ابن أبي حاتم: (٢٧٩/٨).



القاعدة السادسة والأربعون

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، وثيقة الصلة بقضية مهمة في باب الصلة مع الله، ومع عباده.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة، جاء ذكرها ضمن سياق آيات الحج، قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْذُوا فَأَبِئْ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَأَنْتَقُونِ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ويحسن قبل الشروع في بيان شيء من معاني هذه القاعدة، أن نوضح معنى الآية التي تضمنتها هذه القاعدة بإيجاز، فيقال:

١- لما تقرر فرض الحج، وذكرت بعض أحكامه قبل هذه الآية - فيما يخص الإتمام والإحصار - بدأ الحديث عن جملة من الآداب والأحكام، منها: النهي عن الرفث «وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصا عند النساء بحضرتهم، والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام، والجدال وهو: الممارسة

والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة»^(١) ف «لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلاً، حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزئهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة»^(٢).

٢- وفي الإخبار بأنه ما من خير نفعه إلا وهو يعلمه سبحانه وتعالى، دلالة واضحة على أن هذا متضمن الإثابة على هذا، والحض عليه، وإلا فإنه ﷺ يعلم الخير والشر، ونظير هذه القاعدة قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ [البقرة: ٢٧٠].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ خَيْرٌ﴾ في سياق هذه الجملة الشرطية: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ دليل على شمول الآية لكل خير قليلاً كان أو كثيراً.

٤- ثم ختمت الآية بأمرين مهمين، تضمنهما قوله ﷺ: ﴿وَتَكَرَّوْا فَاِنَّ خَيْرَ الرَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾، ففي قوله تعالى: ﴿وَتَكَرَّوْا﴾ أي اتخذوا زاداً للغذاء أجسامكم، وغذاء قلوبكم - وهذا أفضل النوعين - لقوله تعالى: ﴿فَاِنَّ خَيْرَ الرَّادِ التَّقْوَىٰ﴾، فلما رغب سبحانه وتعالى في التقوى، أمر بها طلباً لخيرها فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾، وإنما خوطب أصحاب العقول بهذا الخطاب - وهم أولوا الألباب - لأنهم هم الذين يدركون فائدة التقوى، وثمرتها؛ أما السفهاء فلا يدركونها»^(٣).

إن هذه القاعدة الجليلة، لتربي في المؤمن معاني إيمانية وتربوية كثيرة - وهو في سيره إلى الله والدار الآخرة-، ولعلنا نلخص هذه المعاني فيما يلي:

(١) تفسير السعدي (٩١).

(٢) تفسير ابن كثير: (١٩٧/١).

(٣) ينظر: تفسير القرآن للعثيمين (٤١٥/٢).

أولاً: في هذه الآية ترغيب وحض على إخلاص العمل لله جلّ وعلا، وإن لم يطلع عليه أحد، بل إن الموفق من عباد الله من يحرص كل الحرص على إخفاء العمل عن الخلق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وفي ذلك من الفوائد والعوائد على القلب والنفس الشيء الكثير، ولابن القيم كلمات تكتب بهاء الذهب في هذا المعنى، حيث يقول:

«وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله، قد تحدث بها، وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله، وأن لا يطلعوا عليه أحدًا، ويتكتمون به غاية التكتم، كما أنشد بعضهم في ذلك:

من سارروه فأبدى السر مجتهدًا لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعده فلم يظفر بقربهم وأبدلوه مكان الأنس إيماشا
لا يأمنون مديعًا بعض سرهم حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيءٍ كتبنا لأحوالهم مع الله، وما وهب الله لهم من محبته والأنس به، وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتدئ والسالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي، وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة - التي أصلها ثابت وفرعها في السماء - في قلبه - بحيث لا يخشى عليه من العواصف - فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليقتدى به ويؤتم به؛ لم يبال، وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله»^(١).

ثانيًا: ومن المعاني التي تربيها هذه القاعدة: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾

في نفوس أهلها:

راحة النفس، واطمئنان القلب، ذلك أن المحسن إلى الخلق، المخلص في ذلك لا ينتظر التقدير والثناء من الخلق، بل يجد سهولةً في الصبر على نكران بعض الناس

(١) بدائع الفوائد: (٣/٨٤٧) ط. عالم الفوائد.

للجميل الذي أسداه، أو المعروف الذي صنعه! فإنه إذا يفعل الخير ويوقن بأن ربه يعلمه علمًا يثيب عليه؛ هان عليه ما يجده من جحود ونكران، فضلًا عن التقصير في حقه، ولسان حاله - كما أخبر الله عن أهل الجنة - : ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩].

أعرف رجلًا مفضلًا، له شفاعات ووجاهات لنفع الخلق، وابتلي بأناس نسوا جميله، وتنكروا لمعروفه، بل شعر أن بعضهم طعنه من الخلف، أو قلب له ظهر المجن!

فذكرت له هذا المعنى - الذي ندندن حوله ههنا- فاستراح كثيرًا.

ومع ما تقدم ذكره، فإني أهدي لإخواني -الذين من الله عليهم بالإحسان إلى الخلق وابتلوا بجفائهم- هذا النص النفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، حيث يقول في كلام طويل له حول هذا المعنى، قال:

«ولا يحملنك هذا على جفوة الناس، وترك الإحسان إليهم، واحتمال الأذى منهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، وكما لا تخفهم فلا ترجهم، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وكن ممن قال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ١٧-٢٠]، وقال فيه: ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩]»^(١)، وقال في موضع آخر -موصيًا من يتصدى لنفع الخلق-:

«وإذا أحسن إلى الناس فإنها يحسن إليهم: ابتغاء وجه ربه الأعلى، ويعلم أن الله قد منَّ عليه بأن جعله محسنًا، ولم يجعله مسيئًا، فيرى أن عمله لله وأنه بالله، وهذا مذكور في فاتحة الكتاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ...﴾، فالؤمن يرى: أن عمله

(١) مجموع الفتاوى: (٣١/١).

لله لأنه إياه يعبد وأنه بالله؛ لأنه إياه يستعين، فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكورًا؛ لأنه إنما عمل له ما عمل الله كما قال الأبرار: ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩]، ولا يمن عليه بذلك ولا يؤذيه، فإنه قد علم أن الله هو المانّ عليه إذ استعمله في الإحسان، وأن المنّة لله عليه وعلى ذلك الشخص، فعليه هو: أن يشكر الله إذ يسره لليسرى، وعلى ذلك: أن يشكر الله إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزقٍ أو علمٍ أو نصرٍ أو غير ذلك.

ومن الناس: من يحسن إلى غيره ليمنّ عليه، أو يرد الإحسان له بطاعته إليه، وتعظيمه أو نفع آخر، وقد يمن عليه فيقول: أنا فعلت بك كذا، فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه، ولا عمل لله ولا عمل بالله، فهو المرائي، وقد أبطل الله صدقة المنان وصدقة المرائي... إلخ^(١).

والمقصود: أن من فهم ما ترشد إليه هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ أقدم على فعل الخير، وسهل عليه الصبر على تقصير الخلق وجفائهم؛ لأنه لا يرجو سوى الله، نسأل الله تعالى بمنّته وكرمه أن يرزقنا فعل الخيرات، والإخلاص لله تعالى في كل ما تأتي ونذر.



(١) مجموع الفتاوى: (٣٢٩/١٤).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة السابعة والأربعون

﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، نحن بأمس الحاجة إليها كل حين، وخاصة حين يتلى الإنسان بمصيبة من المصائب المزعجة، وما أكثرها في هذا العصر.

وهذه القاعدة القرآنية جاء ذكرها ضمن آية كريمة في سورة التغابن يقول الله فيها: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

والآية - كما هو ظاهر وبيّن - تدل على أنه ما من مصيبة أيًا كانت، سواء كانت في النفس، أو في المال، أو في الولد، أو الأقارب، ونحو ذلك، فكل ذلك بقضاء الله وقدره، وأن ذلك بعلمه وإذنه القدري عَلَيْكَ، وجرى به القلم، ونفذت به المشيئة، واقتضته الحكمة، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بما يجب عليه من عبودية الصبر والتسليم - الواجبين -، ثم الرضا عن الله تعالى؟! وإن كان الرضا ليس واجبا بل مستحبًا.

وتأمل كيف علق الله تعالى هداية القلب على الإيمان؛ ذلك أن الأصل في المؤمن أن يروضه الإيمان على تلقي المصائب، واتباع ما يأمره الشرع به من البعد عن الجزع

والهلع، متفكرًا في أن هذه الحياة لا تخلوا من منغصات ومكدرات:

جبلت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقداء والأقذار!

وهذا كما هو مقتضى الإيثار، فإن في هذه القاعدة: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾^(١) إيحاءً إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب؛ لأنه يلزم من هُدْيِ الله قلبَ المؤمن عند المصيبة ترغيبَ المؤمنين في الثبات والتصبر عند حلول المصائب، فلذلك جاء ختم هذه الآية بجملة: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

وهذا الختم البديع بهذه الجملة: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يزيد المؤمن طمأنينة وراحة من بيان سعة علم الله، وأنه سَمِيعٌ لا يخفى عليه شيء مما يقع، وأنه عَلِيمٌ الأعلم بما يصلح حال العبد وقلبه، وما هو خير له في العاجل والآجل، وفي الدنيا وفي الآخرة، يقرأ المؤمن هذا وهو يستشعر قول النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»^(٢).

ويقول عون بن عبد الله بن عتبة: «إن الله ليكره عبده على البلاء كما يكره أهل المريض مريضهم، وأهل الصبي صبيهم على الدواء، ويقولون: اشرب هذا، فإن لك في عاقبته خيرًا»^(٣)، ولنعد إلى هذه القاعدة: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ التي هي موضع حديثنا.

وثمة كلمات نورانية، قالها سلف هذه الأمة تعليقًا على معنى هذه القاعدة، ولنبدأ بحبر الأمة وترجمان القرآن - ابن عباس - حيث يقول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٨/٢٥١).

(٢) مسلم ح (٢٩٩٩).

(٣) حلية الأولياء: (٤/٢٥٢).

بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ. ﴿١﴾: يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه^(١).

ويقول علقمة بن قيس - في هذه القاعدة ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ -: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى»^(٢).

وقال أبو عثمان الحيري: «من صح إيمانه؛ هدى الله قلبه لاتباع السنة»^(٣).

ومن لطيف ما ذكر من القراءات المأثورة - وإن كانت ليست متواترة ولا مشهورة -: أن عكرمة قرأ: «ومن يؤمن بالله يهدأ قلبه» أي: يسكن ويطمئن^(٤).

ومجيء هذه القاعدة في هذا السياق له دلالات مهمة، من أبرزها:

١ - تربية القلب على التسليم على أقدار الله المؤلمة كما سبق.

٢ - أن من أعظم ما يعين على تلقي هذه المصائب بهدوء وطمأنينة: الإيمان

القوي برب العالمين، والرضا عن الله تعالى، بحيث لا يتردد المؤمن - وهو يعيش المصيبة - بأن اختيار الله خير من اختياره لنفسه، وأن العاقبة الطيبة ستكون له - ما دام مؤمناً حقاً - فإن الله تعالى ليس له حاجة لا في طاعة العباد، ولا في ابتلائهم! بل من وراء الابتلاء حكمة بل حِكْمٌ وأسرار بالغة لا يحيط بها الإنسان، وإلا فما الذي يفهمه المؤمن حين يسمع قول النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»؟!^(٥)، وما الذي يوحيه للإنسان ما يقرأه في كتب السير والتواريخ من أنواع

(١) تفسير الطبري: (٤٢١/٢٣).

(٢) تفسير الطبري: (٤٢١/٢٣).

(٣) تفسير القرطبي: (١٣٩/١٨).

(٤) تفسير القرطبي: (١٣٩/١٨).

(٥) الترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣)، وابن حبان (٦٩٩، ٧٠٠)، وقد صححه الترمذي

وابن حبان وغيرهما، ولعله لشواهد.

الابتلاء التي تعرض لها أئمة الدين!؟

إن الجواب باختصار شديد: «أن أثقال الحياة لا يطيقها المهازيل، والمرء إذا كان لديه متاع ثقيل يريد نقله، لم يستأجر له أطفالاً أو مرضى أو خوارين؛ إنما ينتقي له ذوي الكواهل الصلبة، والمناكب الشداد!! كذلك الحياة، لا ينهض برسالتها الكبرى، ولا ينقلها من طور إلى طور إلا رجال عمالقة وأبطال صابرون!»^(١).

ليس بوسع الإنسان أن يسرد قائمة بأنواع المصائب التي تصيب الناس، وتكدر حياتهم، لكن بوسعه أن ينظر في هدي القرآن في هذا الباب، ذلك أن منهج القرآن الكريم في الحديث عن أنواع المصائب حديث مجمل، وتمثيل بأشهر أنواع المصائب، لكننا نجد تركيزاً ظاهراً على طرق علاج هذه المصائب، ومن ذلك:

١- هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾^(١) فهي تنبه إلى ما سبق الحديث عنه من أهمية الصبر والتسليم، وتعزيز الإيمان الذي يصمد لهذه المصائب.

٢- ومن طرق معالجة القرآن لشأن المصائب: الإرشاد إلى ذلك الدعاء العظيم الذي جاء ذكره في سورة البقرة، يقول تعالى: ﴿وَلَنْبَلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦].

٣- كثرة القصص عن الأنبياء وأتباعهم، الذين لقوا أنواعاً من المصائب والابتلاءات التي تجعل المؤمن يأخذ العبرة، ويتأسى بهم، ويهون عليه ما يصيبه إذا تذكر ما أصابهم، وعلى رأسهم نبينا وإمامنا وسيدنا محمد ﷺ.

(١) خلق المسلم: (١٣٣-١٣٤) باختصار.

ويتبع هذا العلاج القرآني: النظر في سير الصالحين من هذه الأمة وغيرهم، ممن ابتلوا فصبروا، ثم ظفروا، ووجدوا -حقاً- أثر الرضا والتسليم بهداية يقذفها الله في قلوبهم، وهم يتلقون أقدار الله المؤلمة، والموفق من تعامل مع البلاء بما أرشد الله إليه ورسوله ﷺ، وبما أرشد إليه العقلاء والحكماء، ففي كلام بعضهم عبر متينة، وتجارب ثرية، فتأمل -مثلاً- إلى مقولة الإمام الجليل أبي حازم -والتي تزيح جبال الهم التي جثمت على صدور الكثيرين- يقول: «الدنيا شيثان: فشيء لي، وشيء لغيري، فما كان لي لو طلبته بحيلة من في السموات والأرض لم يأتني قبل أجله، وما كان لغيري لم أرجه فيما مضى، ولا أرجوه فيما بقي، يمنع رزقي من غيري كما يمنع رزق غيري مني، ففي أي هذين أفني عمري؟!»^(١).

وبعد: لماذا يتسخط بعضنا ويتوجع على حادثٍ حصل قبل سنوات؟! ولماذا يقلب أحدنا ملف زواجٍ فاشل قبل عقد من الزمن؟! أو صفقة تجارية خاسرة، أو أسهم بارت تجارتها؟! وكأنه بذلك يريد أن يجدد أحزانه!!
فيا كل مبتلى:

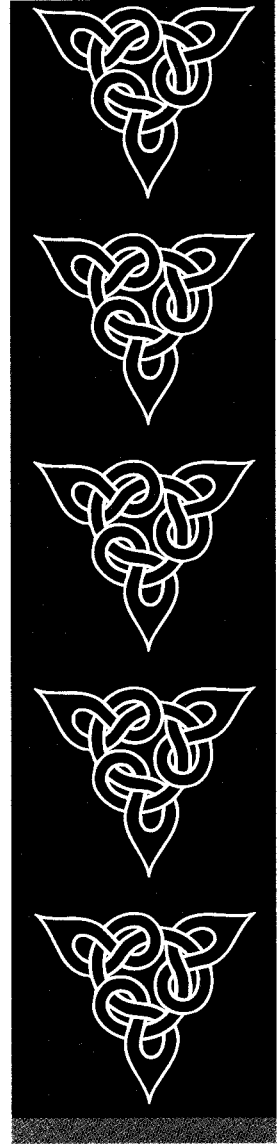
اصبر على القدر المجلوب وارض به وإن أتاك بما لا تشتهي القدر

فما صفا لامرئٍ عيشٌ يُسرّ به إلا سيتبع يوماً صفوه كدر

وأوصي في ختام هذه القاعدة بقراءة رسالة قيمة جداً، قليلة الكلمات، عظيمة المعاني، لشيخ شيوخنا: العلامة الجليل، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وعنوان رسالته: «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة».



(١) حلية الأولياء: (١٠/١٠٤).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الثامنة والأربعون

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، سارت مسار الأمثال، وهي أثر من آثار حكمة الله تعالى في خلقه، تعين من تدبرها على رؤية الأمور بتوازن واعتدال.

وهذه القاعدة جزء من آية كريمة في سورة البقرة وسورة الأعراف، في قصة استسقاء نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام لقومه، يقول تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

والمعنى الخاص الذي يتعلق بهذه الآية الكريمة: أن الله تعالى امتن على بني إسرائيل بأن جعل العيون التي انفجرت من ذلك الحجر اثنتي عشرة عينًا، بعدد قبائل بني إسرائيل، منعًا للزحام، وتيسيرًا عليهم؛ ليعرف كل سبط من أسباط بني إسرائيل، فلما تحققت هذه المنة اكتملت عليهم النعمة؛ بتنوع المآكل والمشارب من غير جهد ولا تعب، بل هو محض فضل الله ورزقه، وتمت عليهم النعمة بتنظيم أمرهم في الورود والصدور، فأصبحوا منظمين، لا يبغي أحد على أحد، ولا يُنقص أحد حق أحد.

وهذا المعنى -الذي دلّت عليه هذه القاعدة- جاء ذكره في قاعدة أخرى، لكن بلفظ مغاير وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]، أي على طريقته وسيرته التي اعتادها صاحبها، ونشأ عليها.

وكما أن هذا المعنى الذي دلّت عليه هذه القاعدة فقد جاءت السنة بتقريره كما في قوله ﷺ: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له»^(١).

والحاصل: أن هذا المعنى جاءت الشريعة بتقريره بعبارات متنوعة، ومُجْمَلٍ مختصرة وألفاظ مختلفة، ولعلنا في هذه القاعدة نشير إلى أهم هذه التطبيقات التي حصل بسبب الإخلال بها بعض الآثار السيئة، وفات بسبب ذلك بعض المكاسب الطيبة، ذلكم هو:

أهمية معرفة الإنسان للمواهب والقدرات التي وهب الله إياها، ليفيد في المجال الذي يناسبه ويتفق مع قدراته ومواهبه؛ إذ من المتقرر أن الناس ليسوا على درجة واحدة في المواهب والقدرات والطاقات، ولم يجتمع الكمال البشري إلا في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فمعرفة الإنسان لما يحسنه ويتميز به مهم جداً في تحديد المجال الذي ينطلق فيه؛ ليدع ولينفع أمته؛ إذ ليس القصد هو العمل فحسب، بل الإبداع والإتقان.

ومن نظر في سير الصحابة رضوان الله عليهم أدرك شيئاً من دقة تطبيقهم لمعاني هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ فمنهم العالم المتخصص، ومنهم المعروف بالسُّنَّان ومقارعة الفرسان، وثالث يدع في ميادين الشعر والبيان.

(١) البخاري ح (٧١١٢)، مسلم ح (٢٦٤٨).

ومن جميل ما يُذكر في هذا المقام: القصة التي رواها ابن عبد البر في «التمهيد» ذلك أن عبد الله بن عبد العزيز العمري العابد، كتب إلى الإمام مالك يحضه إلى الانفراد والعمل، ويرغبُ به عن الاجتماع إليه في العلم، فكتب إليه مالك: «إن الله ﷻ قَسَمَ الأعمال كما قَسَمَ الأرزاق، فَرُبَّ رجل فُتِحَ له في الصلاة ولم يُفْتَحَ له في الصوم، وآخر فُتِحَ له في الصدقة ولم يُفْتَحَ له في الصيام، وآخر فُتِحَ له في الجهاد ولم يُفْتَحَ له في الصلاة، ونشرُ العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر، وقد رُضيتُ بما فتح الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير، ويجب على كل واحد منا أن يرضى بما قسم له، والسلام»^(١).

وهذا الجواب من الإمام مالك لا يدل على علمه فحسب، بل على وفور عقله، وسمو أدبه، وجودة بيانه عن هذه القضية التي تاه في تقديرها فنام من الناس.

وفي عصرنا هذا برز سجالٌ يشبه هذا، نبّه الإمام مالك على خطأ قصور النظر فيه، فإنك واجدٌ في مقالات بعض الناس الذين نفروا للجهاد في سبيل الله عتاباً ولوماً لبعض العلماء المتفرغين للتعليم ونشر العلم، طالبين منهم النفير والخروج إلى الجهاد؛ لأن الجهاد أفضل الأعمال، وأنه فرض الوقت و... في سلسلة من التعليقات التي يُصدّرون بها هذا اللون من العتاب، ويقابل ذلك - أحياناً - عتاب آخر من قبل بعض المشتغلين بالعلم والدعوة، بلوم هؤلاء المتفرغين للجهاد، ورميهم لهم بأن كثيراً منهم ليس بعالم، ولا يفقه كثيراً من مسائل الشرع و... في سلسلة من المآخذ التي كان يمكن تهذيبها وتخفيف حدتها لو تأمل الجميع هذه القاعدة وما جاء في معناها، كالقاعدة النبوية الآتفة الذكر: «كل ميسر لما خلق له».

يوضح هذا ويبينه قول النبي ﷺ: «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة:

(١) التمهيد: (٧/١٨٥).

يا عبد الله، هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان» قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم وأرجو أن تكون منهم»^(١).

قال ابن عبد البر: «وفيه: أن أعمال البر لا يُفتح - في الأغلب - للإنسان الواحد في جميعها، وأن من فُتح له في شيء منها حُرِّم غيرها في الأغلب، وأنه قد تُفتح في جميعها للقليل من الناس، وأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه من ذلك القليل»^(٢).

وفي الساحة نماذج كثيرة خسرت الأمة طاقاتهم؛ بسبب الإخلال بما دلّت عليه هذه القاعدة: فهذا شاب مبدع في العلم، وآتاه الله فهماً وقدرةً على الحفظ، وسلك طريقه في العلم، فيأتيه من يأتيه ليقنعه بالانخراط في العمل الخيري، وكأنه - وهو في طريق الطلب - في طريق مفضول، أو عمل مرجوح!

والعكس صحيح، فمن الشباب من يجتهد في طلب العلم، لكنه لا ينجح ولا يتقدم، ويعلم مَنْ حوله أنه ليس من أهل هذا الشأن، فليس من الحكمة في شيء أن يُطالب هذا الرجل وأمثاله بأكثر مما بذل، فقد دلّت التجربة على أنه ليس من أحلاس العلم، فينبغي توجيهه إلى ما يحسنه من الأعمال؛ فالأمة بحاجة إلى طاقات في العمل الخيري، والإغاثة، والاجتماعي والدعوي.

وفيمَا أشرنا إليه في تنوع اهتمامات الصحابة رضوان الله عليهم ما يؤكد أهمية فهم هذه القاعدة على الوجه الصحيح؛ حتى لا نخسر طاقات نحن بأمس الحاجة

(١) البخاري في مواضع، منها: ح (٣٤٦٦)، مسلم ح (١٠٢٧).

(٢) التمهيد: (١٨٥/٧).

إليها، خصوصًا في هذا الزمن الذي تنوعت فيه الاهتمامات، وتعددت فيه طرائق خدمة الإسلام، ونفع الناس، والموفق من عرف ما يُحسِنه، فوظَّفه لخدمة دينه وأمته، وفي الأثر: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»^(١)، وكيف يتأتى الإتيان من شخص لا يحسن ما يعانیه ويعالجه؟!

هذه بعض هدايات الوحي: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾، ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكَلَتِهِ﴾، «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له»^(٢)، فهل نتدبرها ونستفيد منها؛ من أجل فاعلية أكثر لطاقتنا؟.



(١) أخرجه أبو يعلى: (٣٤٩/٧) ح (٤٣٨٦) وفي سنده ضعف، لكن معناه صحيح.

(٢) سبق تحريجه آنفًا.



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة التاسعة والأربعون

﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، لها أثرها البالغ في تصحيح سير الإنسان إلى ربه، وضبط عباداته ومعاملاته وسلوكياته، ومعرفة ما يخفى عليه أو يُشكل من أمر دينه.

وهذه القاعدة تكررت بنصها في موضعين من كتاب الله تعالى:

الموضع الأول: في سورة النحل، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾ [النحل: ٤٣ - ٤٤].

والموضع الثاني: في سورة الأنبياء، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وكلا الآيتين جاء في سياق إرشاد الكفار - المعاندين والمكذبين - إلى سؤال من سبقهم من أهل الكتاب، وفي هذا الإرشاد إيحاء واضح إلى أن أولئك المشركين المعاندين لا يعلمون، وأنهم جهال؛ وإلا لما كان في إرشادهم إلى السؤال فائدة.

وإذا تأملت في هذه القاعدة مع سياقها في الموضعين من سورة النحل والأنبياء،

خرجت منها بأمور:

- ١- عموم هذه القاعدة فيها مدح لأهل العلم.
- ٢- أن أعلى أنواع هذا العلم: العلمُ بكتاب الله المنزل؛ فإن الله أمر من لا يعلم معاني الوحي بالرجوع إليهم في جميع الحوادث.
- ٣- أنها تضمنت تعديل أهل العلم وتزكيتهم، حيث أمر بسؤالهم.
- ٤- أن السائل والجاهل يخرج من التبعة بمجرد السؤال، وفي ضمن هذا: أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.
- ٥- كما أشارت هذه القاعدة إلى أن أفضل أهل الذكر: أهل هذا القرآن العظيم؛ فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم^(١).
- ٦- الأمر بالتعلم، والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.
- ٧- وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك.
- ٨- وفي هذه القاعدة دليل واضح على أن الاجتهاد لا يجب على جميع الناس؛ لأن الأمر بسؤال العلماء دليل على أن هناك أقوامًا فرضهم السؤال لا الاجتهاد، وهذا كما هو دلالة الشرع، فهو منطق العقل -أيضًا- إذ لا يتصور أحدٌ أن يكون جميع الناس مجتهدين.
- لقد مرّ بنا كثيرًا في هذه القواعد، أن المقرر في علم أصول التفسير: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذه القاعدة -التي نحن بصدد الحديث

(١) ينظر: تفسير السعدي (٤٤١، ٥١٩).

عنها- مثال لذلك، فهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بأمر المعاندين أن يسألوا عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر - وهم أهل العلم -؛ فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين: أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علمٌ منها وبها، فعليه أن يسأل من يعلمها.

وهذا من الوضوح بمكان، بحيث لا يحتاج إلى استطراد، إلا أن الذي يحتاج إلى تنبيه وتوضيح هو ما يقع من مخالفة هذه القاعدة في واقع الناس، وخرقٍ للآداب التي تتعلق بهذا الموضوع المهم، ومن صور ذلك:

١- أنك ترى بعض الناس حينما تعرض له مشكلة أو نازلة، واحتاج إلى السؤال عنها سأل عنها أقرب شخص يمر به، ولو لم يعلم حاله، هل هو من أهل العلم أم لا! وبعض الناس يعتمد على المظاهر، فإذا رأى من سببها الخير ظنّ أنه من طلاب العلم أو العلماء الذين يستفتى مثلهم!

وكل ذلك غلط بين، ومخالف لما دلت عليه هذه القاعدة المحكمة: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾!

ولا أدري، ماذا يصنع هؤلاء إذا مرض أحدهم؟ أيستوقفون أول ما رآ عليهم في الشارع فيسألونه! أم يذهبون إلى أمهر الأطباء وأكثرهم حداًقاً؟

ولا أدري ماذا يصنع هؤلاء إذا أصاب سيارته عطل أو تلف؟ أيسلمها لأقرب من يمر به؟ أم يبحث عن أحسن مهندس يتقن تصليح ما أصاب سيارته من تلف؟ إذا كان هذا في إصلاح دنياه، فإن توقيه في إصلاح دينه أعظم وأخطر!

قال مالك بن أنس رحمته الله: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم»^(١).

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال: (١ / ١٦١).

ومن صور مخالفة هذه القاعدة:

٢- عدم الثبوت في الأخذ عن أهل الذكر حقًا؛ ذلك أن المتسبين للعلم كثيرًا، والمتشبهين بهم أضعاف ذلك، ومن شاهد بعض من يظهرون في الفضائيات أدرك شيئًا من ذلك؛ فإن الناس - بسبب ضعف إدراكهم، وقلة تمييزهم - يظنون أن كل من يتحدث عن الإسلام فهو عالمٌ، ويمكن استفتاءه في مسائل الشرع! ولا يفرقون بين الداعية أو الخطيب، وبين العالم الذي يعرف مآخذ الأدلة، ومدارك النصوص، فظهر - تبعًا لذلك - ألوان من الفتاوى الشاذة، بل والغلط الذي لا يُحتمل ولا يُقبل، وكثر اتباع الهوى، وتبع الرخص من عامة الناس، فرق تدينهم، وضعفت عبوديتهم بأسباب من أهمها: فوضى الفتاوى التي تعج بها كثير من الفضائيات.

وهذا ما يجعل الإنسان يفهم ويدرك جيدًا موقع المقالات المأثورة عن السلف - رحمهم الله - في شأن الفتوى وخطورتها، وهي نصوص ومواقف كثيرة، منها:

ما رواه ابن عبد البر: أن رجلًا دخل على ربيعة بن عبد الرحمن - شيخ الإمام مالك - فوجده يبكي! فقال له: ما يبكيك؟ - وارتاع لبكائه -، فقال له: أمصيبة دخلت عليك؟ فقال: لا، ولكن استفتيت من لا علم له! وظهر في الإسلام أمر عظيم! قال ربيعة: ولبعض من يفتي ههنا أحق بالسجن من الشراق^(١).

علّق العلامة ابن حمدان الحراني على هذه القصة فقال:

«قلت: فكيف لو رأى ربيعة زماننا، وإقدام من لا علم عنده على الفتيا، مع قلة خبرته وسوء سيرته وشؤم سيرته؟! وإنما قصده السمعة والرياء، ومماثلة الفضلاء والنبلاء والمشهورين المستورين، والعلماء الراسخين، والمتبحرين السابقين، ومع هذا فهم يُنّهون فلا ينتهون، ويُنبّهون فلا ينتبهون، قد أملي لهم بانعكاف الجهال عليهم،

(١) جامع بيان العلم وفضله: (٢/٢٠١).

وتركوا ما لهم في ذلك وما عليهم»^(١).

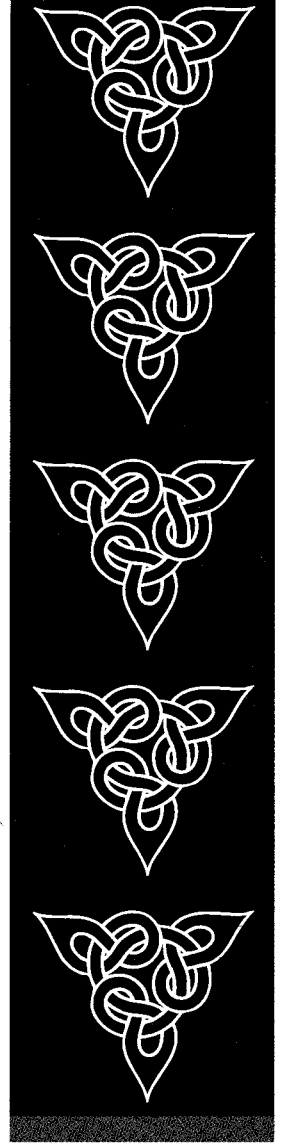
والمقصود من هذا البيان الموجز: التنبيه على ضرورة تحري الإنسان في سؤاله، وأن لا يسأل إلا من تبرأ به الذمة، ومن هو أتقى وأعلم وأورع؛ فهؤلاء هم أهل الذكر حقاً، الذين نصت هذه القاعدة على وصفهم بهذا: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وختاماً: فإن الحديث السابق لا يفهم منه -أبداً- أن جميع من يظهرون على الفضائيات كمن ذكروا آنفاً، بل فيمن يظهر -ولله الحمد- عدد طيب من العلماء الراسخين، والشيوخ المتقنين، لكن الحديث كان منصباً على طوائف من المفتين، ليسوا على جادة أهل العلم في الفتوى، وليسوا أهلاً لها: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

والله المستعان، وعليه التكلان، ونعوذ به تعالى أن نقول عليه، أو على رسوله ﷺ ما لا نعلم.



(١) صفة الفتوى (١١) لأحمد بن حمدان النمري.



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الخمسون

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾

لعل ختم هذا الكتاب بهذه القاعدة من المناسبة بوضوح، والتي تجعل المؤمن يزداد يقيناً بعظمة هذا القرآن، وأنه الكتاب الوحيد الذي يصلح لكل زمان ومكان، إنها القاعدة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

وهذه القاعدة جاءت ضمن آية كريمة في سورة الإسراء، والتي يقول الله فيها: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء: ٩ - ١٠].

قال قتادة - موضحاً بكلمات موجزة معنى هذه القاعدة -: «إن القرآن يدلکم على دائکم ودوائکم: فأما داؤکم فالذنوب والخطايا، وأما دواؤکم فالاستغفار»^(١).

وهذا التفسير من هذا الإمام الجليل إشارة واضحة إلى شموله إلى علاج جميع الأدوية، وأن فيه جميع الأدوية، لكن يبقى الشأن في الباحثين عن تلك الأدوية في هذا القرآن العظيم.

(١) الدر المنثور: (٥/٢٤٥).

ومن أراد أن يقف على شيء من محاولات العلماء -رحمهم الله- في استلها م شيء من ذلك، فليقرأ ما كتبه العلامة الشنقيطي رَحْمَةُ اللهِ فِي تفسيره لهذه الآية الكريمة، والقاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها؛ فإنه قد كتب نحوًا من ستين صفحة؛ وهو يتحدث عن نماذج عاجلها القرآن، وهَدَى لِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ فِي حَلِّهَا، أَنْتَقِي مِنْ كَلَامِهِ مَا لَهُ صِلَةٌ مُبَاشِرَةٌ بِتَوْضِيحِ كَلِمَةِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ، حَيْثُ يَقُولُ رَحْمَةُ اللهِ: «ذَكَرَ جُلٌّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَأَجْمَعُهَا لِجَمِيعِ الْعُلُومِ، وَأَخْرَجَهَا عَهْدًا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ جُلٌّ وَعَلَا يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، أَيِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَسَدٌ وَأَعْدَلُ وَأَصُوبٌ... وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَجْمَلُ اللَّهِ جُلٌّ وَعَلَا فِيهَا جَمِيعُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْهُدَى إِلَى خَيْرِ الطَّرِيقِ، وَأَعْدَلُهَا وَأَصُوبُهَا، فَلَوْ تَتَبَعْنَا تَفْصِيلَهَا عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ لِأَتَيْنَا عَلَى جَمِيعِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ؛ لِشُمُولِهَا لِجَمِيعِ مَا فِيهِ مِنَ الْهُدَى إِلَى خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَكِنَّا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - سَنَذَكُرُ جَمَلًا وَافِرَةً فِي جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنْ هُدَى الْقُرْآنِ لِلطَّرِيقِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ؛ بَيَانًا لِبَعْضِ مَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، تَنْبِيهًُا بِبَعْضِهِ عَلَى كُلِّهِ مِنَ الْمَسَائِلِ الْعِظَامِ، وَالْمَسَائِلِ الَّتِي أَنْكَرَهَا الْمَلْحَدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ، وَطَعَنُوا بِسَبَبِهَا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ؛ لِقُصُورِ إِدْرَاكِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ حِكْمِهَا الْبَالِغَةِ...»^(١) ثُمَّ سَرَدَ جَمْلَةً مِنَ الْمَسَائِلِ الْعَقْدِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ.

دَعْنَا نَسْتَعْرِضُ -بِإِجْمَالٍ شَدِيدٍ- شَيْئًا مِنْ أَنْوَاعِ هَذِهِ الْهُدَايَاتِ الَّتِي دَلَّ هُدَى الْقُرْآنِ لِلطَّرِيقِ الْأَقْوَمِ فِيهَا:

«إِنَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ فِي ضَبْطِ التَّوَازُنِ بَيْنَ ظَاهِرِ الْإِنْسَانِ وَبَاطِنِهِ، وَبَيْنَ مَشَاعِرِهِ وَسُلُوكِهِ، وَبَيْنَ عَقِيدَتِهِ وَعَمَلِهِ...

وَيَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ فِي عَالَمِ الْعِبَادَةِ: بِالْمُؤَازَنَةِ بَيْنَ التَّكْلِيفِ وَالطَّاقَةِ، فَلَا تَشَقُّ

(١) أضواء البيان: (٣/١٧-٥٤).

التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادًا وأزواجًا، وحكومات وشعوبًا، ودولًا وأجناسًا، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنان، ولا تصرفها المصالح والأغراض...

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها، والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرمتها؛ فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووثام...^(١).

إذا تأملنا هذا الإطلاق في هذه القاعدة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أدركت أنها آية تتجاوز في هدايتها حدود الزمان والمكان، وتتجاوز كل الأنظمة والقوانين التي كانت قائمة أو التي ستقوم بعد ذلك!

إنها قاعدة تقطع الطريق على جميع المنهزمين والمتخاذلين من أهل الإسلام أو المنتسبين له، أو من الزنادقة، الذين يظنون - لجهلهم - أن هذا القرآن إنما هو كتاب رقائق ومواعظ، ويعالج قضايا محدودة من الأحكام! أما القضايا الكبرى، كقضايا السياسة، والعلاقات الدولية، ونحوها، فإن القرآن ليس فيه ما يشفي في علاج هذه القضايا!!

وهذا الكلام - فضلًا عن كونه خطيرًا وقد يؤدي إلى الكفر - فإنه سوء أدب مع الله! ذلك أن ربنا - وهو العليم الخبير - يعلم حين أنزل القرآن أن العباد سيُقبلون على متغيرات كثيرة، وانفتاح، وعلاقات، ومستجدات، فلم يتركهم هملاً، بل حفظ

(١) ينظر: في ظلال القرآن (٤/٢٢١٥).

لهم هذا القرآن ليرجعوا إلى هداياته، وحفظ لهم سنة نبيه ﷺ لتكون شارحةً لما أجمل من قواعد القرآن، بل وجعل في السنة أحكامًا مستقلة، فمن أراد الهداية وجدها فيها، ومن كان في عينه عشى، أو في قلبه عمى، فليتهم نفسه، ولا يرمين نصوص الوحي بالنقص والقصور:

قد تنكرُ العينُ ضوءَ الشمسِ من رمِدٍ ويُنكرُ الفمُ طعمَ الماءِ من سَقَمٍ^(١)

وأختم ما أردتُ الإشارةَ إليه في الحديث عن هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ بهذه القصة التي وقفتُ عليها، وهي أنني أذكر أن أحد العلماء لما طُلبَ منه أن يلقي محاضرة حول هداية هذه القاعدة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال في نفسه: وماذا سأقول عن هذه الآية في ساعة أو أكثر؟! فقررت أن أراجع كلام بعض المفسرين حولها، فبدأت بتفسير السعدي، فوجدته يقول: «يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: أعدل وأعلى من العقائد، والأعمال، والأخلاق»^(٢).

فقررت أن أبدأ بالحديث عن هداية القرآن للتي هي أقوم في أبواب العقائد، فانتهى وقت المحاضرة ولم أنته من الحديث عن هذه الجزئية فقط! فكيف بمن أراد الحديث عن هداية القرآن للتي هي أقوم في أبواب العبادات؟ والمعاملات؟ والأحوال الشخصية؟ والحدود؟ والأخلاق والسلوك؟ فعلمت أن من يريد الحديث عن هذه القاعدة، فسيحتاج إلى عشرات المحاضرات.

هذا كتاب ربنا، يخبرنا فيه أنه يهدي للتي هي أقوم، فأين الباحثون عن هداياته؟ وأين الواردون حياضه؟ وأين الناهلون من معينه؟ وأين المهتدون بتوجيهاته؟.

(١) هذا البيت ضمن بردة البوصيري.

(٢) تفسير السعدي (٤٥٤).

وبعد: -أيها القارئ- فهذه هي القاعدة المتممة للخمسين، وبها ينتهي كلامنا على جملة من القواعد التي تضمنها كتاب الله العظيم، وتسليط الضوء على تلك القواعد، وإبراز بعض ما تضمنته من هدايات وتوجيهات ربانية، ومحاولة تنزيلها على واقع الناس؛ لأن من أجل صور عظمة القرآن: هو تجدد معانيه بتجدد أحوال الناس؛ ليبقى هاديًا ومقيماً لمن أراد الله هدايته واستقامته، ولهذا السبب -أيضاً- ختمت بذكر هذه القاعدة ليزداد يقين الإنسان -في ضوء ما تقدم ذكره من قواعد قرآنية- من أن هذا القرآن حقًا وقيماً يهدي للتي هي أقوم.

والحمد لله رب العالمين.





الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
تمهيد	٩
القاعدة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾	١٣
القاعدة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾	١٧
القاعدة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾	٢٣
القاعدة الرابعة: قوله تعالى: ﴿كُلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ﴾	٢٩
القاعدة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مِنْ أَفْتَرَىٰ﴾	٣٥
القاعدة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾	٤١
القاعدة السابعة: قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾	٤٧
القاعدة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَلَا نَزْرُ وَإِزْرَةٌ وَرِزْرٌ أُخْرَىٰ﴾	٥١
القاعدة التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾	٥٧
القاعدة العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مِنْ نِصْرَتِهِ﴾	٦٥

- القاعدة الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ ٧٣
- القاعدة الثانية عشرة: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ ٧٩
- القاعدة الثالثة عشر: قوله تعالى: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ ... ٨٥
- القاعدة الرابعة عشر: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ .. ٩١
- القاعدة الخامسة عشر: قوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٩٧
- القاعدة السادسة عشر: قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ ١٠٣
- القاعدة السابعة عشر: قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ١٠٩
- القاعدة الثامنة عشر: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ١١٥
- القاعدة التاسعة عشر: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ ١٢١
- القاعدة العشرون: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ ١٢٧
- القاعدة الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ
- الصَّادِقِينَ﴾ ١٣٣
- القاعدة الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
- الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٣٩
- القاعدة الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ ١٤٥
- القاعدة الرابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ١٥١
- القاعدة الخامسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ ١٥٧
- القاعدة السادسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ ١٦٣
- القاعدة السابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ﴾ ١٦٩
- القاعدة الثامنة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ١٧٥
- القاعدة التاسعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ ١٨١
- القاعدة الثلاثون: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ١٨٧

- القاعدة الحادية والثلاثون: قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ١٩٣
- القاعدة الثانية والثلاثون: قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ١٩٩
- القاعدة الثالثة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿وَأَبْتِغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۗ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ ٢٠٥
- القاعدة الرابعة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ ٢١١
- القاعدة الخامسة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ٢١٧
- القاعدة السادسة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿فَأَنْفِقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ٢٢٣
- القاعدة السابعة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ﴾ ٢٢٩
- القاعدة الثامنة والثلاثون: قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ٢٣٥
- وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ٢٣٥
- القاعدة التاسعة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (٧) ﴿وَالِإِيَّكَ فَارْغَبْ﴾ ٢٤١
- القاعدة الأربعون: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ ٢٤٧
- القاعدة الحادية والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مِصْبِكَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ٢٥٣
- القاعدة الثانية والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ ٢٥٩
- القاعدة الثالثة والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٢٦٥
- القاعدة الرابعة والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ٢٧١
- القاعدة الخامسة والأربعون: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ بِهِنَّ السَّيِّئَاتِ﴾ ٢٧٧
- القاعدة السادسة والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ ٢٨٣
- القاعدة السابعة والأربعون: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ ٢٨٩

- القاعدة الثامنة والأربعون: قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ ٢٩٥
- القاعدة التاسعة والأربعون: قوله تعالى: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٣٠١
- القاعدة الخمسون: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ٣٠٧
- الفهرس ٣١٣

